’جائزة نوبل للآداب‘ 1968

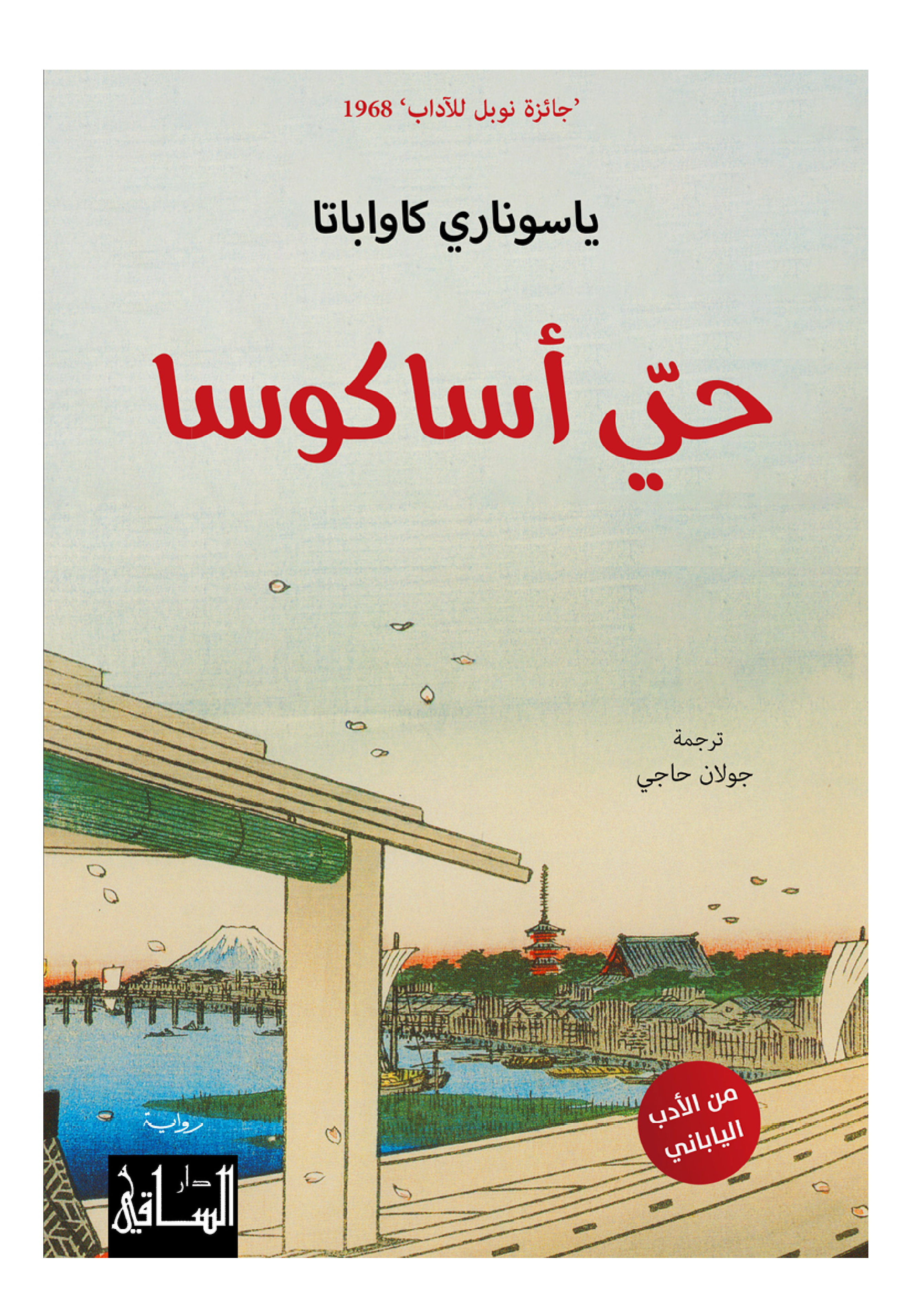
ياسوناري كاواباتا

حيّ أساكوسا



ترجمة

جولان حاجي


'جائزة نوبل للآداب' 1968
ياسوناري كاواباتا
حيّ أساكوسا
ترجمة
جولان حاجي
من الأدب الياباني
رواية
دار الساقي

حيّ أساكوسا

ياسوناري كاواباتا

حيّ أساكوسا

ترجمة
جولان حاجي



Yasunari Kawabata, *Asakusa Kurenaidan*
Originally published in Japan

الطبعة العربية

الطبعة الورقية الأولى، ٢٠١٩

الطبعة الإلكترونية، ٢٠١٩

ISBN-978-614-03-0204-4

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت. ص.ب.: ٥٣٤٢/١١٣.
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٩٦١، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٩٦١

e-mail: info@daralsaqi.com
يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com
تابعونا على


@DarAlSaqi


دار الساقي

Dar Al Saqi

تقديم المترجم

نشر ياسوناري كاواباتا سبعة وثلاثين فصلاً متسلسلاً من هذه الرواية في الطبعة المسائية من الصحيفة اليومية "آساهي" بين 20 كانون الأول/ ديسمبر 1929 و16 شباط/ فبراير 1930، وفق التقليد الياباني الذي لا يزال متّبعاً حتى الآن، حيث تنشر الأعمال الروائية على شكل حلقات في الصحافة. رافقت تلك الفصول صور لمحفورات أوتا سابورو (1884-1969) التي ضاعت أصولها بعد القصف الأميركي لطوكيو في الحرب العالمية الثانية. نشر كل فصل في القسم السفلي من الصفحة الأولى للجريدة بفاصل يومين، وكانت الطبعة المسائية تنشر للكتاب الأقل شهرة أو الأصغر سنّاً. ثم نشرت بقية الكتاب في مجلتين أدبيتين هما "إعادة البناء" و"تيارات جديدة" خلال النصف الثاني من 1930. ينتهي العمل، أو بالأحرى يتوقف عند الفصل 61. كان العنوان الأصلي الذي لا يخلو من طرافة هو "أساكسا–عصابة الحزام الأحمر" (أساكسا في اللفظ الياباني القديم).

كانت أساكوسا حي المتعة في طوكيو منذ أربعينيات القرن التاسع عشر حتى أربعينيات القرن العشرين. قال كاواباتا مرة إنه ظل يتردّد على هذا الحي يومياً طوال ثلاث سنين أثناء مرحلة الدراسة الثانوية التي أمضاها في إحدى مدارس النخبة. كان يتنقّل في الصحو والمطر من مقهى باريس إلى مقهى إلبان، وذات يوم، في مقهى نيهوكان، رأى جونيتشيرو تانيزاكي محاطاً بفتيات جميلات، وفكّر أنه قد يصير مثل هذا الكاتب في المستقبل. كان تانيزاكي يكبره بثلاثين عاماً، وكان وقتذاك كاتباً معروفاً، ولم ينهِ عمله **عروس البحر** الذي كتبه عن أساكوسا.

سنة 1920، في الحادية والعشرين، أنهى كاواباتا المدرسة الثانوية ودخل جامعة طوكيو الإمبراطورية لدراسة الأدب الياباني. استأجر غرفة في أساكوسا، في الطابق الأول فوق محلّ لتصليح القبّعات. في تلك الغرفة، بدأ كتابة أولى القصص في **راقصة إيزو**، عمله الأول المنشور سنة 1926.

كان كاواباتا في غرفته تلك حين وقع زلزال كانتو سنة 1923. نجا المبنى من الدمار. وما إن توقفت الهزات الارتدادية، حتى خرج ليرى الأنقاض مع صديقيه الكاتبين كون توكو وأكوتاغاوا ريونوسوكي. لم ينقطع عن جولات المشي اليومية الطويلة هناك، حاملاً معه في حقيبته وجبة خفيفة وزجاجة ماء. كتب لاحقاً أن قلّة قد رأوا بالعين المجرّدة أهوال الزلزال. بلغت شدة الزلزال 7.9 على مقياس ريختر، وقد ضرب طوكيو في 11:58 صباحاً يوم 1 أيلول/ سبتمبر 1923، وأعقبته

أربعون ساعة متواصلة من الحرائق. طاول الدمار القسم الأكبر من طوكيو بما فيه 96% من أساكوسا، وأودى بحياة أكثر من تسعين ألف شخص، وبلغ عدد المفقودين ثلاثة وأربعين ألفاً، والجرحى أكثر من مئة ألف. شهد كثيرون عنفاً رهيباً ضد الكوريين بسبب شائعات تردّدت عن تسببهم في الحرائق الهائلة التي تلت الزلزال، ولليابان بالطبع تاريخ طويل من التمييز ضد الأجانب، خصوصاً إذا كانوا من الأمم الآسيوية الأخرى. رجال الشرطة لم يوقفوا القتلة، وبلغ عدد الكوريين القتلى أكثر من ألفَين، كما قُتل ناشطون مدنيون وفوضويون يابانيون أمثال أوسوجي ساكاي. أعيد بناء طوكيو خلال النصف الثاني من العشرينيات، ولكن سرعان ما أتى الركود الاقتصادي بعد 1927 وانهيار السوق الأميركية، لاعتماد السوق اليابانية جزئياً على الولايات المتحدة، فاتخذت الحكومة إجراءات قمعية واسعة النطاق لمنع الاحتجاجات الاجتماعية.

أهمل كاواباتا دراسته في الجامعة الإمبراطورية التي تخرّج فيها سنة 1924. قال عنه زملاؤه في الجامعة إنه "كان مولعاً بالذهاب إلى الحمام الشعبي أكثر من حضور المحاضرات". ساهم حينذاك في تيار "الحسيين الجدد" الذين عارضوا أدباء المذهب الطبيعي في الأدب الياباني وكذلك دعاة الأدب الإيديولوجي أو البروليتاري. مستعيناً بالقواميس، حاول كاواباتا في تلك المرحلة قراءة **يوليسيس** لجيمس جويس وأعمال فرجينيا وولف باللغة الإنكليزية التي لم يكن يجيدها، وربما كان قد اطّلع على الأعمال السردية التي تناولت المدن الكبرى في أدب الحداثة الأوروبية مثل رواية **بيتربورغ** لأندريه بيلي أو **برلين ساحة ألكساندر** لألفرد دوبلين. لكنّه كان قد قرأ بالتأكيد أعمالاً أخرى مثل رواية **شانغهاي** لصديقه يوكوميتسو رييتشي، أو بيان المستقبليين الذي كتبه مارينتّي، وترجمه إلى اليابانية الجرّاح والأديب موري أوغاي وطبع في اليابان سنة صدوره في إيطاليا 1909.

سنة 1929، انتقل كاواباتا للعيش في أساكوسا، وراح يتردّد على كازينو فُولي، ويكتب عن الراقصات وحياتهن هناك. درس الحيّ وقرأ عنه الكثير. كتب أن أساكوسا 1930 كانت تضمّ أربع عشرة دار سينما واثنتي عشرة قاعة مسرح يوز ومسرح كابوكي. كان كاواباتا يعي موضة الكتابة الأدبية عن قاع المجتمع حيث "الألق والوسخ"، أو أدب المسحوقين والمهمّشين، وسماها "ذائقة الشوارع الخلفية"، تلك الذائقة التي تتقصّى غرائب المقامرين الموشومين أو المجرمين أو أسمن امرأة في اليابان أو المهرّجين والمصارعين ومدرّبي القرود والكلاب أو الشبّان المتنكّرين لزيارة المواخير، وبالطبع المومسات والأدباء. كان لدراسة عالم الاجتماع غوندا ياسونو سوكِه أثر كبير، حين نصح طلبته "أساكوسا هي كتابكم. اذهبوا إلى هناك"، ونشر دراسته الكبيرة عنها سنة 1930.

أفاد كاواباتا من السينما وتقنياتها. كتب مرة أن ''السرد ينتقل من صورة إلى صورة على منوال تعاقب الصور في شريط سينمائي''. كان قد سبق له كتابة سيناريوهات عدد من الأفلام مثل ''صفحة من الجنون'' الذي تدور أحداثه في مصحة نفسية، أخرجه كينوغازا تيسوكو سنة 1926، وأنتجته جماعة السينمائيين الجدد. وفي روايته التي بين أيدينا، يختار كاواباتا زوايا معينة ليرى المدينة بعين الكاميرا في لقطات مقرّبة أو متحركة أو بانورامية، ويستخدم المونتاج والقطع والدمج، ويستوحي لقطات من أفلام العصابات اليابانية المسماة ''ياكوزا''، أو عبارات من رواة الأفلام الصامتة. تمّ تصوير فيلم عن ''عصابة الحزام الأحمر'' يحمل عنوان الكتاب نفسه سنة 1930 قبل انتهاء نشر الرواية بالكامل.

أوردت هذه الأمثلة لأن هذه الرواية قد تندرج ضمن روايات الحداثة الأولى في آداب القرن العشرين. كثيراً ما يترك كاواباتا إحدى القصص غير مكتملة، لينتقل إلى قصة أخرى، في قفزات سريعة مفاجئة تترك النهايات معلقة. للقارئ أن يخمّن ما تبقّى أو يتوقّع من المتكلّم أو المتكلّمة في بعض الحوارات، لأنّ حذف الفاعل شائع في اللغة اليابانية. على أي حال، هناك ثلاثة أصوات واضحة في سرد هذه الرواية: صوت الراوي الذي يخاطب القرّاء، وصوت الراوي بوصفه شخصية في الرواية ويعلّق على سيرها وأحداثها أحياناً، والصوت الثالث الموضوعي الذي يعلم الخفايا. كثيراً ما يتقطع السرد أو يتشظّى أو ينعطف فجأة ولا يكمل ما بدأه، ثم تظهر شخصيات جديدة لا نعرف عنها شيئاً. فضلاً عن الغموض الذي تتسم به كتابات كاواباتا عموماً، ورهافته في الحذف والإضمار، تبدو هذه الرواية قطيعة مع الرواية الواقعية التي هيمنت على الأدب الياباني خلال العقدين الأولين من القرن العشرين. في صفحات هذا الكتاب شخص عابر مجهول يصف مشاهد عابرة في مدينة مزدحمة. إنه متنزّه متسكّع لا يلتزم شيئاً ولا أحداً، وتعليقه الوحيد على الأشياء هو وصف ما يراه. عين كاواباتا تنتقي وتحذف. قد يُقال أن دور الراصد أو المتفرّج يعيّن أعماله السردية ويمنحها طابعها الخاص، ويقيّدها في الوقت نفسه، وقد تأخذ هذه الفرجة شكل التلصّص أحياناً، كما كان الكاتب نفسه يخشى. لنتذكر هنا وصف الفتاة النائمة في القارب في هذه الرواية، وقد يعيد إلى أذهاننا روايته **منزل الجميلات النائمات**.

حيّ أساكوسا هي رواية كاواباتا الأولى، وتدور معظم أحداثها عامي 1929 و1930. قد تكون أصعب أعماله وأعصاها على النقل إلى لغات أخرى وأعقدها أسلوبياً. أحسب ترجمتها تحدياً كبيراً لأي مترجم، يستلزم إلماماً بالأدب والتراث اليابانيين وتشعباتهما، كما يتعذر النقل الحرفي في مواضع كثيرة بسبب التباين الهائل بين اليابانية ولغات أخرى كالإنكليزية أو الفرنسية أو العربية،

فما بالكم إذا كان الكاتب قد استخدم لغة البانجو القديمة التي لا يستطيع قراءتها عموم القراء اليابانيين حالياً[1]؟ لم يكن ثمة مناص أحياناً من خسارة الاقتضاب وروح الدعابة في السرد، وتعذّر على سبيل المثال نقل الجناس بين كلمتي "صعلوك" و"مجنون". لكننا حافظنا على إيقاع الجمل القصيرة وعلامات الترقيم وأقواس التنصيص عند التوكيد أو السخرية وأوردنا ترجمة بعض المفردات بين أقواس معقوفة في متون النصوص، وكذلك حافظنا على تكرار السطر الأخير من الفصل في مستهل الفصل الذي يليه، وفق مقتضيات النشر الصحافي وقتذاك.

1 لا بد من الإشارة إلى أننا قد اعتمدنا في إعداد الحواشي وكتابة هذا النص على كتب ومقالات لدونالد ريتشي وأليسا فريدمان وسوزان روسيه وسيسيل ساكاي، إضافة إلى مراجع أخرى متفرّقة.

كُتب هذا الكتاب بشيء من الاستعجال لدواعي النشر الملحة في الصحافة، وروجع لاحقاً. تخيّل كاواباتا عصابة يوميكو ذات الحزام الأحمر وأفرادها، أما بقية العصابات المذكورة، فكانت موجودة فعلاً. يتعمّد الكاتب التشويش والخلط بين الأشخاص والأزمنة في السرد، وإن كان الزمن الطاغي هو الحاضر. ثمة تعدد في الأساليب بقديمها وحديثها، يجمع اللغة المقعّرة والفصاحة والبلاغة القديمة مع مفردات المحكية وكلام الشوارع والتداعيات الحرّة والأغاني والاقتباسات من الصحف والدعايات... إلخ. المصادر غير مذكورة أحياناً. لم يذكر الكاتب مثلاً كتاب سويدا آزنبو "أرشيف العالم السفلي في أساكوسا" (1930)، أو "عروس البحر" لتانيزاكي (1930)، أو "قصص لا يعرفها أحد عن أساكوسا" لإيشيزومي هارونوسكي (1927)، والأخير يضمّ مثلاً تصانيف المشرّدين وفئاتهم.

كان كاواباتا مفتوناً بعصر إيدو. ومنذ الصفحة الأولى لهذا الكتاب تبدأ بالظهور الأسماء غير المألوفة لنا على الأقل، ونلمس التقليد المتّبع في ذلك العصر حين كان الكاتب يتبنّى في الاستهلال مسؤولية عمله وتبعاته المحتملة، ثم لا نلبث أن نرى "صياد العصافير" الذي يجوب حديقة أساكوسا على شاكلة الكاتب نفسه الذي يريد أن يلتقط العصافير الصغيرة، فهي تحمل أرواح الموتى وفق المعتقدات اليابانية.

انحسر زخم الحياة في أساكوسا مع مناخ العسكرة الذي بدأ يجتاح اليابان سنة 1938. الغارات الأميركية في 9 و10 آذار/ مارس 1945 أحرقت الحيّ ودمّرت معبد كانّون، ودمّرت ثلثي طوكيو وقتلت حوالى ثمانين ألف شخص. وبعد استسلام اليابان، أعطت القوات الأميركية القسم الأكبر من أراضي أساكوسا إلى معبد كانّون الذي باعها بدوره فاختفت حديقة أساكوسا ومعها بركة هيوتان وتحولت المنطقة الخلفية للمعبد إلى مرآب لحافلات السيّاح، وبيعت أقسام أخرى إلى شركات سينما

بنت مسارح جديدة وصالات للترفيه. بدأت عروض التعرّي الغربية بالظهور بعد 1948، وانطوت صفحة أساكوسا تدريجياً لتصبح شينجوكو مدينة الليل الجديدة.

في وقت لاحق، قال كاواباتا إنه لم يستخدم في هذا الكتاب إلا واحداً بالمئة من المواد التي كان قد دوّنها وجمعها، وما عاد راضياً عن النتيجة التي قال إنها ‘‘مخزية وتثير غثيانه‘‘. ما عاد ينشدّ إلى الكتابة التجريبية وتقنياتها المتنوّعة وبات ينفر من محاكاة النماذج الغربية. سنة 1930، كتب في يومياته التي كانت مادّته الخام الأساسية لكتابة هذه الرواية عن أساكوسا: ‘‘كل ما فعلته هناك هو المشي. لم أتعرف أبداً إلى أي من الزعران. لم أتوجّه بكلمة واحدة إلى أي من المشرّدين والشحّاذين والصعاليك. اكتفيتُ بتدوين ملاحظاتي‘‘.

تشقّ علينا معرفة أيّ خسائر ستكبّدُ هذه الرواية أعضاءَ ’’عصابة الحزام الأحمر‘‘ الذين اتّخذوا حديقة أساكوسا ونواحيها أوكاراً لهم. أستميحهم عذراً، لأن هذا الكتاب، في خاتمة المطاف، رواية ليس إلا.

المؤلّف

فتاة البيانو

1

”في طوكيو الحديثة، على منوال الكتب القديمة المصوّرة في عصر إيدو بالضبط، لا يزال بإمكاننا حتى الآن أن نرى صياد العصافير لابساً جوارب جلد طويلة سوداء وسروالاً داخلياً أبيض وقفازات بيضاء عتيقة من دون أصابع وكيمونو مقلَّماً بخطوط زرقاء فاتحة ومرفوعاً من الخلف بحزام من جلد الغزال تغلقه عروة نحاسية كامدة، وقد علّق إلى وركه جراباً جلدياً وبِراً قاتمَ السواد والغليون مربوط إليه بسلسلة من حجر الآغات، ومعه علبة التبغ قديمة الطراز المليئة بتبغ كوكوبو الفاخر عابق الرائحة والممزوج ببضعة عيدان خضراء ترطّبه“، الرجل الذي روى لي هذه الكلمات مفتش شرطة في بلدية طوكيو، وليس عهده التندّر على الماضي، كما قد يُخيَّل إلينا.

أما أنا، فراغبٌ في الكلام على منوال القدامى أيام عصر إيدو. فلننتهجْ هذا الطريق. ربما علينا التحقّق، أيّها القرّاء الأعزّاء، إذا ما كان الطريق الذي سيفضي بكم إلى مرتع عصابة الحزام الأحمر هو نفسه الذي كان يسلكه أسيادٌ يمتطون جياداً بيضاء في الأيام الغابرة للإمبراطورين مانجي وكانبوم[2]، وينتضون سيوفاً أغمادها البيضاء مدسوسة في أحزمتهم الجلدية البيضاء، البياض يجلّلهم وهم ذاهبون إلى يوشيوارا، والخيّالة يغنّون للسائسين أغنيات كومورو–بوشي.

2 الإمبراطور كانبوم خلَفَ الإمبراطور مانجي خلال القرن الأول من عصر إيدو الذي امتدّ من 1603 إلى 1868. إيدو هو الاسم القديم لمدينة طوكيو. [الهوامش كافة من وضع المترجم باستثناء هامش واحد يشار إليه في موضعه. لمزيد من الشروح والإيضاحات، يُرجى الاطلاع على الملحق الذي أعدّه المترجم في نهاية الكتاب، ويتضمّن ثبتاً بعدد كبير من أسماء الأعلام والأمكنة والمصطلحات مبوّباً وفق عدد من المواضيع ومرتّباً وفق التسلسل الأبجدي]

فلنفترض الآن أن الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحاً وحتى المشرّدون يغطّون في النوم، وأنا أتنزّه هنا مع يوميكو في فناء معبد سنسو. أوراق جِنكة[3] ميتة ترفرف وتتساقط على الأرض، فيما نحن مصغيان إلى صياح الديكة.

3 شجرة معمّرة وإحدى الكائنات القليلة التي بقيت على قيد الحياة بعد إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما. ورقتها سميكة جلدية الملمس تحوي شقاً عمودياً يوحي بأنها نصفان ويمنحها شكل المروحة. شعار مدينة طوكيو مستوحى من هذه الورقة نفسها.

– هذا مضحك. إنهم يربّون الدجاجات في معبد الإلهة كانّون[4].

4 كان الأهالي يطلقون الدجاجات في أنحاء المعبد لتطيرهم من صياح الديكة في الليل. يصف كاواباتا هذه الخرافة في قصة ”الراقصة والديك“ من كتابه **قصص بحجم راحة اليد**.

أقول وأتسمّر في مكاني وتتجمّد قدماي. الآن تقف قبالتنا أربع فتيات يافعات بزيّهنّ الكامل ووجوههن مطلية ببياض المساحيق.

يوميكو تضحك ساخرةً مني: "آه! كأنك تجهل فتيات أساكوسا! ستبقى سائحاً على الدوام. إنهنّ دُمى هاناياشيكي".

ومع تباشير الفجر الأولى، يقال أن صياد العصافير يصطاد بعصاه الطويلة الطيور الصغيرة على أعالي الغصون. وهذا ما قد يفوّته على الأرجح شخصٌ مثلي يتأخّر في الاستيقاظ.

فإذن، هل منعوا حالياً إبراز صور الفتيات في يوشيوارا؟ ألهذا يضعون صورهنّ الصغيرة في صناديق زجاجية وعليكم التحديق بهنّ عن كثب، كما لو كنّ عينات فراشات ستختارون من بينها؟

إليكم مثالاً آخر. تلك الآلة الموسيقية التي تجمع بين البيانو والآلة الكاتبة، وكنا نسمّيها فيما مضى "كوتو[5] تايشو"، أما الآن، فأرغمنا التجّار وأصحاب الحوانيت، بسبب صفقاتهم البائسة، على تغيير الاسم إلى "كوتو شوا".

5 الكوتو قيثارة يابانية من ثلاثة عشر وتراً.

هذا هو العالم الذي نعيش فيه هذه الأيام. لا أتحسّر على عصر إيدو المزدهر، ولكن دعوني هنا، أيّها القرّاء الأعزّاء، أبسط أمامكم "خريطة شوا" في نسختها الأخيرة التي رُسمت حين أعيد تنظيم الأحياء في المدينة بعدما ضربها زلزال كانتو الكبير سنة 1923.

انظروا، هنا في أساكوسا، يسير الترام على الطريق المعبَّد بالإسفلت بين أوغويسوداني وأوينو حتى جسر كوتوتوي. إذا ترجّلتم عند الموقف الكائن شمالاً، خلف معبد كانّون، فسوف ترون حيّ أوماميشي يميناً وحيّ سنزوكو يساراً. واصلوا المشي قليلاً، تجدوا مخفر الشرطة في كيساغاتا إلى يساركم ومدرسة فوجي الابتدائية إلى يمينكم. ومن ثم، بعد ضريح سِنجِن، ستصلون إلى مفترق طرق. امشوا بمحاذاة الجدار الحجري للضريح لتصلوا سوق ناكاميسه، ثم جسر كامياراي الذي يصل بين ضفّتي قناة يوشيوارا. ولكن قبل وصولكم إلى الجسر هناك "زقاق معيّن"، أو بالأحرى طريق قديم كأنه خارجٌ للتوّ من إحدى الروايات الواقعية القديمة... حسناً، لم يرتكب أعضاء عصابة الحزام الأحمر أيّ جُرم فادح، ولكنهم اختاروا السكنى في أساكوسا وآثروا الاختباء هنا. احتمال انقضاضهم عليكم أقلّ من انقضاض سائقي سيارات الأجرة والسائقين المحليين الذين يجرّون العربات، كما يمكنني أيضاً تزويدكم بعنوان العصابة.

"هيه، يا سيّد، يا سيّد!"، سينادي عليكم سائق منهم في حديقة أساكوسا أو أرجاء أخرى تجمعهم في يوشيوارا. "رأيت فيكم من الفور شاباً مرحاً يعرف كيف يقضي وقتاً ممتعاً. ما رأيكم بشيء مختلف في مكانٍ خاص بعض الشيء؟ مرة واحدة لا تضرّ!".

وإذ يتمّ الاتفاق، يخلع سائق العربة من الفور جزمته القماشية ذات النعلين المطاطيين وينتعل صندله الخشبي، يرمي إلى العربة قبعته المطرّزة بشعار الشركة التي تشغّله، مضارباً سائق تاكسي أجرته ين واحد[6]، هابطاً بالتعرفة إلى خمسين صنّاً[7]، لينطلق مبتعداً بزبونه. لكل سائق منهم حيّزه الخاص، سرّه الذي لا يبوح به لأحد حتى زملائه، أين يواري محظيته التي يبيعها للعابرين حين تضيق به الحال. لا يهمّ إن كان معها طفل في السنة التاسعة أو الرابعة من عمره، أو حتّى إنْ كانت حاملاً بطفل آخر في شهره السادس.

6 كانت خدمة التاكسي هذه تسمى "إنتاكو"، وقد بدأت في طوكيو سنة 1927. كان الركّاب يساومون أو يدفعون يناً واحداً مقابل الذهاب إلى أي عنوان داخل المدينة.

7 خرجت هذه العملة الصغيرة من التداول بعد الحرب العالمية الثانية. اعتمد الين عملة رسمية للبلاد سنة 1871، وكان الين الواحد يعادل عشرة ياريكان ومئة صنّ وألف رين، والصنّ الواحد يعادل مئة مو.

والآن، إن كنتُم مهتمّين بأوراق النذور[8]، أيّها القرّاء الأعزّاء، فلعلّكم قد رأيتم تلك البطاقات التي تزيّن المعابد البوذية أو أضرحة الشنتو هنا أو هناك، وقد كتب عليها "فرقة الحزام الأحمر"، إذ هكذا تُدعى "عصابة الحزام الأحمر" في تسمية أخرى، لأنها ترى نفسها جماعة مسرحية يراودها الأمل الدائم بتقديم عرضها المتألّق على الخشبة – أو ما تحسبه متألّقاً – داخل مقصورة صغيرة في بقعة أرض خالية. ثمة فتاة يافعة بين المنتسبين إليها ترونها تبيع البالونات في سوق ناكاميسه وهي ترقص الشارلستون.

8 قصاصة ورق يُكتب عليها باليابانية القديمة فأل يتوزّع على الحب والعمل والصحة. تباع هذه الأوراق حول المعابد والأضرحة. يهزّ المشتري علبة أسطوانية مليئة باللصاقات حتى تظهر من الفتحة لصاقة مرقّمة يتناسب رقمها مع رقم الفأل، وإذا خاب أمله، علّق الورقة إلى شجرة أو عمود على أرض المعبد أو الضريح، راجياً ألا يتحقّق فأل الشؤم. أحياناً تكون أوراق النذور ملصقات صغيرة تسمى "سنجافودا"، أي "ألف بَرَكة"، يلصقها الناس إلى جدران الأضرحة بعد انتهائهم من الصلاة هناك.

2

تستخدم عصابة الحزام الأحمر النذور الصغيرة التي يلصقها زوّار المعابد كتذكارات، وهي تتفرّد بهذه الطريقة. لا أدري هل ابتكر الإمبراطور كازان هذه النذور وعلّقها في كل أماكن العبادة التي زارها، أم صمّمها فنّانون في فنّ الطباعة يوكيوِ مثل أوتاغاوا تويوكوني. على أيّ حال، لا تُعلَّق هذه النذور إرضاء لنزوات زيارة عابرة، كما ليس باعثها الشفقة لدى الحجّاج الذين يزورون معبد

أعضاء عصابة الحزام الأحمر. إليكم مثالاً يبيّن الفارق الطفيف بين صلواتهم وصلوات الحجّاج العاديين. ذات يوم، قال لي ذلك الأزعر توكيكو شغّيل القارب (لُقّب بهذا الاسم لأن أباه كان مراكبياً في نهر سوميدا):

– هل تعرف معبد الطوابق الخمسة؟

– هل تقصد معبد الإلهة كانّون؟

– نعم. في منتصفه، في الطابق الثالث سواء عددتَ من الأعلى أو الأسفل، عند الناصية المقابلة لبوابة نيو، تنتأ تلك القرميدة مسنَّنة الحافة. نُحِت فيها رأسُ قرد عيناه من ذهب. أريد أن ألصق ورقةَ نذر إلى وجه ذلك القرد.

وهكذا، تحت جنح الليل، يلصقون بطاقات ”الفرقة الحمراء“ المسرحية في مواضع غير مألوفة حقاً، مثل الفانوس الأوسط بين الفوانيس الورقية الثلاثة الكبيرة عند بوابة نيو أمام معبد سنسو، أو القسم الخلفي من فانوس إيريفون–تشو المطليّ باللكر الأسود، أو إلى قرْنَي تمثال البقرة المقدسة في حديقة ضريح أوشيجيما في موكوجيما.

لا أحد في فرقتهم يطمح حقاً إلى أن يصير فنّاناً، لأنهم ببساطة يريدون إطلاق العنان لخيالهم لإغواء الجمهور، مرة واحدة على الأقل، بمثل هذه الاستعراضات الأصيلة المفاجئة والمذهلة. كما حصل، على ما أتذكر الآن، حين طلبوا مني أن أكتب لهم مسرحية كانوا سيؤدّونها، وسوف ترون سخافة التعليق الذي أدلى به واحدٌ منهم: ”مصافحتها؟ ولكن هذا لا يجوز إطلاقاً! رجاء، حاول أن تعيد ترتيب الأدوار لكي يتاح لكل واحد منّا دورٌ في مغازلة أكيكو“.

آه، نعم! هذا ما أفكّر فيه وأنا أتمشى مع أكيكو نفسه في روكّو، القطاع السادس من الحديقة. ثمة جمهرة من الناس قد اجتمعوا على ضفة بركة هيوتان، وهم يقهقهون. الشمس العذبة أواخر الصيف تدفّئ ظهورهم. وعند الاقتراب منهم تتولاني الدهشة.

عند الموضع الذي تضيق فيه البركة ثمة جزيرة صغيرة يربطها بالضفتين جسر تغطيه عريشة من زهور الوستيريا. على هذه الجزيرة، عند أكمة الياتسودا[9] تحت الصفصاف الباكي، أمام محلّ تاشيبانا للسمك المشويّ والخضار المطبوخة، ثمة شابّ ضخم يأكل رقائق الطعام المرمية إلى الأسماك. غائصاً إلى كاحليه في الماء، يلملم الرقائق الصغيرة الطافية بقضيب خيزران طوله حوالى مترين، ثم يقف منتصب القامة ويلتهمها بنهم.

9 الياتسودا، أو الأراليا أو الفاتسيا اليابانية، نبتة دائمة الخضرة.

– مجنون مئة بالمئة! يجب أن يدفع نسبة للسمك!

ويقهقه الجميع في ضحك مجلجل على ضفاف البركة. بعد التهامه الشره حوالى أربع عشرة أو خمس عشرة رقاقة من تلك الرقائق، هادئاً يخرج الشاب من البركة، بكامل الرزانة، كأن تصرّفه لا تشوبه شائبة.

لكنّ أكيكو يسارع للركض خلفه منادياً: ''كِنْ! كِنْ!''، فيتوقف الشاب وراء منزل الحشرات. يعطيه أكيكو عشرة صنّات، ثم يلتفت إليّ ويقول: ''كان هذا زوبو، هنا في الحيّ، منذ وقت قريب''.

– زوبو؟

– نعم، أي شحّاذ، خارج عن القانون، متشرّد جوّال لا مكان له. ذلك اليوم سمعتُ أنه قد استجمع قواه وقرّر الخروج ليشتغل عاملَ بناء. ولكن ها هو الآن قد عاد. إنها الأزمة. هذه أوقات صعبة.

– ماذا؟ ليس مجنوناً، إذن؟

– هل يستطيع أحد أن يأكل طعام السمك في البِركة إلا المجانين أو مَن يدّعي الجنون؟ لا أدري. لعله مجنون حقاً. العقلاء هذه الأيام يأكلون أشياء من حاويات القمامة في وضح النهار على مرأى ومسمع العالم كله! على أي حال، لقد عاد إلى هنا مرة أخرى. ولكن شاع عنه صيت ''المدّعي'' منذ عودته، فامتنع الناس عن مساعدته بأي شيء وتضوّر جوعاً.

آه، ما دام أعضاء عصابة الحزام الأحمر على هذه الشاكلة... حسناً، أيّها القرّاء الأعزّاء، اسمحوا لي باصطحابكم إلى وكرهم. هل تتذكّرون ذلك ''الزقاق المعيّن''؟ لم يكن تجوالي وضياعي هناك مجرد نزوة أو فضول صحافيٍّ يبحث عن الإثارة. ناداني اللغز. وهناك، عند طرف الزقاق المسدود، حالفني الحظّ وعثرتُ على تلك الفتاة الصغيرة، الجميلة ذات الشعر القصير، تعزف على البيانو.

3

بالنسبة إلى ذلك ''الزقاق المعين'' – قبل وصولكم إلى المفترق قرب جسر كامياراي على ضفاف يوشيوارا، انعطفوا يساراً إلى شارع جانبي صغير وامشوا فيه قليلاً لتروا أمامكم بقعة أرض خالية. إلى اليمين هناك محل إسكافي لصنع الصنادل من اللبّاد والفلّين، وإلى اليسار مشروع ميزوكيو لمعالجة الماء. حين ألمح لافتة ''للإيجار'' وراء بقعة الأرض تلك، أخطو فوق صفوف من أنابيب الخزف وأكوام من الحشائش الميتة، وأدخل ذلك الزقاق المسدود. بطبيعة الحال هذه منطقة لشقق الإيجار. الطوابق الأرضية للبيوت على جانبي المدخل مكتظّة بأكياس محشوّة بالفحم، ولا بدّ أن

السكّان كلّهم يقطنون الطوابق الأولى. قمصان رجال وملابس داخلية لسيّدات معلقة إلى قضبان خيزران على امتداد الزقاق. أفكّر أنني إذا عشتُ في هذا الملاذ، ما خشيتُ أن هناك مَن سيتعرّف إليّ.

وحين أنحني لأمرّ تحت الغسيل الذي يجفّ، ألتفتُ يساراً، فلا أرى إلا قمة برج المراقبة في مركز إطفاء نيهون. أهمهم لنفسي وأنا أتقدّم: ”لا بد أن العنوان قريب“، ثم أتوقّف عند البيت الثالث بدءاً من المدخل، لأنني رُشِقتُ بغتةً بباقة من الزهور الحمراء.

ثمة فتاة ترتدي فستاناً أحمر تعزف على البيانو في المدخل. بياضُ ساقيها الغضّتين، العاريتين من الركبتين إلى القدمين، بازغٌ بين حمرة فستانها وسواد البيانو. ليس هذا المدخل إلا شريطاً ضيقاً من الإسمنت لا يزيد عرضه عن طول صندل خشبي، ومن مكان وقوفي في الخارج، أحسبني قادراً على مدّ يدي، عبر الباب المفتوح على مصراعيه، لأشدّ الشريط الأسود الملفوف حول خصرها. هذا الشريط هو الزينة الوحيدة، والفستان أشبه بثوب للنوم ياقته واطئة ومن دون أكمام. كلا. إنّها ترتدي، حتى هنا في البيت، شيئاً من أجل الخشبة – أهو ثوب للرقص؟ بقايا المساحيق البيضاء ملتصقة بنقرة عنقها، وفوقها الشعر مقصوص وقصير كتسريحة الصبيان.

وآنَ تستدير متفاجئة نحوي، تدخل بنتٌ راكضة عمرها اثنا عشر أو ثلاثة عشر عاماً ترمقني بارتياب أيضاً، فأنصرف.

ثمة يافطة خشبية مدوَّرة معلقة إلى جدار هذا البيت، كلمتاها ”دروس بيانو“ محفورتان ومصبوغتان بالأخضر.

تقول البنت الصغيرة: ”تعرفين يا أختي، سمعتُ أن كازينو فُولي[10] قد استأنف عروضه في الأكواريوم“.

10 يجمع هذا الاسم بين اسمَي مكانين معروفين في حياة الليل الباريسية هما: كازينو دو باريس وفُولي بيرجِر.

– حقاً؟ الفتيات هناك يمشين على الخشبة بسيقان عارية. ربما أستطيع العثور على عمل في هذا المكان. ولكن أخبريني، ماذا عن الدرّاجة؟

– سأستعيرها.

وبهذه الكلمات، تصعدان إلى الطابق العلوي.

بيت الإيجار يبعد عن هنا بابين اثنين، ولكن قبل زيارته يلحّ عليّ خاطرٌ، ألا وهو أنّني أتذكّر بوضوح هاتين الفتاتين. أتذكر أين رأيتهما من قبل. في محلّ هوسندو، لدى صانع المراوح بُوناني،

حيث اشتريتُ ذات مرة مروحةَ راقصة لأختي الصغرى المقيمة في الريف. حين غادرتُ الدكّان متّجهاً صوب الزحام الكبير في سوق ناكاميسه، لاحظتُ محلاً عند الناصية يبيع آلات موسيقية. كانت هناك هارمونيكات، ماندولينات، كمنجات، نايات غربية، نايات صينية، نايات يابانية، كوتوهات خشبية، كوتوهات محمولة... كانت الفتاة الجالسة في المحلّ تعزف ببراعة على الآلة التي سُمّيت أخيراً "كوتو شوا" أغنيةً من تلك الأغنيات الرائجة التي تعرفونها جيداً، أيّها القرّاء الأعزّاء، والفضل عائد إلى أفلام السينما. سيدتي الشابة في الزقاق شبيهة بتلك الفتاة.

وماذا بعد... إنهم في أواخر الخريف، جرياً على عادتهم، يبيعون تقاويم السنة الجديدة على البسطات في شوارع أساكوسا، ولكن هناك أيضاً نساء كثيرات يبعن الكرات المطاطية هذه السنة. الكرات كافة متماثلة وكذلك طرق بيعها. جميعها مغطاة بقماش أحمر وأخضر، كأنها ملفوفة بخيطانٍ ملوّنة، وكل كرة أكبر بقليل من راحة اليد. ولهذا، تربطها البائعة بخيط ثخين إلى إصبعها الوسطى، عارضةً بضاعتها للبيع برمي الكرة المربوطة في الهواء والتقاطها. الكُرات تُباع لأن معظم البائعات مراهقات مثيرات للشفقة.

ولكن هناك فتاة تبيع كراتها أكثر لأنها جميلة. يتدلّى شريط أحمر من رأسها ذي الشعر القصير والتسريحة المستقيمة، وأسفل تنورتها القصيرة المشقوقة ساقاها ترقصان الشارلستون وقد انزلقت جواربها إلى كاحليها، وهي تردّد "شا شا، شا شا"، فيما شفتاها المطليتان بحمرة كثيفة قانية تصفّران لحن جاز، والكرة ترافق الإيقاع مثل طبل أو دفّ. حسناً، هذه الفتاة تشبه البنت الصغيرة في الزقاق.

أقرّر استئجار ذلك البيت الخالي. وأثناء سيري في عرض الشارع أمام مسرح مياتو على طريقي إلى موقف الباصات في أساكوسا، المعروف باسم "مسرح مياتو وراء حديقة أساكوسا"، تقترب دراجتان قديمتان من ورائي وتمرّان بقربي. أحد الدرّاجين اليافعين شديد الشبه بعازفة البيانو في بيت الزقاق كأنه أخوها التوأم.

قافزاً إلى سيارة أجرة من سيارات الينّ الواحد استوقفتُها، أستعجل السائق صائحاً: "اتبعْ هاتين الدرّاجتين!".

4

كانت الراقصة تؤدّي رقصة إسبانية على الخشبة (وأنا لا أخترع شيئاً من عندي، هذه قصة حقيقية)، حين رأيتُ بوضوح أنّ في مرفقيها علامات حديثة العهد لسحب الدم، رغم وجود لصاقة طبية صغيرة فوق كل منهما. في حديقة معبد سنسو، حوالى الثانية صباحاً، كان ستة عشر أو سبعة عشر كلباً شارداً يطارد قطة وحيدة في نباح مسعور. لستُ معنياً بهذا الجانب من أساكوسا، ولا بالذهاب إلى هناك لأشمّ رائحة الجريمة. ليس هذا هو السبب في اقتفائي تينك الدرّاجتين القديمتين.

أحياناً، قد يبدو عدد رجال الشرطة أكبر من المارّة العاديين الذين يجوبون أساكوسا بعد الحادية والنصف صباحاً، ولأنني لستُ مخبراً ولا شرطياً، كنتُ سأعودُ إلى البيت من غير شك، لو لم تكن الفتاة عازفة البيانو على ذاك القدر الكبير من الجمال.

ولكننا نحاذي في السير الدرّاجتين القديمتين قبل مرور سيارة الأجرة أمام مقر الشرطة العسكرية في أساكوسا، مشارفين على الوصول إلى جسر كوتوتوي.

مجموعة من عاملات البناء ملثمات الأفواه والمناشف ملفوفة حول رؤوسهنّ يمشين كالرجال آتيات من هونجو. الباعة ينصبون على الجسر البسطاتِ التي تبيع المعكرونة الصينية وفطائر الرزّ المدوّرة الطرية المحشوة بمهروس الفاصولياء الحلوة. كان هذا قبل البدء بالتصليحات الحالية في معبد أوشيجيما على الضفة الأخرى للنهر، حيث السقالات الخشبية الرقيقة وسطح التوتياء المهلهل فوق المعبد تتراقص على هدير المراكب البخارية التي تعبر النهر. بغتة، عند تمثال البقرة المقدسة حيث مفترق شينكون–تشو، يسارع السائق إلى إيقاف السيّارة: "هل تريد أن أنتظرك؟".

الدرّاجتان قد توقفّتا لشراء مصّاصات تشيتوز قدّام المعبد. أفكّر أنهما قد انتبها إلى ملاحقتي لهما، وها هما يسخران منّي. سيقدّمان إليّ بعض السكاكر. بابتسامة مصطنعة، أوعزُ للسائق بالانصراف، وأسوة بهما أدخلُ دكّان السكاكر.

الفتى، الذي أجزم أنه توأم الفتاة عازفة البيانو، يبدو في السادسة عشر من العمر، أصغر من الفتاة بعامين أو ثلاثة. يعتمر القبعة بالمقلوب، ويلبس بنطلوناً من المخمل فضفاضاً قذراً، وفي وجهه المعفَّر بالأوساخ أذناه وحدهما نظيفتان، جميلتان ومنحوتتان كقوقعتين. بهاتين الأذنين وهاتين العينين المشدوهتين يلتفت نحوي، وربما هذا ما يضرّج وجنتيّ بالخجل. سرعان ما يغادر الدكّان.

وعند جسر ماكورا ينظران يساراً إلى اليافطة الكبيرة ''صالة جسر ماكورا'' التي تعود إلى شركة سابّورو للبيرة، ويدخلان حديقة سوميدا.

معبد الطوابق الخمسة يقع بالضبط على الجهة المقابلة للرافعة الكبيرة التي نصبت وسط نهر أوكاوا من أجل بناء جسر معدني لسكة القطار في موضع محطة ماكورا للمراكب. عائماً فوق المياه الرصاصية وفوق المدينة، لا يشبه المباني هذا المعبدُ ذو الأسطحة الخضراء، وإنما يمنح إيحاء لطيفاً بنوع من النباتات اليانعة الضخمة.

حديقة سوميدا الجديدة تمتد من هنا على امتداد الطريق إلى معبد تشومي. أو إذا استخدمنا نقاطنا العلّام الجديدة، فإنها تغطّي منطقة محدّدة بدرب معبّد للمشاة يوازي ضفة النهر من زوارق المدرسة العليا للتجارة إلى نهاية مرسى المراكب. كانت هذه هي ضفة موكوجيما في عصر شوا.

''مستعدّ؟''، تنادي زوجة شابة متحمّسة وهي متحفّزة في وقوفها إلى جوار زوجها، متأهّبة، على ما يبدو، للجري على هذا المضمار المعبّد المستقيم.

''انطلق!''، تقفز إلى الأمام وهي تنتعل صندلها اللبّاد، لتبدأ الركض مع زوجها، وكلٌّ منهما يحمل بين ذراعيه ولداً صغيراً. يبدو الولدان توأمين حقيقيين، من بنطلونيهما الأزرقين والشريطين الأزرقين في تسريحتيهما المتطابقتين.

ووراء مشهد هذه الغبطة العائلية الشابّان اللذان ألاحقهما.

''أوه، العمى! سأريك العجلة المضروبة!''، مازحاً يقول الفتى ذو الأذنين الجميلتين وهو يجهّز درّاجته إلى جوار درّاجة صديقه ويخرج من جيبه مزمار جاز، وهي آلة صغيرة ذات لون أصفر ذهبيّ وأنابيبها متلاصقة، من ذاك الصنف الذي يباع على بسطات الليل ورواجه كاسح بين الأطفال هذه السنة. ينفخ في الصفّارة بقوة معطياً إشارة الانطلاق، ليبدأ سباق الدرّاجات.

ينبح كلب على زورق. تظهر السفينة سوميدا– مارو رقم 9 وهي تسحب عبر النهر السفينة آزوما– مارو رقم 7. مركب المدرسة يرسو على الضفة ويريح مجاذيفه. تدخله حلاّقتان متدرّبتان تركضان وأيديهما مدسوسة في مئزريهما.

أسلك المعبر تحت جسر كوتوتوي لكيلا أضيّع أثر الشابّين. الهواء بارد. ربما المشردون ينامون هنا، كما تدلّ الحروف الكبيرة المكتوبة بالطباشير الأبيض على إسمنت الرصيف: ''ممنوع النوم هنا''، ''ممنوع الاستلقاء هنا''.

ثم ألمحهما بعد قليل مرة أخرى، حين تبدأ المصابيح الزرقاء والحمراء في برج مطعم المترو ومضَانَها وهي تشتعل وتنطفئ. إنهما واقفان على جسر كوتوتوي ينظران إلى العشاءات التي تُقدَّم

على المراكب.

في تلك اللحظات، على الجسر، توجّهتُ بالكلام للمرة الأولى إلى عضو في عصابة الحزام الأحمر في أساكوسا.

5

جسر كوتوتوي (المفتتح في فبراير 1928 والمشيّد من مكتب إعادة البناء بعد الزلازل) منبسط ولامع، فسيح وأبيض، كسطح باخرة عصرية. إنه يرسم طريقاً جديداً ومعافى فوق المياه الآسنة لنهر أوكاوا المتّسخ بقمامة المدينة.

وإذ أجتاز الجسر مرة أخرى، تنعكس الدعايات المضاءة ومصابيح الشوارع على صفحة الماء المعتم، وكأنّ كآبة المدينة تتدفّق قربي. في غسق أساكوسا، على الضفة حيث ورشات البناء في الحديقة، بمقدوري أن أرى في البعيد حجارة مقطّعة لامعة البياض وعمّالاً يوقدون ناراً وخيولهم إلى جوارهم.

أنحني على درابزين الجسر، فيتناهى إليّ الخرير الخافت للمدّ. إنها ساعة العشاء على ثلاثة قوارب راسية عند الرصيف الإسمنتي مربوطة إلى عمود.

يعلو البخار من الرزّ المطبوخ على مواقد الصلصال في مؤخرة القوارب. شابة لفت رأسها بمنشفة تسير على حافة قارب وبين يديها طبق خشبي من الرزّ. ثياب حمراء مغسولة علقت لتجفّ على مجذاف ممدود بالعرض في مقدمة القارب. في القارب المجاور، على ضوء قنديل نفط، يُشوى سمك الأسقمري. ثمة مصفاة للميسو[11] وحطبٌ ودِلاء وأغراض أخرى مبعثرة على السطح.

[11] عجينة من فول الصويا المخمر تستخدم في تحضير الحساء الياباني.

هناك أربعة أو خمسة أشخاص غيري، عائدين من العمل، يلقون نظرة عابرة على القوارب، ولكن العوائل الصغيرة لا تكترث بهم بتاتاً. يمرّ زورق بخاريّ فيترنّح في خلخلة الهواء بعده طفلٌ يغسل البصل الأخضر في النهر ويكاد يفقد توازنه. أسمع نداء ورائي: ”أليس ذاك قارب توكي؟“.

– توكييي!

ألتفت فأرى الدرّاجين اللذين غابا عن بصري توّاً. الطفل الذي يغسل البصل يرفع ناظريه.

– توكيكو، صحيح؟ سأرمي إليك ببعض السكاكر!

”مرحبا! هل تعرفون؟ قال أبي إنه يستطيع أن يعيركم قارباً!“، يقول الصوت الآتي من النهر.

– يعيرنا؟ هل أنت متأكد؟

– آه نعم، شريطة ألا ترتكبوا أي حماقات... ولكن في المقابل، عليكم أن تأخذوا أربعتنا إلى استعراض ياسوكي بوشي.

– اتفقنا! ولكن لا تصرخ هكذا! خُذِ السكاكر!

ترتطم السكاكر بسطح القارب، فتطلّ رؤوس الموجودين على القوارب الثلاثة وأنظارهم جميعاً شاخصة إلى الأعلى باتجاه الجسر. يا لها من مفاجأة! سبعة أطفال، بين آخرين، شدّتهم هذه الضوضاء.

وإذ يرمي الفتى السكاكر فتتبعثر على سطح القارب، تحتشد جمهرة على الجسر.

الفتى، النسخة المطابقة لفتاة البيانو، لا يقول شيئاً بل يحدّق أمامه ساهماً لوهلة، ثم يختفي بهدوء وراء الفضوليين. ألحق به وأسأله مباشرة: ''ماذا تريد أن تفعل بهذا القارب؟''.

يوليني ظهره بغتة ويبتعد، ثم ينظر إليّ نظرة ماكرة وقدمه على دوّاسة الدراجة، ويقول: ''حسناً، نستطيع استخدامه لبيع النساء!''.

''ألا ترى الولدين التوأم هناك في حديقة سوميدا؟ لا بدّ أنّ هذا يعنيك''، أقول وغايتي استفزازه، ولكنه يكتفي بالتصفير. ''أعتقد أن الفتاة التي تعزف البيانو في ذلك البيت هي أختك التوأم، ولهذا...''.

– آه، فهمتُ. أنت تلاحقنا لأنها أعجبتك.

– كلا، إطلاقاً. تساءلتُ هل سأستأجر البيت المجاور لها.

– همم... فإذن، أنت تريد أن تسكن منزلاً مسكوناً؟

– ولمَ لا؟ لا يزعجني هذا!

– أنت استفزازيّ! هذا بيت للقمار. إذا تسكعتَ في تلك الناحية، فسيخبطك أحدهم على رأسك.

ثم يصفّر لصديقه تصفيراً حادّاً قبل أن يختفيا راكبين درّاجتيهما.

هكذا انتهى لقائي الأول مع أعضاء عصابة الحزام الأحمر، وقد مُني بالفشل كما ترون. ولكنني سأضجركم، أيّها القرّاء الأعزّاء، إذا واصلتُ سرد القصص بالترتيب. ولهذا دعونا نترك هذين الشابّين وهلمّوا بنا إلى أشياء أخرى.

على سبيل المثال، علمتُ لاحقاً أن توكيكو هذا يستقلّ القارب إلى مدرسة أساكوسا الابتدائية في ناحية معبد كانّون. كل صباح، يرسو أبوه بقاربه عند جسر كوتوتوي. ولكنه لا يستطيع دائماً الوصول في الوقت المناسب ساعة انصراف التلاميذ لأنه يعمل في نهر أوكاوا. ولهذا كان توكي

يتسكّع في أساكوسا منتظراً أن يقلّه أبوه عند حلول الليل أو أحياناً صباحَ اليوم التالي. وعلى هذا المنوال، صار توكي واحداً من أطفال الحديقة.

ولكن يا أيّها القرّاء الأعزّاء، لعلّ عندي دافع خفيّ وأنا أخبركم كلّ هذا. أريد منكم أن تتعاطفوا مع عصابة الحزام الأحمر، ولعلّي بالغتُ قليلاً في وصف جاذبيتهم.

أوناني ذات الشعر المجزوز

6

لعلّي بالغتُ قليلاً في وصف جاذبيتهم، هذا ما قلتُه.

ولكن يوميكو سخرت مني في أحد الأيام:

"نعم، هذه هي الحقيقة – لي سحرٌ لا يُقاوَم. أساكوسا تطعمني لأنني جذّابة. والشيء نفسه يسري على محل الآلات الموسيقية ودوّامة الخيل أيضاً. في أساكوسا، هناك كثيرون يتاجرون بالبشاعة المزرية لأشكال الناس كالشحّاذين"، ثم أردفتْ وهي تشدّ ساقي قليلاً: "ولكنك لا تعرف إلى أي مستوى يمكن أن تنحطّ قذارة الإنسان هنا".

الجاذبية التي تحدثت عنها يوميكو حسّيةُ المظهر، وتختلف قليلاً عن جاذبية عصابة الحزام الأحمر التي ربما أسرفتُ في الحديث عنها، أيّها القرّاء الأعزّاء... حسناً، اسمحوا لي أن أقدّم إليكم مثالاً آخر.

في منتصف نوفمبر، كنتُ أناقش ما جاء في الصحيفة ذلك اليوم: "ألم تتحدّثْ صحيفة المساء عن اعتقال فتاة تُدعى، على ما أظنّ، أوناني[12] ذات الشعر المجزوز؟".

12 "أُو" بادئة قد تضاف إلى أسماء العلم المؤنثة، ولا سيما للدلالة على أنهن عاهرات أو خادمات.

– أوناني؟ لا أعرف أحداً باسم أوناني. انظر إليّ. شعري قصير، لكنني أكره أن يُدعى "مجزوز"، ولا أطيق تسريحة الصبيان[13]. أوناني ذات الشعر المجزوز! كلا، إطلاقاً.

13 نصَّ مرسوم إمبراطوري سُنّ عام 1872 على الشعر القصير للرجال، وكانت هذه التسريحة مستهجنة لدى النساء.

بابتسامة خجولة وغمازة في الخدّ، طأطأت يوميكو وتقدّمت بضع خطوات.

– ثمّ أنت تعلقين لافتة تقول: "دروس بيانو"، فلا بد أن تكوني "مجزوزة الشعر"!

– لكنْ هناك أصناف كثيرة من قصّات الشعر القصير في أساكوسا.

– بالتأكيد. هناك كل الأصناف. فمثلاً، تُحلق رؤوس الفتيات كالرهبان لكيلا يهربن من الإصلاحية.

– آه، أظنّك تتحدث عن أوشين، صحيح؟

– لقد اعتقلتها الشرطة وأخذتها إلى مخفر كيزاكاتا أكثر من عشر مرات، وهربت من مدرسة الإصلاحية سبع مرات، وظلّت تتسكّع في هذه الحديقة سبع سنين منذ بلوغها سنّ العاشرة، و...

– نعم، تلك هي أوشين، ’’غوكايا‘‘ حقيقية.

– ماذا تعني ’’غوكايا‘‘؟

– مثل أوشين. مَن تذهب مع العمال المياومين والذين يجرّون العربات والزعران وجامعي القمامة والمشرّدين. معظمهن صغيرات أعمارهن دون الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة أو نساء تجاوزن الأربعين. عموماً قلّة من الشابّات الصالحات للزواج يبتن ليلهنّ في الشوارع. فلو أعملن عقولهنّ، لتدبّرن أمورهنّ رغم كل شيء، كأن تصير إحداهنّ عشيقة رجل ينفق عليها، حتى لو التقته ستّ مرات في الشهر لا غير.

– أوشين. أتساءل بكم سنة تصغر أوشين الحمراءَ المشهورة؟

– آه يا ربّي، متى عرفتَ كلَّ هذا؟

– إنها بطلة لدى الفتيات اللواتي جارتْ عليهنّ الحياة. لا أعرف عنها الكثير، ولكنها نظّمتْ عصابة من الفتيات تُدعى البواشق عندما كانت بعمر الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة. كانت الزعيمة، واتّخذت وكراً في ضريح هاشيمان في فوكاغاوا لتابعاتها العشرين أو الثلاثين، وببلوغها ستة عشر عاماً كانت قد اصطادت مئة وخمسين رجلاً. هذا ما أعرفه. تُراها ستدخل التاريخ؟

– أعرفها. كانت فتاة حالمة في الصميم. هناك أوشينات من كل نوع. هل تريد مني أن أعرّفك إلى أوشين الصبيّ ذات الشعر المجزوز؟

– لا. تكفيني أويومي الصبيّ ذات الشعر المجزوز.

– ها أنت تعيد الكرّة من جديد... ولكن، على أي حال، سأدلّك إليها ذات مرة. الصباح هو الوقت الأنسب. لماذا لا تذهب للبحث عنها مع أكيكو؟ اذهبْ حين يستيقظ المشرّدون ويطلعون من قصورهم. وحتى لو لم ترَ أوشين ذاتها، فكن على ثقة أنّك ستصادف ’’غوكايا‘‘ واحدة أو اثنتين.

واضحٌ أنها ما نسيت الوعد الذي قطعته، إذ سرعان ما دعاني أكيكو إلى الحديقة في ضباب الصباح.

ظلّت مصابيح الشوارع مضاءة طوال الليل. أضواؤها تبهر العين في غبش الصباح.

شارع هيساغو الذي يدعى عادة شارع يونيكو مزيّنٌ بمصابيح غاز تشبه زنابق الوديان. في ذلك الشارع، يقع المطعم الوحيد الذي يبقى مفتوحاً طوال الليل في الحديقة، وهو المحل الرئيسي في سلسلة محلات آزوما، حيث يفطر الزبائن أطباقاً ساخنة من الغيودون وهم يستمعون للراديو وشارته المدوية تعلن التمارين الرياضية في بداية الصباح.

هذه هي الساعة التي يستمتع فيها المشرّدون بالتفرّج على ملصقات الأفلام أمام دور السينما. لا أحد يعبأ بطردهم من هناك، ولا أحد ينعتهم بالوسخين. يغتنمون الهدوء حينئذ ويتفرّجون، سعيدين مغمورين بضياء الشمس مطلع الصبح.

في أساكوسا هذه التي تتأخر في الاستيقاظ عادة، لا تزال مغلقةً صالونات الحلاقين، وهي أول المحلات التي تفتح أبوابها باكراً، وأمام أحدها، قدّام مرآة مثبَّتة إلى عمود، تقف فتاة ساحرة وهي تضع مكياجها.

7

هذا الصباح، وجه أكيكو – الفتى الذي ضيّعت عيناي أثره على جسر كوتوتوي – بعدما غُسلت عنه الأوساخ، أبيض كوجه طفل يمثّل على خشبة أوبرا أساكوسا. يمشي مسرعاً، وأصابع يديه معقودة حول مؤخرة عنقه كأنها تحاول أن تستر ملاسته، وخداه متواريان خلف مرفقيه.

ثمة شيء ما يتدلّى من إحدى ذراعيه، مثل حقيبة لصندل تلميذ في المدرسة الابتدائية.

– أهذا غداؤك؟

– لا. هذه علبة مكياجي.

أشعة الشمس الناعمة تتخلل عذوبة الظلال، عابقة بأريج الصباح وضبابه، وما من محل واحد مفتوح.

نمشي بمحاذاة مسرح نيهون، ثم نسلك طريقاً مختصراً عبر زقاق خلفي، وراء مطبخ مطعم سوداشو، وصولاً إلى شارع كيتاناكا المعروف في هذه الأنحاء باسم "زقاق كلب الراكون"، والرايات الحمراء تشير إلى حسومات خاصّة عند الظهر حين يموج الزحام وسط الحوانيت الصغيرة، أما في الصباح الباكر، فالإسفلت نظيف كالشوارع في مدينة للدمى.

هناك شخص واحد فقط في الشارع، "المجنونة الحلوة"، واقفة قدّام المرآة المثبّتة إلى عمود أمام صالون الحلاقة. جمالها مخيف ويبعث على الفرار. كأنني رُشقتُ بماء بارد. يقترب أكيكو منها راكضاً.

– مرحباً! خير لك أن تركضي إلى البيت يا أختي.

تلتفت فأرى شعرها الأحمر كالخريف مصفّفاً في تسريحة غريبة تشبه تسريحة شيمادا. وجهها مغطى بمسحوق أبيض سميك كطبقة من السكر على الحلوى. الياقة الحمراء للكيمونو، المطرزة

بزهور الخوخ البيضاء، تشيع حزناً غريباً. بعينيه الواسعتين، يحدّق أكيكو في تنورة الكيمونو نصف المفتوحة، ثم يشدّ طرفيها ليغلقها ويسأل: ''هل غادرتِ البيت بالفعل عند طلوع الضوء؟ هل أنتِ من فتح الكيمونو؟ آمل أنكِ لم تأتي إلى هنا لمّا كان الظلام مخيّماً''.

ولكنها تبتعد عنا دون أن تنبس بكلمة واحدة، كأنها تبرهن جنونها فعلاً.

نستدير إلى شارع سوق ناكاميسه. أبواب التوتياء لا تزال مسدلة على جميع الدكاكين، وأمامها باعة الشوارع يمدّون حصُرَ بسطاتهم. قرويٌّ يرتدي كيمونو فضفاضاً من النزل الذي يقيم فيه، يشتري دزينة من أقلام الرصاص بعشرة صنات.

فتيات غيشا يزرن المعابد في الصباح. أطفال يذهبون إلى المدارس. شحّاذون. مربّيات. عمّال مياومون. رجال يعودون إلى بيوتهم بعد ليلة في المدينة. مشرّدون. لا يدعو هذا الخليط المتنوّع إلى الدهشة، ولكن حشود الناس أمام البسطات في شارع معبد سنسو عند السابعة أو الثامنة صباحاً يبدون غافلين جميعاً، كأنهم لا يعرفون شيئاً عن حياة الليل والعالم المراوغ للذّة. هذه إحدى أعاجيب أساكوسا.

ولكن فوق أحد الأكشاك، إلى يسار بوابة نيو، عُلّقتْ لافتتان:

هنا تُقْبل التبرّعات لإجراء تصليحات كبرى للقاعة الرئيسية في المعبد.

هنا تُقْبل التبرّعات من أجل أحجار السطح في القاعة الرئيسية للمعبد.

وإذا كان بمستطاعي تمييز هذين الإعلانين بوضوح على اللوحتين الخشبيّتين، فهذا يعني أن الزحام الحقيقي في أساكوسا لم يبدأ بعد. ثمة شحّاذ نائم متدثر ببطانية حمراء متكوراً في استلقائه لصق الكشك.

إلى اليمين، وراء ضريح كومِه نو هيناي، هناك حوالى عشرين مشرّداً مقرفصين لتناول الفطور، والبخار يتصاعد من طنجرة مليئة ببقايا الأرزّ وقشور الخضار تغلي تحت شجرة قرب الجدار الطينيّ. الرجل الذي يغرف العصيدة يقول للمشرّدين الممسكين بقصعاتهم: ''هذه لك، وهذه لك''، ويعطي كلّ واحد منهم ملء قصعته.

بجانب قاعة كانون، صانع السيقان الخشبية الطويلة بهمّتهِ العالية يقطع أغصان الخيزران الأخضر. ''سيدات الحمائم'' العجائز اللواتي يبعن البازلاء لإطعام الحمَام يأكلن على الفطور بعض تلك البازلاء نفسها. ستة منهنّ، برؤوس غطّتها المناشف، جالسات حول طاولة صغيرة من الصفيح. أسراب الحمام تغطّي الأسطحة والأرض والسماء.

أربع أو خمس دجاجات جاثمة على الفانوس الحجريّ وراء الصرح الذي يحيي الذكرى المجيدة لانتصار القوات اليابانية في منشوريا خلال الحرب الصينية–اليابانية[14].

14 وقعت هذه الحرب بين 1894 و1895 وانتهت بهزيمة الصين.

نشقّ طريقنا وسط الحمائم، وندخل ساحة محاطة بالشجر. هنا وهناك، المشردون في لقاءاتهم الصباحية على المقاعد.

حتى لو مرّ الصبيان باعة الجرائد، أو أتى أصحاب الورشات ليأخذوا عمالاً مياومين، فمعظم هؤلاء الجلساء لا يبارحون صمتهم كممسوسين وحيدين في يأس عزلتهم، نظراتهم خاوية كأنهم قد تحجّروا على هذه المقاعد.

وحين نوشك على المغادرة من الباب الخلفي للحديقة يشدّ أكيكو كُمّي: "انظرْ!".

اثنان من عمّال السقاية في الحديقة يستريحان على مقعد. يقدّم أحدهما عقب سيجارة إلى الآخر. كلا. ليس رجلاً. إنه امرأة تترنّح في ركضها كالبطّة. امرأة، رغم الكيمونو المبطّن ذي الطبقتين وجزمة القماش ذات النعل المطاطي المعلقة إلى أحزمة الرجال عادة. شنيع.

– أترى؟ إنها واحدة من المجهولات أمثال أوناني ذات الشعر المجزوز. معظمهنّ هكذا. حثالة أساكوسا. ولكنها تبقى امرأة تحرسها الآلهة ما دامت قادرة على الركض، لأن الصعاليك الحقيقيين، في الواقع، هم أولئك الذين ما عادوا قادرين على الركض. حسناً، عُدْ إلى البيت إذا كنتَ قد اكتفيت من الرؤوس المجزوزة. يجب أن أرافق أختي وأغيّر ثيابي في محل الأزياء، وأمامي مشاغل صغيرة عليّ الاهتمام بها.

أوناني الصبيّ ذات الشعر المجزوز والوجنتين الغائرتين الشاحبتين، تنحني على الرجل فوق المقعد وتقدّم إليه عقب السيجارة الذي التقطته من التراب. الرجل ينتعل في إحدى قدميه فردة حذاء بالية ممزّقة، وصندلاً من القشّ في القدم الأخرى.

منزل الحشرات

8

النمران في هاناياشيكي نائمان. نمرٌ يريح أحد براثنه الثقيلة على بطن أنثاه. مشهد عائلي بكل معنى الكلمة. ولكن بالطبع، كما تعلمون أيضاً أيّها القرّاء الأعزاء، لا تعود شهرة هذين الركنين الصغيرين هاناياشيكي ومنزل الحشرات، المعروفين بأجواء الترفيه العائلي، إلى النمرين النائمين، وإنما إلى الأحصنة الخشبية في دوّامة الخيل.

– انظري آنستي، الألعاب النارية من جديد!

والشابّة الوافدة من منزل الحشرات تأخذ الآنسة الصغيرة بين ذراعيها وتساعدها لتترجّل عن حصانها الخشبي فتهرع راكضة وتقفز خارج دوّامة الخيل.

– انظري! انظري! خوّفتِ الحمامات حتى طارت وابتعدت.

وإذ تقول الشابة هذه الكلمات ترتطم بظهر "جنتلمان يرتدي طقماً غربيّ الطراز".

– حمقاء!

– أوه! أرجو المعذرة يا سيّد!

ترفع عينيها نحو الرجل بنظرة خجلة وقد احمرّ وجهها، ثم تبدأ مسح معطفه بمنديلها كأن مساحيقها البيضاء قد لطّخته. تلتفت إلى الآنسة الصغيرة وتقول: "هل رأيت كيف حطّ سرب الحمام هناك على سطح معبد الشافي بوذا! أرياش رؤوسها على الموضة، أكثر بكثير من تسريحة أختي الكبيرة".

– هيه، يا بلهاء، كفاك خداعاً!

تلتفت نحوه وتمعن التحديق في عينيه، ثم تتوارى فجأة داخل كشك التذاكر. تبدأ الفرقة عزفَ الموسيقا وتدور الخيول.

يبقى الرجل واقفاً في مطرحه ويقرأ لوحة إعلانية:

الرجل الوحيد على وجه الأرض الذي لديه
فم في منتصف بطنه.
الفم في وجهه للكلام فقط.
بالفم في بطنه يأكل ويكسب عيشه.

يرمق دوامة الخيل خلسة. ثمة مرايا ترصّع الوجوه الثمانية لمحور المثمَّن الخشبي، والقسم العلوي من هذا المحور يتفرّع على شكل زهرة لوتس مرصّعة بالمرايا أيضاً وتظلّل الموسيقيين، ومن حوله تدور الخيول الخشبية والسيارات محملة بالآنسات الصغيرات والسادة الصغار. فوق رؤوس الموسيقيين، تتمايل أوراق خريف مصنوعة من الورق الملوَّن وأوراق موز سميكة من الورق الأخضر ملصقة إلى السقف المطلي بالأبيض. ثمة مربيات وبائعات وربات منازل وعمّال وآباء يجلسون على المقاعد أو يتكئون إلى الجدران ويتفرجون على الخيول تدور وتدور، والرضى بادٍ على وجوههم، لطفاء على شفاههم ابتسامات بلهاء. هؤلاء ليسوا الجمهور الوحيد. خلف كشك التذاكر يقف حوالى عشرة عمال بناء ورجال أنيقون وجنود وموظفون في المحلات وحتى طلبة مدارس.

يقتحم الرجل "اللحوح" زحام المتجمهرين.

الفتاة التي حطّت عيناه "اللحوحتان" عليها ترتدي جلباباً للعمل أخضر غامقاً فوق كيمونو رخيص من الحرير الأسود عليه مفردات حمراء وفق طريقة إيكات–كاسوري، وعلقت إلى حزامها جراباً جلدياً كبيراً، وها هي على الجهة الأخرى من دوامة الخيل، تتحدّث إلى الآنسة الصغيرة التي تمتطي حصاناً أبيض: "حدّدتُه! كأنني نلتُه!".

مزيحةً خصلة الشعر القصيرة عن جبينها ترفع ناظريها وتحدّق بالرجل وهي تزمّ شفتيها كمن تصفّر، وتنقر الأرض بأصابع صندلها اللباد على إيقاع أغنية "مارش البحّارة". يغمز الرجل: "هل تسخرين منّي؟!".

وإذ تنعطف في مشيها نحو مقدمة دوامة الخيل، تعكس المرايا نقرةَ عنقها الحليقة وشعرها القصير.

بالطبع، فتاة التذاكر هذه هي يوميكو التي عرفتموها سابقاً. إنها فتاة البيانو في الزقاق المسدود.

دوامة الخيل، بآنساتها الصغيرات وسادتها الصغار، تبرِز جمال هذه الفتاة. فعندما تبدأ الخيول الخشبية بالدوران يستطيع الرجال أن يتأمّلوها من كل الزوايا، كما لو كانت فتاة مانوكان في واجهة متجر[15].

[15] راج هذا العمل في أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات، في حي غينزا على الخصوص. كانت الفتيات يقفن في واجهات المحلات ساكنات ليلفتن انتباه المارّة.

وفي الطابق الثاني، البنت العبقرية ميوشيا فوكوياكّو ذات السنوات الستّ قد أنهت للتوّ وصلة المانزاي. عريفة الحفل على المنصة تعلن: "سيداتي سادتي، سنقدّم إليكم مثالاً حيّاً عن الطبّ

الحديث! سترون بأمّ العين الرجلَ الذي يأكل بفم في بطنه‘‘.

يقال أن ’’الرجل الذي لديه فم في بطنه‘‘ قد وُلد في آساهيغاوا في جزيرة هوكّايدو، وعانى من تضيُّق في المريء سببه الساكي وكحول الحبوب الصافي اللذين كان يشربهما ليحتمل ثلوج الشتاءات هناك. ولهذا، صُنِّع له فم جديد في كلية الطب بهوكايدو. تاجٌ من الشعر يكلّل قمة رأسه الحليق، والقسم العلوي من رقبته حليق أيضاً، ويضع نظّارة هارولد لويد[16]، ويلبس سترة قطنية بيضاء كتلك التي يرتديها لاعبو الجودو، مبقياً إياها مفتوحة ليرى الجمهور بطنه.

16 النظارة المدوّرة للممثل الأميركي هارولد لويد (1893–1971) الذي عرفت أفلامه الكوميدية الصامتة شعبية واسعة في اليابان خلال عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته.

في الأسفل، الرجل يشير بإصبعه إلى يوميكو، ويده الأخرى متوارية خلف ظهره. والآن، الآنسة الصغيرة التي شاهدتِ الحمام توّاً تقفز عن حصانها الخشبي وتذهب للوقوف قبالة الرجل.

إنها البنت الصغيرة من ذاك الزقاق المسدود إياه.

يقرأ الرجل الكلمات المكتوبة على اللافتة الورقية الحمراء التي ترفعها البنت: ’’الليلة، موعد في الطابق الثاني من المبنى المجاور...‘‘. المبنى المجاور هو الأكواريوم، وفي الطابق الأول هناك عرض راقص لفرقة كازينو فُولي.

9

’’الرجل اللغز فريد عصره، مَن له فم في بطنه‘‘، يمسك بطرفي سترته البيضاء ويرفعها كلّها. وها أنا أسألكم، أيّها القرّاء الأعزّاء، هل سبق ورأيتُم مسرحاً أتعس من هذا؟ ليس هناك إلا ثلاثة صفوف من المقاعد للمتفرجين تلاصق المنصة. وراءها، مساحة كبيرة خالية أرضها مكسوّة بالخشب.

وراءه تُرى قممُ الأشجار عبر النافذة الزجاجية المغمورة بضوء الشمس الغاربة في أواخر الخريف. منظر لكوخ صغير في الريف البعيد.

الأدعى إلى الحزن هو علب العينات الزجاجية المغبرّة، ومحتوياتها الجداجد والخنافس والفراشات والنحل، مصفوفة عند النافذة. هذا ما منح المكان اسمه القديم ’’منزل الحشرات‘‘، وهو يذكّرني بأساكوسا القديمة في عصور ميجي وتايشو.

’’لسوء الحظّ، لا أسنان للفم الذي صنّعه له الأطباء في بطنه! بكلمات أخرى، إنه أشبه بمنقار طائر‘‘.

وعندما يفكّ الرجل القماشَ القطنيّ الملفوف حول منقاره، كما أخبرتنا عريفة الحفل بالضبط، ينكشف شيءٌ يشبه غليوناً مغروزاً في بطنه. يضع قمعاً زجاجياً في فم هذا الغليون ويسكب فيه حليباً ممزوجاً بفتات الخبز.

"رغم حالته التي تستدعي الأسف، لا يستطيع هذا الجنتلمان أن ينسى طعم الساكي، ومن حين إلى آخر يكرع كأساً. إنه يشرب حوالى خُمس ليتر كل مرّة. يتذوّقه بفم وجهه، ويشربه بفم بطنه. أحياناً يتمادى في الشرب فلا يعود يدرك ماذا يفعل. لديه قصص وحكايات في يوشيوارا. انظروا إليه يكزّ على أسنانه! إنه محرَج الآن. ولكن، في جميع الأحوال، لولا هذا الفم في بطنه، ما استطاع أن يكسب قوْته، مثله مثل كمنجة الموسيقي. أليس تقدُّمُ العلوم الطبية مدهشاً حقاً؟".

يا حبّ، في الضوء الخافت
أحلُّ حزامي الأحمر القاني
لكنني وحيدة...

وفي الأسفل، تتوقّف الفرقة عن العزف حين تتوقّف دوّامة الخيل المليئة بالآنسات الصغيرات والسادة الصغار.

بعد قراءة المكتوب على الراية الحمراء التي رُفعت نصب عينيه، يُدهش الرجل ذو الطقم الغربيّ ويحملق بيوميكو.

تدير له ظهرها لتصلح ما فسد من مكياجها، ولكنها تراقبه في مرآتها.

وحين يترجّل الأطفال ويصعد أطفال جدد، تستأنف الفرقةُ العزف. تمشي يوميكو من حصان إلى حصان لتبيع التذاكر، وتقول لنادلةٍ في مئزر أبيض: "اليوم، سأودّع هذه الخيول الخشبية!".

– أنت تهدّديننا بالرحيل! هل تتقصّدين تخويفي؟

– لقد عثرتُ أخيراً على العدوّ الذي كنتُ أفتّش عنه. وهذا، على ما أعتقد، سببٌ وجيه!

تهتزّ الأحصنة، وتنطلق دوامة الخيل في دورة جديدة.

"البنت الصغيرة" ذات الراية الحمراء قد اختفت.

ولكن الرجل الذي تبع الراية الحمراء إلى الموعد في تلك الليلة يبقى منتظراً ساعتين في الطابق الثاني من الأكواريوم. ولهنيهة، تقف قربه فتاة مضفورة الخصلات محنية الرأس وضحكها المكتوم لا يتوقّف. ثم تضع يدها على كتفه، متكئة إليه الآن وهي لا تزال تضحك: "كأنّك سكران؟".

"ماذا؟"، أجابها بنبرة حادّة رغماً عنه. "ماذاا... ماذا بحقّ الجحيم؟ لو كنتُ أدري أنك ستأتين وشعرك مخصَّلٌ هكذا! فكّري قليلاً بمن تصاحبين قبل أن تمزحي!".

– لكن الغرّة الطويلة تدخل العينين، وهذا يزعجني. هل تفضّل الشعر القصير؟

– هذه باروكة. صحيح؟

– سأخلعها ساعة تشاء، فلا داعي للصراخ هكذا! فقط اهدأ. تحت، هناك عيون[17].

[17] "دِكا" هو الاسم الذي يطلق على الوشاة والمخبرين في لهجة أساكوسا.

– حسناً، لا عليك. دعينا نذهب إلى موكوجيما. أريد أن أسمع القصص الغريبة هناك، وكيف تغيّرت أساكوسا طوال هذه السنين.

– ولكن...

– أتعرفين مكاناً أحسن منه؟

– لا، ولكنهم هنا يلاحقونني دائماً. على هذه الأرض، على البرّ، الأخطار محدقة بي من كل حدب وصوب.

– على هذه الأرض، على البرّ؟ ما هذا الكلام الكبير! ألا تبالغين قليلاً؟

– ألم يكن لقاؤنا ممكناً على قارب؟

– فإذن، هذه هي الخطة التي تدور في رأسك؟

– نعم، لكنني خائفة قليلاً.

– ظللتِ تتسكّعين معي طوال اليوم وتلتقين مَن هبّ ودبّ، والآن تقولين إنك خائفة؟

– لستُ خائفة منك، ولا أخاف الرجال، فأنا أعيش شطراً من حياتي كرجل. لكن أختي تفقد عقلها حين تحبّ رجلاً. وإذا تصرفتُ مثلها، فأنا أختها الصغيرة...

الأكواريوم

10

أساكوسا قلب طوكيو...

أساكوسا سوق البشر...

هي ذي كلمات الكاتب الشهير سويدا آزِنبو: "أساكوسا! أساكوسا العالمية! في أساكوسا كل شيء مكشوف يمورُ بالحياة. الرغبات ترقص عارية. الأعراق كلّها والطبقات كلّها تختلط في تيار لا ينقطع ولا قاع له، يتدفق ليل نهار من دون بداية أو نهاية. أساكوسا حيّة... زحام هائل تتقاصر فيه الخطوات. أساكوسا بوتقة قديمة تصهر النماذج كلّها فتخرج في قالب جديد".

وداخل هذه "البوتقة القديمة"، أوشك الأكواريوم على الظهور في "حلّة جديدة".

منزل الحشرات والأكواريوم، المهملَين في القطاع الرابع من حديقة أساكوسا، شاهدان على أساكوسا الأيام الغابرة، ويتعين على راقصات كازينو فُولي الالتفاف حول قصر الملك تنين المياه والعبور بأحواض السمك قبل الوصول إلى غرفة الملابس. كان الرسام المعلّم فوجيتا تسوغوهارو العائد للتو من باريس قد جاء ليحضر الاستعراض ويساهم فيه، بصحبة زوجته الباريسية يوكيكو.

إذا كان هذا الاستعراض، بألحانه النشاز وأدواره الموسيقية المختلطة المتنافرة وعنوانه المزعوم: "حفلة جاز ياباني–غربي"، تعبيراً عن أساكوسا سنة 1929، فلا بد من القول إنّ كازينو فُولي هو المتعهّد الوحيد المتخصص في استيراد العروض الراقصة "الحديثة" إلى طوكيو، ولعل هذا الكازينو هو العلامة الفارقة لأساكوسا سنة 1930، إلى جانب برج مطعم المترو.

الإيروتيكية واللهو والسرعة والفكاهة والرسوم الساخرة من الأحداث الراهنة وأغاني الجاز وسيقان النساء...

ولكن المقاعد في الطابق الثاني لم تمتلئ بعد إلى حدّ يُستَرق فيه السمع إلى الحديث الهامس بين الرجل ويوميكو.

– فإذن، كنتِ تقولين: بسبب هذه الأخت الكبيرة التي كانت تجنّ حين تحبّ رجلاً في الزمن القديم، عقلتِ الأخت الصغيرة وتحوّلت إلى زوبا[18] في الزمن الجديد. صحيح؟

[18] زوبا إحدى تسميات البغايا في لهجة أساكوسا.

– أهذا هو الانطباع الذي أوحي به؟

– كفاك دلالاً. هذا مزعج! كانت فتيات الحديقة في ما مضى أشجع بكثير.

– بالتأكيد. كم وددتُ لو كنتُ مثلهنّ أيضاً. ما أروع الحياة حين تحبّ المرأة رجلاً يكون لها ويجنّنها حبّه! سوف تفهمني إذا أمعنت النظر إليّ. لستُ امرأة. لقد راقبتُ أختي منذ طفولتي، وأقسمتُ أنني لن أصير امرأة أبداً. أضفْ إلى ذلك أن الرجال جبناء. لا أحد منهم جعلني امرأة يوماً.

دوتومبوري، أين أنت،

يا مَن عصافيرك لا تنام وفوانيسك بألوان قوس قزح...

تلعلع أغنية كوتا "نانيوا[19]" عبر مكبّرات الصوت من غراموفون المطعم في قبو كازينو فُولي وتفوق بصخبها فرقةَ الجاز. يؤدّى على الخشبة الفصلُ الرابع من "الشابّ والعكّازة[20]"، والديكور رصيف في محطة القطار شينجوكو.

[19] الاسم القديم لمدينة أوساكا، وقناة دوتمبوري أحد معالمها.

[20] ينطوي هذا العنوان على معنى آخر باللهجة المحكية في أساكوسا درج استخدامه عامي 1929 و1930، وهو لقب "اللصقة"، إذ كان يطلق على الشبّان الصغار الذين يرافقون في حي غينزا نساء ثريات أكبر منهم سنّاً وينفقْن عليهم.

– انظري، الممثّلات هناك! معظمهن لا يرتدين الجوارب الطويلة. ألا يستطعن شراءها؟ أم تراهنّ بالأحرى لا يرتدينها ليقترفن شيئاً سيئاً؟

– لماذا أخذت الموضوع على هذا المحمل فوراً... هل كنت منحرفاً في صباك؟ أما هؤلاء الراقصات، كما تعلم، فطفلات صغيرات أعمارهن أربعة عشر أو خمسة عشر عاماً لا أكثر. كبراهنّ لا تتجاوز العشرين. يجب أن تشاهدهنّ حين يغادرن بعد العرض. لو كنّ يقترفن شيئاً سيئاً في الكواليس، فهل كنّ سيدخلن إلى مطعم قذر ويتناولن حساء الفاصولياء الحمراء الحلوة، مرتديات كيموناتهنّ البالية المصنوعة من الحرير الرخيص أو الموسلين؟ وإذا لم يكنّ يرتدين الجوارب الطويلة عن عمد، فغايتهنّ، كما تعلم، الكشف عن سيقانهن العارية. كما لا يضعن المساحيق البيضاء على أذرعهن وسيقانهنّ. في الطقس الحارّ، تستطيع أن ترى بثوراً حمراء – لسعات البعوض.

ثم ينكمش كتفا يوميكو كأنها تشعر بالبرد. تتناول من حجرها وشاحاً أبيض من الساتان تدفن فيه وجنتيها الشاحبتين، وتقول بصوت خفيض: "حين أكون مع رجل أتمالك نفسي دائماً، إذ تتعيّن عليّ

الموازنة بين رغبتي في أن أصير امرأة وخوفي من ذلك. حينئذ ينتابني الحزن ويتفاقم إحساسي بالوحشة“.

– على مهلك! في أيامنا، لا مفرّ من النفاق الكريه والمراوغات وادّعاء البراءة في سبيل الإيقاع بامرأة... بالضبط مثلما قالوا توّاً على المنصّة: ”سأذهب بعيداً إلى عالم آخر حيث المتعة والأكل“، و”لماذا لا تحبّني حبّاً مادّياً“، و...

11

1– رقصة جاز ”تشيتشي“

2– تانغو بهلواني

3– فاصل كوميدي: ”يا لها من بنت، يا لها من بنت!“

4– رقصة ”لا بالوما“

5– أغنية كوميدية...

و

منوّعات في أحد عشر مشهداً. عند تغيير الديكور، تُهرع الراقصات لتبديل ملابسهن في العتمة المقلقة عند طرفي الخشبة، مستعجلات حتى أنّ الجمهور يلمح نهودهنّ العارية.

ثمّ

6– رقصة جاز ”غينزا[21]“

في هذا الشارع، العريض كحزام كيمونو،

ببنطلون بحّار وحواجب مرسومة بالقلم،

وتسريحة إيتون[22]، والأناقة كلها،

ألوّح بعكّاز من خشب الثعبان...

21 أحد الأحياء الراقية في طوكيو.

22 تسريحة شعر قصيرة للسيدات راجت في عشرينيات القرن العشرين.

... قبعة حرير مائلة على أحد الصدغين، سترة من مخمل أسود، شريط أحمر على شكل ربطة عنق، ياقة مفتوحة تبين عن بياض العنق، عصا مشي رفيعة تحت الإبط... هذه بالطبع فتاة ترتدي زيّ رجل، وساقاها عاريتان. ثم تشبك ذراعيها مع فتاتين ترتدي كل منهما تنورة لا تكاد تغطّي

مؤخرتها، ويصطففن في رتل مثل جوقة، يغنّين "أغنية غينزا الحديثة" وهنّ يرقصن ويتنقّلن كأنهن يتنزهن حقاً في شوارع غينزا العريضة.

تعتم الأضواء ويبدأ المشهد الثاني: "رقصة المعربدين في فوكاجاوا". تؤرجح الراقصتان الأنيقتان ضفائرهما، وكل منهما ترتدي سترة هابي[23] زرقاء خفيفة.

23 سترة يابانية تقليدية قصيرة كانت الخادمات يرتدينها عادة في الاحتفالات.

– وأخيراً، حتى شخص مثلي، آتٍ من الزمن القديم، يستطيع أن يفهم هذه الأغنية.

يقول الرجل، مبدياً للمرة الأولى اهتماماً بما يدور على الخشبة: "تلك الصغيرة تجيد الرقص، أليس كذلك؟".

– طبعاً، من غير شكّ. كانت جدتها معلمة رقص مشهورة.

– ريوشان!

– هاناجيما!

يهتف الجمهور بأسماء راقصاتهم المفضَّلات.

– إنهن شهيرات بالفعل. أيّهنّ رِيوشان في اعتقادك؟

"الصغيرة. اسمها أوميزونو ريوكو[24]. قد يخيب أملك، ولكنني سمعتُ أن عمرها لا يتجاوز خمسة عشر عاماً"، تقول يوميكو وتغطّي وجنتيها بوشاحها الأبيض وتخفض رأسها. "لا أطيق رقصات صاخبة كهذه. إنها، لفتاة مثلي نشأت في مركز المدينة، تستعيد ذكريات الطفولة كلّها. لا بد أنّ الرقص يزعجهنّ وعلى ظهورهنّ هذه الجدائل الطويلة. الرجال يحملقون ويُستثارون، والنساء يتفرّجن ويثقل الحزن قلوبهنّ".

24 راقصة في كازينو فُولي كانت جدتها معلمة رقص شهيرة. ساعدها كاواباتا على دراسة الباليه مع معلمة رقص روسية، ومثّلت في الفيلم المبنيّ على قصّته **أخوات أساكوسا 1935**.

– ألهذا أتيتِ هنا بهذه الباروكة ذات الجدائل المرسلة على الكتفين؟

– أولاً شعري متوسّط الطول، وهذه ليست إلا باروكة كيلا يتعرّف أحد إليّ. عندما ألتقي رجالاً ألطف منك، فبمستطاعي عندئذ التحول إلى فتاة ذات شعر طويل. هذه مسألة ذوق. لا تهتمّ، سأفعل ما تريده. لكن ألا يذكّرك هذا الاستعراض بالمسارح القديمة مثل نيهون وكينريو؟ كانت كاواي سوميكو ترمي بطاقات الأسماء من فوق الخشبة، وطلاب المدرسة الإعدادية ينتظرونها في طابور كحبّات المسبحة قبل أن تحتجزهم السلطات، و... ذلك حين كانت الأوبرا في أيّام عزّها.

"ماذا؟ هل تحسبينني واحداً من بلهاء الأوبرا[25] أولئك؟"، يقول الرجل وقد فوجئ بما سمع.

25 كان هذا اللقب "بلهاء الأوبرا" يطلق على الرجال الذين يسرفون في حضور الاستعراضات الراقصة في أساكوسا.

– كيف لي أن أعرف؟ كنتُ للتوّ قد بدأت المدرسة الابتدائية وقتذاك. منذ أكثر من عشر سنين. بعد خمس سنين أو ستّ من جنون أختي الكبيرة... كان حبيبها رجلاً من أساكوسا. أتسكع في الحديقة لأنني أريد لقاءه.

– وبعد؟ هل ستنتقمين لأختك حين تلتقينه؟

– على العكس تماماً! مسكينةٌ أختي! سأعشقه أيضاً، بالتأكيد. أريد أن أجَنّ بحبّ الرجل الذي جنّن حبُّه أختي الكبيرة. بالطبع، أغضبني ما حدث لأختي. صمّمتُ ألا أصير امرأة أبداً. تخيّلْ كم حسدتها في طفولتي على ذلك الحبّ، ما لم تخنّي الذاكرة. اعتدتُ التشبّه بها، وقلّدتُها في تجارب العشق. ولذا أودّ أن ألتقي هذا الرجل، حتى لو جرَّ عليّ العذاب.

– والقارب؟ هل تذكرين القارب؟ ما كل هذه القصص الغريبة التي تحكينها عن أختك ولا علاقة لها بالموضوع؟

"أوه، بلى، لها علاقة بالموضوع. سأحكي لك قصصاً أكثر غرابة على القارب. حسناً، بعد أربعة أيام أو خمسة. دعنا نلتقي الأسبوع المقبل، يوم الثلاثاء. اتفقنا؟"، تقول يوميكو وتعطي الرجل قصاصة ورق. "سيكون القارب في المكان الموسوم على الخريطة على الوجه الخلفي لهذه الورقة. عند الثالثة، اتفقنا؟".

وتختفي يوميكو من الأكواريوم بغتة، دون أن تلفت انتباه الرجل.

12

النبوءة الثامنة والتسعون: شؤم.
تريدون أن ترتّبوا كلَّ شيء
لكنّ هموماً جديدة تفسد كلَّ الترتيبات.
هناك دائماً صعوبات ليست بالحسبان
والسبب وقوعكم في شباك لا تستطيعون الخروج منها.
انظروا بعضكم إلى بعض وشاهدوا كم يتعذّب البشر.

– إنها ورقة فأل من معبد سنسو. يا لها من مزحة! خطوة ذكية.

على الوجه الخلفي للورقة رُسمت خريطة بقلم رصاص. على الخشبة، الختام:

(تا تا تا تا) يا صبيّ يا حديث!

(تا تا تا تا) يا بنت يا حديثة[26]!

26 الصبي الحديث والبنت الحديثة، درج هذان التعبيران في أساكوسا من 1927 حتى بداية الحرب العالمية الثانية، للسخرية من الشبان الذين يتردّدون على البارات ودور السينما خصوصاً في غينزا.

الممثّلات يرقصن على الخشبة، مردّداتٍ اللازمة في "أغنية غينزا الحديثة" وهن متّجهات إلى الكواليس. نهاية الاستعراض.

تختفي يوميكو في هذه الأثناء. يلزم الرجل مقعده ريثما ينصرف المتفرّجون كلهم. ولمّا تبدأ الصالة تخلو من الجمهور، تفوح من الجدران والمقاعد والأرضية الرائحةُ النتنة للشحّاذين.

أيّها القرّاء الأعزاء، أعني ما أقول حرفياً. فالشحّاذون والمشرَّدون سادة الأكواريوم منذ رفرفت لافتات العروض للمرة الأولى هنا. إنهم يتفرجون على رقصات عصرية لأجساد عارية مغطاة بالمساحيق. هذا المشهد الغريب مألوف في أساكوسا. كما بدأ الطلبة و"أهالي غينزا" ومن لفّ لفّهم بالظهور هنا رويداً رويداً.

أيها القرّاء الأعزّاء، سترون غالباً، حتى هذه اللحظة، عجوزاً مجهولاً لا يكلّ عن الحضور كل مساء، وجهه الملتحي مقنّع بالوسخ والغبار، مرتدياً الأسمال، متكئاً إلى عمود على يسار الصالة، مستغرقاً يتفرّج على رقصات الجاز. في الخارج، هناك ثلاثة شبّان أو خمسة يقفون في البرد ليبحلقوا بالراقصات حين يغادرن.

ممسكاً بورقة الفأل في يده اليمنى يفرقع الرجل بلسانه على سقف حنكه وينظر إلى الوراء. عند مدخل المسرح المزين بصفوف من البيارق الحمراء، ثمة حورية بحر تسبح فوقها سمكة من جبصين.

– لا وزن لي هنا في أساكوسا. حتى تلك الفتاة الصغيرة تستخفّ بي. تكرّمت وأعطتني هذه الخريطة وأنا أخذتها.

صحيح. لا تلزم خريطة للوصول إلى ضفة النهر. من السهل ترجمة خريطة يوميكو إلى كلمات. ستكون شيئاً من هذا القبيل: "اجتز بوابة نيتن، المدخل الشرقي لمعبد سنسو، واذهب مباشرة في شارع بوابة نيتن حتى تصل عند نهايته إلى ضفة النهر. ذلك هو المكان".

بعد اجتياز سكة الترام هناك حارة يامانو–شوكو–ماتشي المحاذية للنهر، ثم أعمال البناء في الحديقة على الضفة. جسر كوتوتوي يساراً، ومباشرة إلى اليمين، قيد التشييد، الجسر الحديدي لسكة القطار في محطة توبو. على امتداد النهر، في المرسى عشرون أو ثلاثون قارباً صغيراً، أحدها هو

كورينايْ–مارو [السفينة الحمراء]. الاسم "كوريناي–مارو" محفور في مؤخرته ومصبوغ بالأحمر، ويُرى بوضوح من بوابة نيتن رغم أن حروفه ليست كبيرة. لا حاجة إلى معرفة الجهات.

يقول الفأل على الوجه الآخر من الخريطة:

مَن تنتظرها لن تأتي أبداً.

يتعمّد الرجل القدوم إلى ضفة النهر متأخراً عن موعد الثالثة يوم الثلاثاء و... مذهولاً ينسحب إلى ظلال الأشجار. هناك بالفعل عشرون أو ثلاثون قارباً، لكنّ واحداً منها فقط يرفع زوجاً من جوارب الحرير النسائية السوداء الطويلة، وقد عُلّقت إلى عمود لتجفّ. إشارةٌ بالتأكيد تتباين في سفورها مع الغسيل العاديّ على القوارب الأخرى.

بغريزته اليقِظة التي جنّبته الأخطار غالباً، يستشفّ الرجل في هذه العلامة نذير سوء.

– إنها تستدرجني إلى الماء، إذاً. فليكن، هذا يسرّني.

مستهتراً يمشي صوب ضفة الحديقة حيث أعمال البناء، قافزاً من حجر إلى حجر. يتقدّم باتجاهه فتى يافع يعتمر قبعة على شكل جرس.

– يا سيد، هل وصلت إلى هنا مستدلّاً بورقة الفأل من معبد كانّون؟

– من أنت بحق الجحيم؟

– إنها تنتظرك في كوريناي–مارو.

– ولكنك لستَ مراكبياً.

ويناوله الرجل ورقة نقدية من فئة خمسة ينّات. بمستطاعه تخمين نيّات الآخرين وفق الطريقة التي يقبلون بها النقود.

– ليس بخشيشاً سخيّاً.

– شكراً جزيلاً، لكنهم قد دفعوا لي مسبقاً. من هنا، لو سمحت.

يعبر الفتى لوحاً خشبياً ضيقاً بين الرصيف الإسمنتي وكوريناي–مارو، يليه الرجل.

ثم، على ما يرى الرجل داخل المقصورة الضيقة للقارب، يوميكو نائمة في سلام، فاردة أطرافها فوق الفراش.

شعرها القصير مشعّث، جبينها طفوليّ. عيناها وشفتاها ملفتة في وجهها، كلٌّ منها كمخلوق حيّ بحدّ ذاته. تنورتها الحمراء القانية قد انحسرت عن ركبتيها. لا جوارب. ساقاها العاريتان متوازيتان

متلاصقتان، أخمصاها متورّدان تورُّد القواقع، وجهها مستدير نحو السقف. وهج الفحم في المجمرة يلقي ضوء ناعماً على قدميها وجسدها النائم.

13

هل أزفت الساعة ليغادر القارب كوريناي–مارو ضفة النهر في يامانو–شكوكو؟

– هذه حصّالة تبرّعاتنا السنوية. يُرجى المساهمة بشيء ما لفطائر الرزّ التي سنعدّها من أجل الفقراء في عامنا الجديد.

ألتفت لدى سماع ضابطة في جيش الخلاص تصيح، وأتوقف فجأة، بجانب كشك الشرطة[27] الصغير في بوابة كاميناري، عند مدخل سوق ناكاميسه. هناك شجرة الجنكة أمام كشك الشرطة، ووراءه كولبة الهاتف وصندوق البريد وصندوق التبرعات، ثم "مرآة الفضيلة[28]" على أحد جانبيه.

27 تعرف نقاط الشرطة هذه باسم "كوبان"، وتُرى غالباً عند نواصي الشوارع ومداخل الحدائق ومحطات القطارات وأمكنة عامة أخرى.

28 مرآة بجانب مخفر الشرطة في بوابة كاميناري. كان يُقال أنها لا تعكس الوجوه فحسب بل تكشف السريرة على حقيقتها أيضاً، فإذا نظر فيها الخبثاء ومن ساءت نياتهم، غام سطح المرآة وتشوّهت ملامحهم.

ثمة لوح أسود للإعلانات إلى جوار المرآة. أقرأ الإعلان الوحيد:

اجتماع في الهاناكاوادو

الفرقة الحمراء

وجهي المبتسم ينعكس في مرآة الفضيلة. "مخفر كيزاكاتا"، "لوحة إعلانات للعموم"، "فرع أساكوسا للمحاربين القدامى"، وكلمات أخرى كهذه مكتوبة بصباغ أحمر على حافات اللوح.

يطوّقني الأطفال الصاخبون باعة التقاويم.

بجانب كشك الشرطة، في جلبة ناكاميسه، لن يرى أحدٌ خفقان قلبي بعدما فوجئت بإلصاق هذا الإعلان الصغير. هكذا، لن يرتاب الناس. نعم، حيلة موفَّقة. أولاد أذكياء، أغمغم مقرّراً الذهاب إلى الهاناكاوادو.

هاناكاوادو اسمٌ معروف يقترن بمسرحية السوكيروكو[29] الشهيرة في عصر إيدو العظيم... أيّها القرّاء الأعزّاء، لستُ عضواً في عصابة الحزام الأحمر، ولكنني أعرف أن هاناكاوادو هي كلمة من لغتهم السرية يستخدمونها للإشارة إلى مطعم المترو. هذا لأن المطعم سمّي "بناية هاناكاوادو" حين كان قيد الإنشاء في خريف 1929.

29 إحدى المسرحيات الثماني عشرة الكبرى في مسرح الكابوكي، ويترجم عنوانها إلى "زهرة إيدو".

البرج القديم ذو الطوابق الاثني عشر تقصّف إلى نصفين في زلزال سنة 1923. لمطعم المترو ستة طوابق وارتفاعه حوالى أربعين متراً، لكنه يتضمن برج المراقبة الوحيد في أساكوسا، إطلالته بانورامية ومزوّد بمصعد.

دعونا، من هذا البرج البانورامي، نستطلع يوميكو والرجل في كوريناي–مارو. ولكنني أشكّ في مقدرتنا على تمييز ملامح المراكبيّ من هنا، لأن القارب من دون مصابيح كاشفة. دعوني أعبّر بطريقة أخرى. حين يمضي كوريناي–مارو أعلى النهر صوب جسر كوتوتوي، يبدو وجه المراكبيّ الواقف في مؤخرة القارب ممتقعاً ساكتاً. أهذا شحوب الغيرة، لأن الرجل قد وجد طريقة دفع بها يوميكو لتفعل ما يريده؟

– لستَ مراكبياً.

هذا ما قاله الرجل قبل ركوب القارب. بالتأكيد لا. إنه مثال الشابّ الأزعر، وقد أرسلوه إلى سجن الأحداث في كاواغو مرات عدة.

وهكذا، لم يقَعْ يوميكيشي في شراك عصابة الحزام الأحمر. لقد التقطوه بالأحرى، وأيقظوه وأنْسُوه كابوساً دام سنوات عدة.

ولأن يوميكيشي قدوة يحتذيه الجانحون الذين لاذوا بأساكوسا، فاسمحوا لي، أيها القرّاء الأعزّاء، أن أقدّم إليكم مقتطفات من اعترافاته[30] الغرامية:

30 يعود هذا الأسلوب الأدبيّ التقليدي في تدوين قوائم بالاعترافات إلى عصر إيدو.

أولاً، في عمر السادسة. كان يوميكيشي دمية بين يدي امرأة تجاوزت الأربعين.

ثانياً، في عمر الثالثة عشر. أثناء اللعب قدّام محل القرطاسية مقابل مدرسته، نشأت صداقة بينه وبين فتاة تكبره بسنة واحدة. كانت ابنة موظف في شركة. دعته إلى زيارتها. لم يكن هناك أحد في البيت. كلاهما لم يسئ الظنّ. بعد ذلك، ذهب إلى بيتها للعب ثلاث أو أربع مرات أخرى. تفشّت الإشاعات، وانتقلت العائلة بأكملها إلى مكان بعيد.

ثالثاً، في عمر الرابعة عشر. على مقعد أمام محل حلويات، التقى ابنة بائع خردوات. ولأكثر من عشرين مرّة، ذهبا معاً إلى حديقة أوينو، إلى الاحتفالات في المعابد، إلى المطاعم الصغيرة.

رابعاً، في عمر الخامسة عشر. في صالة السينما في حديقة أساكوسا، جلست فتاتان إلى جواره. كان قد التقى إحداهما في مسرح آخر. غادروا معاً وأخذتاه إلى منزل ذي مدخلين[31] من أبواب جرّارة ذات ألواح زجاج حقيقية.

31 "المنزل ذو المدخلين"، كناية عن بيت البغاء.

خامساً، في العمر نفسه. ذهب يوميكيشي إلى منزل أهمّ. كان يتظاهر بالنوم حين رأى يداً بيضاء تنتشل خمسين صنّاً من محفظته وتُلقيها داخل سلة أزهار موضوعة في تجويف الحائط. ذات مرة، بعد خروج الفتاة، تفحّص يوميكيشي سلة الازهار فوجد ثمانية ينات ونصف، إلى جانب الخمسين صنّ. دسّها كلها في جيبه وغادر.

سادساً، في العمر نفسه. كانت فتاة في السابعة أو الثامنة عشرة وأختها ذات الثلاثة أو الأربعة عشرة عاماً تتفرّجان معاً على مسرحية في أساكوسا. عندما رأت الصغيرة ما يفعله يوميكيشي الجالس إلى جوارها بأختها الكبيرة، جرّتها إلى الخارج. لاحقهما. كانتا ابنتَي بائع كتب. بدأ يتردّد بانتظام على المكتبة لاستعارة القصص التاريخية. دعا البنتين ستّ أو سبع مرات، حتى منعتهما أمّهما من الخروج.

سابعاً، في العمر نفسه. أمضى أربعة شهور يواعد نادلة في المطعم الصيني. وليسدّد تكاليف تلك المواعيد، تحوّل إلى "غلام منحرف" يعاشره الزعران.

ثامناً، في العمر نفسه. حصّل حوالى مئة وخمسين ينّاً من فتاة في المنزل ذي المدخلين. واعدته لأنها أحبّته. كان والدها ضليعاً في الرهان على الخيل، وكان يوميكيشي يعلم أنه يقبض أحياناً مبالغ ضخمة من المال.

14

تأخذ اعترافات يوميكيشي الغرامية منحى دراميا وإجرامياً أكثر بعد عمر الخامسة عشر. لو أفشيتُها جميعاً هنا، أيّها القرّاء الأعزّاء، لتحطّمتِ الأحلام التي تستلذّون بها في دفء أسرّتكم.

أيها القرّاء الأعزّاء، أنتم المستلقين في فُرشكم الدافئة، لو حدّثتكم عن "الولد الجندب"، فتخيّلوه واحداً من أذكى المشرّدين[32] في أساكوسا. لكنني سمعتُ أنه لا يعرف كيف ينضّد المخدّات أو كيف يطوي الفراش والشراشف. لو طلبتُم منه أن يجهّز الفوتون[33]، لقام على الأرجح بلفّ كل شيء معاً، الفراش والمخدّات والأغطية. لم يسبق له أن استخدم مثل هذه الأشياء قطّ.

32 "الغُور" إحدى التسميات التي تطلق على المشردين في أساكوسا.

33 الفراش الياباني التقليدي.

لكن جندبنا الصغير ليس هاوياً معتوهاً أو بحماقة أوشيشي ذائعة الصيت، بنت البقّال. إنه يعرف خفايا القوانين المتعلقة بالقاصرين[34]. لقد ساقوه إلى مخفر الشرطة أكثر من عشرين مرة، وحتى

أرسلوه إلى السجن في جزيرة آيوجيما، ولكن كلامه أمام المدّعي العام كان حاسماً في كل مرة: "لن أتوقف عن مشاغباتي قبل بلوغي الخامسة عشرة".

34 القوانين السابقة وليست الحالية. (ملاحظة المؤلّف)

وقد وفّى بوعده. في عمر الخامسة عشر، بعد إرساله إلى آيوجيما، بدأ العمل جدّياً للمرة الأولى. يُقال أنه قد أرسل إلى مشرف اجتماعي كان قد أحسن معاملته ذات مرة في أساكوسا، كيساً مليئاً بقواقع جميلة صغيرة كحبات الرزّ.

حاولوا فقط أن تستوقفوا واحداً من الأولاد المشرّدين في أساكوسا واسألوه: "ماذا عن والديك؟".

سيفاجئكم الجواب بالتأكيد، أيها القرّاء الأعزّاء: "ليس لي والدان بعدُ".

– بعد؟

– نعم. في ذلك اليوم، صاحبي شينكو لاقى أباً، أما أنا، فلا أزال صغيراً، ولا يمكنني العثور على أيّ أب.

يجب أن تدركوا، أيّها القرّاء الأعزّاء، أن تعليم الأطفال وتوجيههم ترفٌ حقيقي في أيامنا، حتى لو حظي الطفل بوالدين ومكان ينام فيه وفراش يُحسِن طيَّه.

أنا واثقٌ أنكم تعرفون، أيّها القرّاء الأعزّاء، أن المشرّدين في أساكوسا يقتاتون على ما يتبقّى من وجبات المطاعم. ولكن هل تعرفون أن المعوزين والعمال المياومين يأتون إلى المشرّدين ليشتروا منهم بقايا الطعام – أي بكلمات أخرى، بقايا البقايا – بصنّين أو ثلاثة لقاء القصعة الواحدة؟ في مثل هذا العالم، لا عجب أن يتولى ضباط الشرطة مراقبة أربعين أو خمسين ألفاً من الأحداث الجانحين.

وبين هؤلاء، هل تعلمون كم من شغّيلة صغار، صبيان طلبيّات، صبيان مكاتب ومحلّات، ندَلة، متدرّبين على المِهن، خدم سابقين، أطفال يعملون في ورشات الحدادة والتعدين؟ على سبيل المثال، حاولوا الاستماع نصف ساعة فقط لأحاديث المربّيات الشابات اللواتي يراقبن الأطفال وهم يلعبون في حديقة أساكوسا.

"لكن إذا كانت الأمور على هذا النحو، فماذا جرى لليابان، إذن، في هذه الأيام؟ ماذا يجري لطوكيو الآن؟ أليس المجتمع الياباني برمّته وطوكيو كلها حالياً مجرد ثلة من الأوغاد العجائز؟ وسط هؤلاء الجانحين الذين تقدّم بهم العمر، وحدها حديقة أساكوسا تحفل بالمجرمين الشبّان. شئنا أم أبينا، للشباب سحره وتوقّده وروحه التقدمية".

هذا ما يقوله السيد جونيتشيرو تانيزاكي. ووفق مقالة في صحيفة ''آساهي''[35]، ستنصب جواك[36] ميكروفونين في محيط معبد سنسو في أساكوسا، في الليلة الأخيرة من سنة 1929، واعتباراً من الساعة 50:11 مساء ستنقل إليكم، أيها القرّاء الأعزّاء، وقعَ خطوات الحجّاج وجلبةَ الزوار ورنين الأجراس وضجيج النقود التي تُلقى في صندوق التقدمات وتصفيق أيدي المتعبّدين وقرع صنوج الغونغ مئة وثماني مرات، وصياح الديكة، ومظاهر احتفالية أخرى لليلة رأس السنة.

35 صحيفة يومية واسعة الانتشار لها طبعتان صباحية ومسائية في طوكيو وأوساكا.

36 J.O.A.K: أول محطة إذاعة يابانية. بدأت البثّ في آذار/ مارس 1925.

أودّ لو أضع ميكروفوناً أمام أعضاء عصابة الحزام الأحمر وأسمعهم يهلّلون: ''تحيا 1930!''. على أي حال، سيذاع هذا البثّ لأن أساكوسا، بوصفها ''قلب طوكيو''، تعبّر عن المناخ العام لسنة شحيحة في قاع الركود.

كما سمعتُ أن هناك في أساكوسا حانة حكراً على الشحاذين. إنهم يضعون فتاة عارية على الطاولة ويسكرون وهم يتفرّجون عليها ويديرونها مرة تلو مرّة. من جهة أخرى، ثمة مكان بجوار منزل قريب من جسر كوماغاتا، يُفترض أنه يعطي ''دروساً في الغناء بأسلوب كيوموتو''. ولكن الزبائن مرتابون ولا يطمئنّون إلى الإعلانات. فقد تأتي فتاة في السادسة عشرة أو السابعة عشرة تستقبلك على الرحب والسعة، ثم تنتهي المسألة بشرب الكثير من الساكي دون نوتة موسيقا واحدة تُعزَف على الشاميسن[37].

37 آلة وترية فلكلورية ذات ثلاثة أوتار اقترنت بالمسارح وحياة المتعة في عصر إيدو. كان خشب الآلة يُكسى من الأمام والخلف بجلد قطة أو كلب.

في الليالي الماطرة، يحمل المشاة في الشوارع مظلات ورقية[38] كبيرة عند خروجهم من النزل الرخيصة البائسة في نواحي هونجو ليتحرّشوا بالمشرّدين الواقفين تحت أفاريز المسارح الصغيرة ولصق الجدران الطينية للمعابد. قاصرون متلصّصون متنكّرون يلاحقون فتيات الغيشا الذاهبات إلى مواعيدهنّ في بيوت المتعة.

38 المظلات اليابانية التقليدية المعروفة باسم ''عين الأفعى''، والمصنوعة يدوياً من عيدان الخيزران الرفيعة والورق الياباني المدهون بالزيت.

ولكن المرعب في أساكوسا لا يشمل أيّاً من هذه الأشياء، أو ما يجري في أمكنة مثل أوكوياما حوالى الثالثة صباحاً. يبدأ الرعب بالأحرى قبل حلول الشتاء، متجلّياً في احتفالات نهاية السنة هنا

في أساكوسا، سوق الديوك في معبد سنسو، دوامة الناس المتلاطمين في أسواق يوشيوارا في نوفمبر. كيف حدث أن هذه الدوامة قد ابتلعت يوميكيشي ولفظته تحت اسم القط الفضّي يوميكو؟

15

لا يتكلم يوميكيشي أبداً عن أمه وأبيه. لعله يتيم أو ربما ابنُ زنا. وإن لم يكن كذلك، فأبواه على الأرجح من صنف أولئك الآباء الذين يستحسن العيش من دونهم.

عندما كان عمره ثلاثة عشر عاماً، صار متمرناً في محل لصناعة المظلات الغربية في حيّ شيتايا ريوسنجي. في هذا الحيّ، كتبت الآنسة هيغوشي إيشيو "مقارنة القمم". كانت صاحبة المحل طريحة الفراش بسبب مرضٍ مزمن. كان يوميكيشي يكره مجرد النظر إليها، وقد نال منها الهزال والشحوب. وفوق ذلك، أوكلت إليه شؤون أطفالها السبعة. هرب بعد ثلاثة أيام.

ثم أصبح متمرّناً في محل للمشروبات في كاندا (كما أخبرتكم من قبل، عندما كان يوميكيشي في الرابعة عشرة، كانت حبيبة قلبه الثانية ابنة بائع خردوات). سرق النقود لينفق على صاحبته وتستمتع معه فطرده تاجر الساكي من العمل.

وأثناء تسكعه في حديقة أساكوسا تعرّف إليه الصبيان باعة الجرائد وسمحوا له بالانضمام إلى عصابتهم. وبعد أقل من ثلاثة شهور، خاض عراكاً دامياً مع واحد من حُماتهِ أكبر منه سنّاً فأبعدوه وطاردوه بالعصيّ.

استقبله الشحّاذون في حديقة أساكوسا، وبعد تمضية ثلاث ليالٍ في مكبّ القمامة الكبير على ضفة نهر كوماغاتا (كان وخلّانه يسمُّون هذا المكان "فندق العشّاق")، تسكّع طويلاً في هونجو وفوكاغاوا وصولاً إلى تخوم شيبا.

كان يوميكيشي يقول دائماً عن شهور تصعلكه الستّةِ تلك: "لن أحظى مرة أخرى بمثل تلك المتع وخلوّ البال. كانت سعادة غامرة لا تتكرّر مرتين في العمر".

ثم عاد إلى أساكوسا من جديد. وكان مصيره هذه المرة العمل صبياً لدى هنديّ يبيع الخواتم على الرصيف (كانت وظيفته لعب دور الزبون). أحبّه الهنديّ كأنه فتاة، لكن يوميكيشي انفصل عنه في اللحظة المناسبة، بعدما قال له: "اذهب إلى الجحيم، أيها الأحمق! إذا كانت مضاجعة اليابانيين تروق لك إلى هذا الحدّ، فخيرٌ لك أن تذهب وتبيّض بشرتك!".

عندما كان يوميكيشي جالساً وقد استغرقته أحلامه في محطة أساكوسا، أتاه عجوز يبدو عليه اللطف وصحبه معه إلى منزله. في الواقع، كان هذا السيد صياد قطط معروفاً، ولم يمضِ وقت طويل حتى اعتقلته الشرطة. فصاحبَ يوميكيشي صيادين آخرين زملاء للعجوز في العصابة نفسها، وراح يجوب الشوارع كمتمرّن على صيد القطط.

عندما يلمح صياد القطط قطّاً، يطلق عصفوراً مربوطاً بسلك. يرفرف العصفور بجناحيه. ينقضّ القطّ. يسحب الصياد السلك ببطء. يدنو القطّ أكثر. الحيلة تستلزم سرعة خاطفة للإمساك بالقطّ.

من الفور، يُضرب القطّ الأسير حتى الموت. يُسلخ جلده في زاوية معتمة من زوايا الحديقة أو على الضفة في كنف الظلال. يخفي صياد القطط الجلدَ المسلوخ تحت ثيابه، بلفّه حول خصره. يشتري صنّاع الشاميسن هذه الجلود بأسعار مرتفعة.

كان يوميكيشي من دون مأوى، يقيم في النزل الرخيصة هنا أو هناك، ويتقاسم السرير مع شخص ثانٍ. وقتذاك، صار عضواً في عصابة زعران أساكوسا. كان عمره خمسة عشر عاماً. سرعان ما اقتادت الشرطة يوميكيشي واثنين من صحبه صيّادي القطط إلى مخفر نيهون–دام في يوشيوارا، ولكن تمّ الإفراج عن يوميكيشي لأنه كان طفلاً.

عاد إلى الظهور في أساكوسا، وراوده لبعض الوقت شعور بأن عيون الشرطة ليست غافلة عنه، فانضمّ إلى جماعة من الباعة الصغار المتجوّلين الذين يدّعون اليُتْم. ولمّا كان يلعب دور اليتيم ويلحّ على الناس ليشتروا الورق وأقلام الرصاص، تعرّف إلى طالب يبيع الأدوية. هذه تجارة تدرّ ربحاً أكبر على ما يبدو، فلم يلبث يوميكيشي أن تحوّل إلى طالب فقير مكافح يبيع العقاقير. جنى مالاً بسهولة، ولكن لم يكن قد خطر له البتّة أن اللباس الموحّد لطالب إعدادي وطاقيّته قد يصلحان كطُعم للإيقاع بالفتيات.

عندئذ، دون أن يدري، كان لقبه قد ارتقى من "يوميكو صياد القطط" إلى "يوميكو القطّ الفضّي".

والآن، بوصفه عضواً في عصابة الحزام الأحمر التي ترأسها يوميكو، وبعدما شارف على العمر الذي يخوّله أن ينتحل صفة طالب ثانوية، آثر يوميكيشي أن يكسب عيشه من عمل شريف، فصار متمرّناً لدى أحد الحلاقين. تحديداً في صالون الحلاقة حيث رأينا "المجنونة الحلوة" تضع مكياجها، ويقال أنها الأخت الكبرى لأكيكو. ساعدته يوميكو في الحصول على هذا العمل.

فضلاً عن ذلك –

امسكْ يدها. داعبْها. كلّمْها. فضفِضْ. احكِ لها عن نفسك. أوه، وقع هذا منك. حبيبتي. يا ربّ، ماذا فعلت؟ عرقلْها. لاحقْها. رافقْها إلى البيت. التمسْ طلباً. توسّلْ. ارفعْ تنورتها. شكراً. لوّحْ بمنديل...

وهكذا. لنفترض أن يوميكيشي يحاول أن يطبّق على إحدى الفتيات هذه الأساليب القديمة قدم الدهر في إغواء النساء.

ياسوكي بوشي في مسرح تاماكي. الفتاة لا تستجيب.

الختام. "أغنية غينزا" تؤدّيها فرقة الجاز الأوروبي–الياباني. ثماني راقصات مع كيمونات طويلة الأكمام يغنّين:

غينزا، غينزا، يا غينزا القديمة الحبيبة...

الفتاة تعضّ شفتها وتُحني رأسها. يرمقها. الدمع يندي رموشها. آه! يا للحظّ! يا للبراءة!

يحاول يوميكيشي ملاطفتها ويحيط كتفها بذراعه، ولكن...

16

تنهض المرأة الشابة بغتة، وتغادر المسرح دون أن تلتفت.

ولكن يوميكيشي الواثق من مواهبه يخمّن أنها فتاة صالحة. لقد تحوّل إلى طالب ثانويّة، بفضل سترته الهاكاما وطاقيته المدرسية المزركشة بعلامة غامضة.

يقال أن فتيات تاهيتي يضعن زهوراً بيضاء وراء آذانهنّ اليمنى حين يشتهين حبيباً. في أساكوسا (نعم، صحيح، حتى لو لم تكن جزيرة نائية في بحار الجنوب)، تدسّ الفتيات ورداً اصطناعياً في شعورهنّ إشارةً إلى رقّة القلب. والرمز نفسه يتغيّر معناه، فالوردة الحمراء الوحيدة تدلّ على أن الفتاة غانية.

بالطبع، لقد ولّى زمن "القبضايات" الأشدّاء المتجبّرين، حتى في حديقة أساكوسا، ولكن أيّها القرّاء الأعزّاء، ماذا لو كان ابنكم يختال في هذه الأنحاء وقد أمال طاقيّته...

"هيه، فقط دقيقة"، سيستوقفه صوتٌ.

– صبيٌّ مَن أنت؟

قد يأتيه هذا الصوت متوعّداً، أو الأدهى، كما في "صبيّ عصابة"، قد يعني السؤال: "مَن يحميك؟".

على أي حال، ترتدي هذه الشابة كيمونو بالياً من الموسلين وحزاماً متّسخاً، ووحده شريط الحرير الصناعي على ظهرها يبدو جديداً، أحمر اللون مشدوداً عالياً إلى أسفل نهديها[39]... مكياجها الثقيل

يضفي عليها حزناً غريباً. حسناً، مزاجها لا يثبت على حال، ورؤيتها للأشياء مختلّة. سيُحسِن يوميكيشي استغلال هذه النقطة.

39 إبرازاً لصدر الفتاة ووركيها، درجت بين فتيات أساكوسا هذه الطريقة في رفع الحزام وشدّه أسفل النهدين.

وهكذا يخرج من جيبه منديل امرأة، ويركض وراءها ليقول لها بنبرة مغالية في التودّد: "ألم يقَعْ هذا منك؟".

– أوه، شكراً.

– لا عليك. ألستِ أنت التي كنتِ للتوّ إلى جواري في مسرح تاماكي؟

تدسّ الشابة المنديل في كمّها، وتسرع المشي. يبدو أن هذا قد فاجأ يوميكيشي قليلاً، ولكنه لا يتراجع: "انظري، فاضت عيناك بالدمع في المسرح. رأيتُهما. ما الذي أحزنك؟ عندما خرجتِ لتمسحي دموعك وقع منك هذا المنديل. إنه لا يزال مبلولاً".

– هل ستتلطّف بالاستماع لي حين أخبرك عن سبب حزني؟

– أوه...

– طبعاً، تعلم أنني أسبقك بأشواط في هذا المضمار.

– هيه، أنتِ...

– أنت تتظاهر بإرجاع منديلي إليّ... أليس من الأفضل لو قلت لي إنك ستعطيني منديلاً؟ ما رأيك؟ هل أستطيع الاحتفاظ به؟ أنا متأكّدة من أن لديك ثلاثة مناديل أو أربعة في جيبك، من باب الاحتياط، صحيح؟ يجب أن تستخدم طرقاً مواربة لتوقِع بالفتيات. هيّا، أرني جديد أساليبك.

– ها ها ها، أي حركة بلهاء. أنتِ خفيفة الظلّ. لم أعرفك. تنكّرك متقن. على أي حال، احتفظي بالمنديل لتمسحي به دموعك.

"نعم، أنت على حقّ"، تجيب الشابّة وهي تخرج منديلها وتفرك عينيها بإصبعها، ""أغنية غينزا' تلك، كلما سمعتُها، بكيتُ".

– فإذن هذه صرعة الغينزا.

– لكن في تاماكي، كما تعلم، سواء كانت الأغنية ياسوكي بوشي أو أوهارا بوشي أو وصلة مانزاي، ينهض المتفرّجون ويكلّمون الفنانات ويغنّون معهنّ، كأنّهم يدعون فتيات غيشا إلى مخدعهم. ما أشبه هتافهم بنداءات ليجتمع العمال في المصانع أو حفر القنوات. ما رأيك؟ حالما تبدأ "غينزا، غينزا، غينزا القديمة الحبيبة"، وحالما يسمعون لحن الجاز ذاك، فإن الجميع يهدؤون

ويسكتون، كفلاحين يركعون أمام سيّدهم. ولكن ماذا عن غينزا؟ ما الذي تعنيه غينزا لتلك الثلة في مسرح تاماكي؟ أراهِنك على أن معظمهم لم يروا غينزا يوماً، مثلما الكثير من آنسات غينزا لا يعرفن شيئاً عن أساكوسا... والآن، مهلاً، ها قد انتابني حزن عميق...

– كأنّ الفكر الماركسي يشوب مبادئك؟

– وأنت، حضرتك القطّ الفضّي، أليس كذلك؟

– لقد فهمتني. لا بد أنني كنتُ قد أثقلت في الشرب، أو شختُ أو ما لا أدري، حتى لم أتعرّف إليك. وهذا الشيء على رأسك. باروكة، ها؟ والكيمونو مستعار أيضاً، صحيح؟ خرجتُ إلى الصيد وأنا مَن وقع في الشبكة.

– في الواقع، أنا ذاهبة لإرجاع كلِّ شيء استعرتُه. هل تريد أن تأتي معي؟ الآن وقد عرفتَ كلّ شيء، ألا تزال راغباً في استدراجي؟

– نعم، فقط لو تأكّد لي أولاً أنك امرأة.

– هذا مرهون بك.

17

الشابّة في مسرح تاماكي. مثال آخر عن تنكُّر يوميكو.

هل يجوز التعميم لنقول إن اليابانيين لا يبدون أيّ اهتمام بالأزياء التنكّرية؟ أتذكّر حفلاً تنكّرياً راقصاً في فندق كايهين في كاماكورا، وما من ياباني واحد أتى متنكّراً.

لكنّني كتبتُ في إحدى المرات، من باب المزاح، عن محلّ يُعِير الملابس التنكرية في غينزا الجديدة، أو بكلمات أخرى، محل لتأجير الأزياء. ولكن فكّروا معي، غينزا مملكة المكياج، ولا حاجة إلى الملابس التنكّرية في مثل هذه الناحية من المدينة حيث لا يوجد زقاق واحد معتم.

التنكّر اختصاص أساكوسا في الواقع. لا يلزم التقصّي أبداً. فبمقدوركم دائماً العثور على أناس متنكّرين هنا.

تستطيعون أن تروا بأمّ العين نساء متشرّدات يرتدين ملابس الرجال. تضحكون منهنّ وتتصرفون. أما إذا رأيتُم رجلاً يرتدي زيّ امرأة، يعتمر باروكة يابانية الطراز ووجهه تغطيه المساحيق البيضاء السميكة، والأحمر طاغٍ على لباسه، متسلّلاً مع رجل آخر إلى الأزقة المعتمة

وراء المعبد، فستسري القشعريرة في ظهوركم، كأنّكم قد رأيتُم للتوّ سحلية فريدة أو شيئاً من هذا القبيل.

العتمة ليست شرطاً. اسبروا قلب الأماكن الأكثر إضاءة وازدحاماً في أساكوسا لتجدوا هذا المحل المذهل للملابس التنكّرية – لديه عمود لليافطات المكتوبة بحروف صينية مع يافطة سافرة بالنيون الأحمر تعتلي السطح دون أي حياء. ما يختلف به هذا المحل عن بقية المحلات المشابهة هو مراكمته أغراضاً شتى، كل شيء من الباروكات إلى المسدسات، لأنه يزوّد ممثّلي المسرح ومغنّيي الأوبرات الخفيفة على السواء.

تلاحظ يوميكو:

"أنا مثل مانوكان فتاة في محلات الملابس التنكرية. أرهَن لديهم مبلغاً للضمان عند التأجير ومبلغاً آخر بدل الأضرار، وفوق ذلك أروّج لبضاعتهم. في المقابل، لو كان أعضاء عصابة الحزام الأحمر سيقتحمون دارة الأمير كيرا لأعارونا الملابس والمعدّات. لسوء الحظ، مَن يعيرهم الملابس على شاكلة أمانويا ريهي، نظيره في عصر شوا، رجل طمّاع. تلك هي المشكلة".

ذات يوم، أيها القرّاء الأعزاء، سأريكم هذا المحلّ. وسأعرّفكم إلى الناس الذين يتردّدون عليه.

على أي حال، عندما انطلى تنكُّر يوميكو على يوميكيشي وافتتن به قرّر الأخذ باقتراحها لمزاولة مهنة ثابتة محترمة. يبدو أن غواية التنكّر قد لعبت دوراً كبيراً في اختياره. قال أولاً: "لا بأس، سأصير جرّاحاً!".

– آه، فإذن تريد أن تجري العمليات، حقاً؟ هذا هو حضرة القطّ الفضّي! لا تستطيع أن تنسى سلخ القطط، والآن تريد أن تبدأ بالناس، صحّ؟

– فتح البطن بضربة مشرط واحدة سريعة ثم شقّ الجلد والدم لا يزال دافئاً. شعور لذيذ. ولكن حتى لو لم تسنح لي فرصة أن أفتح بطن أحدهم، فربما أستطيع العثور على عمل كطبّاخ في مطعم أو كمساعد حلاق.

وهكذا أصبح يوميكيشي متمرّناً في صالون حلاقة.

الجرّاح والطبّاخ والحلّاق – ثمة قواسم مشتركة بين هذه المهن الثلاث. يأتي على رأسها استخدام الأدوات المعدنية البرّاقة، وخصوصاً النصال المسنونة القاطعة.

بمستطاعكم القول إن تعلق يوميكيشي بالسكاكين الحادّة قد حماه من الغرق (حتى أثناء ارتطامه بالصخور في قاع الحياة) فلم يبلغ مستوى المشرّدين والشحّاذين – حمته هذه الذائقة من النوم إلى

الأبد داخل حاوية القمامة هذه، عالم العدم في أساكوسا. كانت المشارط تبثّ في روحه إحساساً مفعَماً بالحياة ينعشه كالنسيم.

ثم هناك الرداء الأبيض للجرّاح. الحلاقون والطبّاخون يتنزّهون في حديقة أساكوسا مرتدين ملابس عملهم البيضاء. هذه الأردية تدهش زحام المارّة، كما تجتذب فتيات الحي، شأنها شأن المشارط الحادّة. يوميكيشي يعرف هذا. ولذا قرّر أن يصير حلاقاً. أثناء حلاقته عنق يوميكو بالشفرة أغرم بهذه الفتاة القاسية والباردة كالشفرة. استشفّ من طباعها أنها تشاطره هذا الولع بالنِّصال.

هذا هو السبب وراء اصطحابه يوميكو ورجُلها اللعوب إلى كورينايي–مارو، والتجذيف إلى أعلى النهر، مثلما طلبت منه يوميكو.

ولكن النصال الحادّة تتثلّم سريعاً. على متن القارب في أوكاوا، في الضباب الشتويّ القارس، يشحب يوميكيشي، قلقاً على يوميكو، و...

المنطاد والطوابق الاثنا عشر

18

يدخل الرجل مقصورة القارب وإذا بيوميكو قد غطّت في النوم أثناء تجفيفها قدميها قرب النار. أخمصاها، كمحّارتين منحوتتين بلون الدرّاق، مغموران بوهج المجمرة.

قبل ركوب القارب، رأى الرجل نذير خطر في تلك الجوارب السوداء المعلّقة كي تجفّ، وها هو قد ارتاح الآن وإن خاب ظنّه. يوميكو وحدها.

لا شيء يخفى في هذه المقصورة الضيقة.

يفكّر مبتسماً: إنها مجرد عاهرة في نهاية الأمر، لكن هاتين الساقين رشيقتان جميلتان. في نقائهما شيء من جمال الغلمان.

إنه يرتدي معطفاً ياباني الطراز أنيقاً سكّري اللون مع قبعة صيادين من القماش نفسه. واقفاً، رأسه يلامس سقف المقصورة، يحدّق بساقي يوميكو ويداه في جيوبه.

كأن الإنارة تشتدّ في المقصورة حين تتأقلم عيناه مع العتمة.

ساقا يوميكو متلاصقتان كأنها تحاول الاحتفاظ بالدفء، الربلتان متلامستان، الأصابع مثنية قليلاً نحو الداخل، المأبضان خطوطهما بديعة.

عذبٌ هو الانطباع الذي يتولّد أمام استلقائها متكوّرة وركبتاها تلامسان صدرها، فيفكّر: ''مجرد طفلة!''، ولكنه يرى شهوانية البالغين الفظّة حين تنحسر تنورتها الحمراء ويلوح ثوبها الداخلي.

بغتةً، يرفع المراكبيّ المزيّف يوميكيشي لوح العبور بين القارب ورصيف النهر، ويضعه على سطح المقصورة فتُسمَع قرقعة ويتمايل القارب بحدّة. يترنّح الرجل في المقصورة ويرتطم بالجدار، فترفع يوميكو ناظريها: ''آه، أنا متأسّفة! هل نمتُ حقاً؟''.

تضمّ ساقيها بقوّة، وتشدّ تنورتها الحمراء مرّتين، رغم معرفتها أن التنّورة لن تغطّي ركبتيها مهما شدّتها.

تشيح بوجهها وتخفض رأسها: ''كنت قلقة وانتظرتُ طويلاً بصبر فارغ، فعند حلول الظلام لا تبقى في النهر إلا بضعة قوارب فقط، وعلينا الإسراع بالمغادرة. آه، هل تستطيع أن تغلق تلك النافذة؟ قبطاننا سيّد غيور!''.

يغلق الرجل كوّة المقصورة وبابها أيضاً، فتمسي فجأة غرفةً سرية مظلمة. يرتمي الرجل على يوميكو ليحتضنها، فيسقط على الفراش. ليست هناك.

– أنا أبحث عن فانوس. وكما تعلم، لقد وعدتُ بانتظارك هنا على القارب، لكنني لم أعدك بالبقاء مستيقظة. متأسّفة، لكنني كنتُ منهكَة بالفعل. أمسِ، لم يسِر أيّ شيء على ما يرام، فلم أنم على الإطلاق. ضيّعتُ عدّة مكياجي، تزحلقتُ وأنا أركب القارب وتبلّلت جواربي كلّها...

يظهر قنديل نفط على طاولة الشاي الصغيرة الوسخة، وإذا بيوميكو على ركبتيها هناك مرتدية سترة ناصعة البياض، ويداها معقودتان في حجرها كسيّدة فاضلة.

– ليس عندي ساكي.

– إلى أين وجهتنا الآن؟

– أعلى النهر...

– حسنا، لا يهمّ، ولكنني لستُ من الذين يحبّون الألاعيب. ولهذا صارحيني بالحقيقة. أخبريني ماذا تدبّرين. إذا رغبتِ في تمضية وقت حلو، فأنا لها. وإذا احتجت إلى المساعدة، اطلبيها. ولكن كوني واضحة.

– لماذا؟ ألم أكن واضحة معك؟ أريد أن أحاول لأرى إذا كنتُ قادرة على الوقوع في حبّك.

– هل تمزحين؟

– لماذا؟ أنت تحبّني سلفاً. فلماذا لا أحبك أيضاً؟ هيّا. هلمَّ بنا إلى الحبّ.

– تبدو لي نياتك خبيثة. إذا كنتِ تضمرين لي حقداً، كوني شُجاعة كالرجال وصارحيني.

– لو كنتُ رجلاً، لصارحتك. أنا حاقدة عليك، وحقدي كبير. أنا شجاعة عادة. لكنك تخيفني حقاً، لأنني امرأة. هل فهمتني؟

تفتح يوميكو عينيها الكبيرتين على وسعهما وتحدّق في وجهه. ثم تغمضهما بسرعة لدى سماعها هدير زورق بخاريّ يقترب، ويرتجف كتفاها: "أنا أعرفك منذ وقت طويل".

19

تغمض يوميكو عينيها. ولكن التعبير بالكلمات على هذا النحو لن يعطيكم أي إشارة تدلّ على واقع الأمر. جفونها ترفّ بسرعة حتى تكادون تسمعون الرفيف، وبمستطاعكم أن تروا حركة كل رمش.

حدقتاها سوداوان. رموشها كثيفة. الزرقة تشوب بياض عينيها. رفرفات تلك الرموش كمروحة تُلهب المشاعر كفيلة بإضرام النار في قلب أي رجل.

إنها تكرّر القول: ”أنا أعرفك منذ وقت طويل“.

ينهض الرجل ويمشي نحوها ويحتضنها بفظاظة. جالسة على ركبتيه، تمدّ ساقيها العاريتين نحو المجمرة، ثم تمسّد حاشية سترتها البيضاء بحركة طفولية...

– نعم، هكذا بالضبط! لم تتغير طريقتك في احتضان النساء. أودّ تذكيرك بشيء. في الليل، وبعد تحليق ذلك المنطاد الجديد في سماء طوكيو أربعاً وعشرين ساعة متواصلة، كان المصباحان الأخضر والأحمر على المنطاد يبدوان ضئيلين كنوّاصتين حين يُريان من الأسفل. كانت السماء سوداء، والغيوم تنذر بالمطر. لحظة عبور المنطاد فوق النهر، انطفأ الضوء الأخضر مثل نيزك. وإذ كنا نحدّق مذهولين، فجأة حجبت الغيوم الضوءَ الأحمر. ولأنك من طوكيو، فسوف تتذكر تلك المصابيح بالتأكيد. في تلك الليلة، على سطح بناية إسمنتية ضخمة، بالتحديد في شرفة المراقبة، احتضنتَ امرأة بهذه الطريقة نفسها، أليس كذلك؟

– مدهش. يا لك من ممثلة صغيرة بارعة! وماذا بعد؟ خطبة الأميرة في حكاية خرافية؟

– حكاية خرافية؟ هذا صحيح. كنتُ حينذاك في الصف الخامس لا أكثر. كنتُ قد اختبأتُ تحت شرفة البرج، جسدي كلّه يرتجف وأنا أتفرّج عليكما. وها أنت الآن تحتضنني مثلما احتضنت تلك المرأة وقتذاك. ألم تتحقّق أمنيتي مثل الأميرة الجنّية؟ تحقَّقَ الحلم. نهاية سعيدة.

– يا لك من غيورة. اَسْدِي إليّ معروفاً، وحاولي أن تتذكّري ماذا كنتُ أفعل مع تلك المرأة.

– نعم، تريد مني إخبارك ما كنتَ تفعلُ معها كي تفعل الشيء نفسه معي. حسناً، أمسكت ذقنها بيدك اليسرى وأجبرتها على النظر في عينيك.

ثم تستدير يوميكو بغتة، وتحدّق مليّاً في عيني الرجل ووجهها يلاصق وجهه.

– سنعقد الصلح الآن! ألا تريد أن تراني مجنونة مثلها؟ حدّثني عن تلك البناية الإسمنتية. ألا تتذكّرها؟

إنهما يسمعان وقع خطوات يوميكيشي فوق رأسيهما. في معظم القوارب، مكان المراكبي في المقدمة، أما مكانه على كوريناي–مارو، ففي المؤخرة. ولهذا السبب، يوميكيشي الذي لم يكن معتاداً التجذيف وقيادة القوارب من الخلف، يروح ويغدو خطوتين أو ثلاثاً على ألواح الخشب التي تسقف المقصورة، حيث يوميكو والرجل جالسان في الضوء المتراقص لقنديل النفط المغطّى بالسخام.

– نحن مقابل مخفر كيزاكاتا بالضبط. انظر، هذه مدرسة فوجي الابتدائية!

"آه!"، كأنه قد ابتلع الطعم.

– هناك. ما عدنا نتكلم على أي حكاية خرافية. إلى الآن، لا تزال تلك المدرسة تشبه، على نحو ما، الحكايات الخرافية. ثلاثة طوابق، كلها إسمنتية، وفي صباح الأول من سبتمبر، دخلها الأطفال للمرة الأولى في حياتهم. ثم كان الزلزال. ثم كانت النيران. ولأنها كانت البناية الوحيدة التي لم تحترق في القسم الخلفي من أساكوسا، ذهبنا إلى هناك، بعدما احترقت بيوتنا كلها. ألا يذكّرك هذا بحكاية خرافية؟ ألم تكن تشعر بالسعادة كالأطفال يومَ وقفنا على سطح المدرسة وتفرّجنا على انهيار ما تبقّى من برج الطوابق الاثني عشر؟ هل تذكر؟ صفّارات فريق إزالة الأنقاض. كم كان صفيرها مبهجاً.

– ما القصّة؟ هل تدّعين أنك الأخت الصغرى لأوشيو؟

– اعتبرني أختها. إلى متى ستتظاهر بالجهل؟

20

أيّها القرّاء الأعزّاء، كان ذلك البرج، ذو الطوابق الاثني عشر، رمز أساكوسا القديمة وقد قُطع رأسه في زلزال 1923.

وقتذاك، كنتُ طالباً أعيش في غرفة مستأجرة داخل سكن مشترك في هونغو. بعد أقلّ من ساعتين عقب وقوع ذلك الزلزال عند الساعة 11:58 قبل الظهر، ذهبتُ مع صديق لنعاين ما حاق بأساكوسا، هذا الحي الذي أحببته دائماً.

راجت أقاويل شتّى على تلال أوينو.

– هل تصدّق؟ لا تزال جزيرة إينوشيما تغرق وتعود إلى سطح الماء من جديد.

– انظرْ! برج الطوابق الاثني عشر تقصّفتْ قمّته. كان هناك الكثير من المتفرّجين على شرفة المراقبة. يا للهول! سقطوا جميعاً! ذهبتُ لأرى ما جرى. كانت جثث الموتى تطفو في بركة هيوتان.

كانت هناك صناديق بيض مبعثرة إلى جوار الطريق. أكلنا ستّ بيضات نيئة أو سبعاً. لا يصحّ القول إننا سرقناها أو أعطونا إياها أو اشتريناها.

كانت الحديقة وأرجاء معبد سنسو تغصُّ بالجرحى – مومسات يوشيوارا، وبينهنّ فتيات الغيشا من أساكوسا، مذعورات وثيابهن ملوّنة كحقل من الزهور المتناثرة.

تخيّلوا معي، على الأغلب كانت يوميكو – في الصف الخامس حينذاك – موجودة داخل ذلك الحشد.

"حقاً! إذن، أنت تكتب عما جرى معي؟ حين أفكّر في القَدَر وما صارت إليه أحوالي، أجد مصيري جديراً بالروايات"، وأخفضت رأسها مغمِضةً على الحزن عينيها الدامعتين، كأنها تحنّ إلى تلك الأيام الجميلة الماضية.

– ولكن أين وكيف اختفت تلك الفتاة التي كنتُها عندما كان برج الطوابق الاثني عشر لا يزال قائماً؟ إلى أيّ عالم رحلت؟ عندما أفكّر في الأمر... على كلّ حال، تستطيع أن تكتب قدر ما تشاء. لا أبالي. استمرّ. أودّ أن أقرأ روايتك لشخص ما، في مكان ما، في يوم ما، حتى لو طردوني من الحديقة.

فلنعد إلى موضوعنا. كان البرج ذو الطوابق الاثني عشر محاطاً بأبنية لا تزال الحرائق مندلعة فيها عندما وصلنا إلى هناك أنا وصديقي، ولكن لم تكن النيران قد بلغت بعدُ الشوارعَ التجارية في القطاع السادس ولا مقاصير روكّو ومسارحها.

جلسنا على الصخور قرب بركة هيوتان، لامباليَين كيعسوبين، وأقدامنا تتدلى في المياه، نقضم البسكويت ونحن نتفرج على الحريق الكبير على مبعدة عشرة أمتار منا.

وما إن هدأت الهزّات الارتدادية، حتى وصلت فرق الإنقاذ وأتى فريق إزالة الأنقاض لتفجير ما تبقّى من هياكل البنايات الضخمة، وإحداها البرج ذو الطوابق الاثني عشر. يوميكو تروي القصة في جوف القارب.

– كان صوت ذلك البوق المفرح مسموعاً حتى في المدرسة. لا شيء سوى الأرض المحترقة أينما جالت عيوننا، وقد يُلمَح في هذه البقعة أو تلك كوخ صغير مسقوف بالصفيح. كان بمقدورك أن تطلّ على الحديقة كلّها من سطح المدرسة. كان سطح المدرسة مزدحماً، وانتظرنا حوالى ساعة قبل أن تبدأ إزالة الأنقاض، أليس كذلك؟ ثم سمعنا دويَّ التفجير الأول، ورأينا أحجاراً تنهمر كالشلال. ظننتُ أن جانباً واحداً من البرج سيبقى قائماً، منتصباً كحدّ السيف، لكنه تهاوى مع التفجير الثاني. وهلّلنا جميعاً: "بانزاي[40]! بانزاي!" ثم جلجلت ضحكاتنا. هل تذكر؟ وبعد سقوط الجدار الأخير المتبقّي الشبيه بالسيف، هُرع الجميع إلى المكان حتى تغطّى جبل الأنقاض بظلال البشر. كنا مشدوهين حقاً. كانوا مثل جنود ينقّبون الغنائم وسط جبل من الخرائب. ربما انسكبتْ دموعنا فرحاً،

نحن المتفرّجين من بعيد. لماذا؟ لماذا التهليل "بانزاي! بانزاي!" عند انهيار البرج، والإسراع إلى الأنقاض حتى قبل أن يتبدّد الدخان ويهمد الغبار؟

40 تشبه هذه الصيحة: "يحيا! يعيش!"، أو "هوراه!"، وتعني حرفياً: "عشرة آلاف عام".

– هذه حيلة طفولية كي تبقيني مترقّباً أنتظر وأنت تسردين قصصك الخرافية.

– ليس هذا ما أنوي فعله. عندما تهجر امرأة، ألا يكبر حبُّها لك بسبب الهجران تحديداً؟

– ماذا تقصدين؟

– أليس هذا ما كان؟ ألم تكن توقظ أختي مراراً في منتصف الليل وأنت تنقر على جبينها بملعقة رزّ خشبية[41]؟ عندما استيقظتُ ووجدت نفسي أفترشُ الإسمنت البارد، راودتني رغبة عارمة في شراء بيت فرشت أرضيته بحصُر تاتامي حقيقية. كنتُ في علبة مفتوحة من الحديد المموَّج الفاحم مسقوفة بحصيرة قشّ...

41 شاموجي: ملعقة ترمز إلى العافية والخصوبة لدى الفلاحين اليابانيين.

زلزال كانتو الكبير

21

هل كورينايّ–مارو يقترب الآن من جسر كوتوتوي؟ إنهما يسمعان فوقهما عجلات السيارات وأبواقها وصفّارات الشرطة ووقْعَ خطواتٍ كالمطر.

جالسة في حضن الرجل، تتمايل يوميكو مع ضربات المجذاف.

– كنتُ حقاً فتاة صغيرة حينذاك. فتاة كاملة الأوصاف. أكثر أنوثة من الآن، أكثر بكثير. أمثالك لا يتذكّرون. كان يوماً خريفياً منعشاً وصافياً، مثالياً لغسل الثياب. وفي الباحة المعبّدة بالإسفلت... آه، نعم، كانت قاعات الدروس تطلّ على هذه الباحة الصغيرة مثل حوض الحمّام. كانت حبال رقيقة من القنّب ممدودة بين نوافذ الصفوف المتجاورة، والباحة مليئة بالمناشف المعلّقة كي تجفّ. كانت مناشف الإغاثة، كلها جديدة ومتماثلة. كان هناك شريطان أحمران مخيطان إلى كلّ منشفة. هذه الذكرى وحدها تبكيني. شرائط حمراء برّاقة ترفرف في الباحة الصغيرة لتحطّ أخيراً على صدور الفتيات. كان ذلك الأحمر يمسّ قلبي الصغير. ولكنك تعلم، كانت هناك جدران محترقة منهارة، أسطُح متهاوية، أسلاك هاتف وكهرباء مقتلعة محترقة، أوانٍ من الألمنيوم صدئة متفحّمة، سحب من الغبار والرماد تغطّي المكان كله. وقتذاك، لم نستغرب أن نرى الناس يُضرَبون بقضبان حديدية حتى الموت، والتوائم يولدون في عرض الشارع، وجثث الموتى والأحصنة تطفو في نهر أوكاوا. كان من الطبيعي ألّا تجد أي شيء تأكله لمدة يومين أو ثلاثة. والحبّ، لم يكن حباً عادياً.

أما الآن، في ربيع 1930، فهناك مهرجانات تحتفل بإعادة بناء طوكيو[42]. لقد نهضت طوكيو جديدة بعد الزلزال، وبالطبع، وسط تلك الخرائب، وُلدت أساكوسا من جديد. لكن، كما أورد رئيس الدير غون نو سوجو في مقدمة كتاب "تاريخ معبد سنسو":

42 ثلاثة أيام من المسيرات والاحتفالات في آذار/ مارس 1930.

> في العام السادس والثلاثين من حكم الإمبراطورة سويكو، ظهرت الإلهة كانّون، إلهة كنريوسان–سنسوجي، بالتحديد في هذا الموضع المطلّ على نهر سوميدا. منذ ذلك التاريخ وطوال أكثر من ألف وثلاثمئة سنة، يبقى معبدنا مكان

العبادة الأهمّ لدى شعب بلادنا في الإمبراطورية كلها. البرهان على العناية الإلهية ماثلٌ يومياً. في الوقت الراهن، يستقبل معبدنا وسطياً من خمسين إلى ستين ألف زائر كل يوم.

كان قد التجأ إلينا أكثر من مئة ألف نازح حين زحفت على معبدنا نيران الزلزال في السنة الثانية عشرة من حكم الإمبراطور تايشو، تلك النيران التي قوّضت معظم العاصمة الإمبراطورية إلى رماد. ولمّا بدا الإفلات من سجن تلك الجحيم الرهيبة مستحيلاً، سخّر بوذا الحكيم طاقة معجزاته كلّها فوضع حداً للهيب الجحيم المستِعر وأنقذ المعبد والناس على السواء. كلُّ من شهد تلك المعجزة سلك الطريق ليصير مؤمناً صادقاً يعتنق البوذية من قلب قلبه. ومذّاك، يتدافع المؤمنون آتين من قاصي البلاد ودانيها، ليروا موضع المعجزة وآثارها. لا نستغرب كثرة الناس الذين يسعون بمحض إرادتهم إلى معرفة المزيد عن تاريخ معبدنا، عددهم كبير ومرشّح للازدياد في المستقبل.

هذا هو السبب وراء صندوق الصدقات الذائع الصيت أمام قاعة كانّون... على سبيل المثال، وفق سجلات المعبد، أُلقيَ 002.16 ينّاً خلال شهر واحد فقط، أكتوبر 1929، إلى صندوق الصدقات هذا الذي يبلغ طوله 954.4 متر وعرضه 169.3 متر وارتفاعه 7.69 سنتمتر، يعلوه تسعة عشر قضيباً بالعرض مع فتحة في الأسفل مثل باب خزانة للمّ التبرعات. عائدات بيع البخور والشموع والصلوات وأوراق الفأل والنذور بأنواعها كافة تصل إلى 5000 أو 6000 ينّ. بدأ ترميم القاعة الرئيسية للمعبد منذ صيف 1928، وسيستغرق ثلاث سنين أو أربعاً، وسيكلّف مبلغاً قدره 000.600 ين، من مساهمات هؤلاء التُّقاة طبعاً.

"أكثر من 000.100 شخص نجوا بعد الزلزال وتلقّوا المعونات، وأنا منهم، وإذا حسبت التكلفة، لتَعيّنَ على كل واحدٍ منهم التبرّع بستّة ينّات مقابل نجاته، وليس هذا المبلغ زهيداً"، أخبرتني يوميكو

ذات مرة. ”ولكننا لم نُجرِ أيَّ حسابات خرقاء كهذه حينذاك. دوّت طلقات المدفع ثلاث مرّات كعلامة إنذار بجوار القصر الإمبراطوري، واندلعت النار في برج الطوابق الاثني عشر والهانايامشيكي، وزحف بحرٌ حقيقي من النيران إلى يوشيوارا ثم تشعّب وامتدّ شرقاً. وحوالى الثانية بعد الظهر، كانت القاعات الصغيرة في معبد سنسو فريسة للنيران. كما شبّت النار جنوباً، من واجهة كوراماي حتى النهر. وتخيّل معي، التقيتُ لاحقاً رئيس الدير. كنا قد هربنا إلى حديقة دِنبوين، وكان العجوز رئيس الدير جالساً على كرسي خيزران وسط عشب المرج، ولمّا غطّى الدخان قاعة كانّون بأكملها، قام على قدميه وراح يتلو الصلوات بهدوء وتركيز. عندئذ توقّف هبوب الريح بغتة، وانقشع الدخان الذي كان يلفّ قاعة كانّون“.

وفق يوميكو، كان العجوز رئيس الدير موهَناً منذ رجوعه من رحلة الربيع إلى الهند، فغاب عن الوعي في الصباح الباكر ذلك اليوم، الأول من سبتمبر، على الطريق إلى دورة المياه.

22

الصباح، أي الحادية صباحاً في دِنبوين. دهمت العجوز رئيس الدير دوخة خفيفة فسقط مغشيّاً عليه في الممر المؤدّي إلى دورات المياه. استعاد وعيه حوالى الخامسة. لكن أقرانه ظلّوا غافلين عنه حتى مطلع الفجر.

كانت الهزّة الكبرى عند الظهيرة. حمل راهبٌ على ظهره رئيسَ الدير وأخرجه من نطاق الأذى إلى المرج قرب البركة.

وسرعان ما اكتظّ المكان بالهاربين حتى ضاقت بهم أركانه – من غرفة المستوصف التي طبّبوا فيها رئيس الدير العجوز إلى تلك الفسحة تحت أرضية المكتبة في القاعة الرئيسية. آوى معبد أساكوسا زهاء 000.15 شخص هناك، رغم اندلاع النيران في أربعة وعشرين قسماً أصغر حجماً من مجمع الأبنية المقدّسة في معبد سنسو.

كان هناك أكثر من ستين راهباً احترقت أرديتهم السوداء وملابسهم الرسمية وحتى سراويلهم الداخلية وصارت رماداً. لم يبقَ من أوشحتهم إلا ستّة أو سبعة. كانوا يعتنون بالنازحين، مرتدين اليوكاتا أو ملابسَ غربيّةً متّسخة.

مستشفى أساكوسا، قاعة النساء، روضة الأطفال، مكتبة الأطفال... هذه المباني الأربعة، ضمن ”المرافق الخيرية“ الستّة في معبد سنسو، تمثل الآن جزءاً من مجمع المعبد، وفق التقسيم نفسه الذي

اقتضته إغاثة المنكوبين بعد الزلزال. إحدى بقايا الزلزال هي مدرسة أساكوسا الابتدائية الواقعة وراء قاعة كانّون، حيث يذهب توكيكو ابن صاحب كوريناي–مارو.

في صباح الرابع من سبتمبر، بدأ الجيش توزيع الطعام على النازحين في مباني المعبد. ثم أصلحت مدرسة فوجي الابتدائية. الجدران المحترقة المتهدّمة والنوافذ المكسورة والسبّورات السوداء والمقاعد، كلّها رُمّمت أو أزيلت، ورُتّب كل شيء على أحسن ما يُستطاع. وابتداء من 8 سبتمبر، فتحت أبوابها للمشرّدين في العراء والمقيمين في الخيام. ازدحم قرابة ألف شخص في الصفوف من الطابق الأول إلى الثالث. كانت المدرسة مصمَّمة لتستقبل ألفَي تلميذ.

– كان الأحمر في تلك المناشف يمسّ قلبي، أما أختي الكبيرة، فكانت بنتاً من وسط المدينة تنام وتحت مخدّتها جرسان[43].

[43] تقول الخرافة إن النوم مع جرسين صغيرين تحت المخدّة يمنع وقوع الكوارث في الليل.

تروي يوميكو ذكرياتها للرجل.

– أنا ابنةُ الزلزال. في عزّ الزلزال، وُلدتُ من جديد. وكما قلتُ لك في الأكواريوم، سأصير رجلاً. تراني لستُ امرأة حقاً؟ عندما يستلقي مئات الناس وينامون على الإسمنت، وتتلامس أرجلهم من دون أن يغطّي أجسادهم أي شيء – فعندئذ ستكره الفتاة أن تكون امرأة. لم يكن هناك ماءٌ جارٍ ولا كهرباء. وفي منتصف الليل، بعد انطفاء الشموع واحدة تلو أخرى، كان الظلام حالكاً. كنتُ أكتشف أحياناً أنني نائمة بجانب شحّاذ. فعلاً. هل تعرف ماذا تعني معاشرة الشحّاذين؟ ولكن كان بينهم شحّاذان في قمة التهذيب. كانا يصعدان إلى حديقة السطح عند منتصف الليل ويختليان هناك. لكنّهما يبقيان شحّاذَين رغم كل شيء، أليس كذلك؟ ومن ثم كانت هناك أختي الكبيرة التي اعتدتَ أن توقظها بملعقة رزّ خشبية، و...

– هذه الأخت الكبيرة التي فقدتْ عقلها ولا تكفّين الحديث عنها، هل قلتِ إنها أوشيو؟

– نعم! إذا كنتَ تظنّ أنك ستتحاشى الحديث عن أوشيو بهذه السهولة، فأنت مخطئ تماماً. البائسون أحبّوها كثيراً. على أي حال، لقد ترك الشحّاذون أثراً بليغاً في نفسي. ثم تفرّق أولئك الأشخاص الألف على مهل، وانتابني شعور كبير بالوحشة لأنهم تركوني.

وكما تقول يوميكو، طفَش النازحون، بدءاً من الموجودين في صفوف الطابق الأوّل. وكان السبب هو النقص في المساحات المتاحة لمعونات الإغاثة، بعدما استحالت الباحة في بلدية أساكوسا إلى أنقاض ورماد. فعند إحضار أكياس الرزّ إلى أحد الصفوف، نُقِل الناس الذين كانوا موجودين هناك

إلى صف آخر. وتكرّر الشيء نفسه في الصف الثاني، ومن ثم الثالث، وهكذا حتى انتهى الطابقُ الأوّل بأكمله مستودعاً للمؤن.

ولأن المدارس كانت ستبدأ دوامها مجدّداً في الأول من أكتوبر، بالضبط بعد شهر واحد من الزلزال، كان لا بدّ من إخلاء الطابق الثالث وتجهيزه للتلاميذ. وبالطبع، كان هذا يعني اضطرار النازحين إلى الإقامة لدى معارفهم لبعض الوقت، أو الرجوع إلى بلداتهم الأولى، أو الانتقال إلى مساكن جماعية مسبقة الصنع وفّرتها البلدية، أو بذل ما يستطيعون من جهود لكي يبنوا أكواخاً تخصّهم وحدهم. وبعد أربعين يوم من الزلزال، لم يكن قد تبقّى في الطابق الثاني إلا خمسون أو ستون عائلة عدد أفرادها لا يتجاوز مئتين.

– كان هذا الطابق الثاني أرضاً واسعة من إسمنت ورياح الخريف تكنسها. نعم، هكذا كانت الحال. هناك، وسط الصفوف، بنينا مأوانا: لملمنا قطعاً معدنية صدئة من بين الأنقاض، ووجدنا حُصُراً من القشّ وخرقَ ثياب ممزّقة، واختبأت العائلات، عائلةً عائلة، داخل أكواخ الشحّاذين الصغيرة تلك. هذا ضاعف الإحساس بالحزن. أتساءل لماذا أراد الجميع بهذا الإصرار العيشَ متوارين هكذا؟ وحدهم الشحّاذان وطفلهما كانوا راضين بالنوم على حصيرة واحدة من القشّ، كما كانوا يفعلون من قبل. لو لم نكن قد رفعنا حولنا حيطانَ التوتياء تلك، فهل كنتَ ستدسّ ملعقة رزّ خشبية عبر الفراغ في أسفل الحائط لتوقظ أختي؟

23

"شركة سنجو آزوما المغفَلة للزوارق البخارية" – لهذا الاسم الرسميّ وقع قويّ. ولكن تبدو تلك الزوارق البخارية الصغيرة مع ركّابها مثل ألعاب أطفال عفا عليها الزمن، بعد أن تحوّلت ضفة موكوجيما القديمة إلى حديقة سوميدا الجديدة. وعند الاقتراب من جسر كوتوتوي، يلتفت باعة الكتب المصوّرة ويحيّون الركّاب كأنهم من طاقم القيادة، قائلين بوقار: "الموقف التالي كوتوتوي، كوتوتوي... السيّدات والسادة، الرجاء تفقّد أمتعتكم الشخصية قبل المغادرة. رافقتكم السلامة، وشكراً لركوبكم معنا اليوم"، ثم، بالوقار نفسه، يرحّبون بالركّاب الذين يصعدون.

لا يزال الناس حتى الآن، أيّها القرّاء الأعزّاء، يسمّون هذه المراكب "الزوارق البخارية ذات الصنّ الواحد"، رغم أن التعرفة قد ارتفعت إلى خمسة صنّات. وعندما يعبر أحدها تعلو الأمواج من حوله كأنه سيدٌ من أسياد نهر أوكاوا.

ليس الكورينايّ–مارو نفسه إلا زورقاً مهلهلاً وصغيراً جداً، ولم يُطلَق عليه هذا الاسم إلا من باب المزاح والمحبّة، إذ إنّ يوميكيشي المولع بالأدوات الحادّة قد لبّى طلب توكيكو، فحفر بالسكّين حروفَ "كوريناي–مارو" على مؤخرة القارب ورصّعها بالخرز الأحمر.

عندما أتى يوميكيشي ليستعير هذا الزورق، أوصاه العجوز والد توكيكو بالانتباه إلى لصوص القوارب الذين يسرقون معدّاتها وتجهيزاتها، غير أن يوميكيشي الفطِن كان يقف عاجزاً تماماً عند تحديد وجود أي مسروقات، حتى لو تقصّى بعينيه في استطلاع سريع.

وإذ يتمايل الكورينايّ–مارو على الأمواج، تشعر يوميكو، عند كل اهتزاز، بركبتي الرجل اللتين جلست عليهما. بغتةً، تغضي عاقدةً حاجبيها.

"أوه. لا أستطيع أن أتحمّل الحرّ حين تدفأ قدماي كثيراً! فظيع مثل احتضان القطط والكلاب! يقشعرّ بدني حين أتدفأ بحرارة الحيوانات!"، تعلّق يوميكو وتنهض بغتة قافزة عن ركبتيّ الرجل، ذاهبةً لترفع الغطاء الزجاجي عن القنديل.

– الرؤية أحسن هكذا. نحتاج مزيداً من الضوء هنا.

– ما دمتِ تكرهين حرارة الحيوانات إلى هذا الحدّ، فما كان عليك النوم إلى جوار أوشيو أيام الزلزال.

"لا أظنّ"، تقول يوميكو، ممسكةً الغطاء الزجاجي بمنديل، وتنفخُ فيه بياض أنفاسها بضع مرات.

– لكنني لا أتذكر أبداً أنني قد نمتُ يوماً في حضن أمّي. على كل حال، وقتذاك عقب الزلزال، كان لكل عائلة فراشٌ واحد فقط. غير أنّني فوجئت حقاً! كانت ملعقة الرزّ الخشبية تلك تندسّ من أسفل جدار التوتياء مداعبةً أختي على كتفيها أو عنقها. أتذكر ذلك بوضوح. لم أكن نائمة. بيدٍ واحدة لمست أختي رأسها لمسة خفيفة، ثم قوّست كتفيها وانزلقت مستندة على كلتا يديها. رفعت ناظريها وتسللت بهدوء، ممسكةً في يدها بصندل القش المهترئ الذي كانت تحتفظ به وراء مخدتها. كان وقع الخطى المكتوم كلما ارتطم صندل القش بالأرضية الإسمنتية للممرّ مسموعاً حتى مسافة خمسة أمتار أو ستة. كان الظلام دامساً. ما من مصباح واحد مضاء في الحيّ كلّه. ثم عادت أختي. وبأي حال! ماذا تظنّ؟ كانت ترتجف بالكامل. كانت تبحث عن شيء ما. ثم تلمّست بيديها أطرافَ جدائلي، وحشرتْها في فمها وهي تبكي بهدوء وتتنهّد.

– عمّن تتكلّمين بحقّ الجحيم؟ أختك الكبيرة لا سواها! ألا تستحين؟

– إطلاقاً. انظر. لقد قصصتُ كل ذلك الشعر الوسخ وتخلّصت من تلك التسريحة الجميلة. أشفقتُ على أختي. كرهتُها.

– تقولين لي هذا لأنك كنت طفلة صغيرة، تتخفّين تحت البرج وأنت ترتجفين خوفاً؟ كانت...

– صحيح... ليلةَ قدوم المنطاد. ولكن أليس هذا ممتعاً؟ تلك الطفلة تركب معك قارباً الآن، وتحدثك عن ذكريات الحبّ بدلاً من الهذيان حول أختها الكبيرة التي فقدت عقلها...

– ثم بدأتْ ترتجف!

"حقاً..."، قالت يوميكو وهي ساهمة تلمّع غطاءَ القنديلِ الزجاجيَّ الكامد، مطرِقةً متورّدة الخدّين.

– لقد حدثتْ أشياء كثيرة. كان الطبيب من وحدة الاستشارة الطبية في فرع الشرطة المركزي يسكَر كلّ مساء. وكان هؤلاء الإخوة، هؤلاء التجّار العفاريت، يأتون في عزّ الليل ويسرقون الخوخ المجفّف المعَدّ للتوزيع، وكلّما مات طفلٌ، دعوا إلى اجتماعات كبيرة للضحايا وأعدّوا قائمة بأسماء الأعضاء الذين سيتولّون دفن رماد الميّت في سرادق يوشيوارا، وطافوا المكان ليجمعوا الأعطيات من أجل المأتم، حتى لو كانت صنماً واحداً فقط أو مجرد قصاصة من ورق الكتابة[44]. كانوا يقيمون عروضاً يتسنّى فيها للنازحين إظهار مواهبهم الدفينة. ولكن ألم يتمّ إلقاء القبض عليهم بتهمة القمار وجرجروهم، مع ثلاثة أو أربعة رجال آخرين، إلى مخفر الشرطة القريب؟

44 نوع من ورق الكتابة الياباني اسمه "هانشي"، أبعاده 24 في 24 سم، وكان يقدّم كهدايا أو مكافآت رمزية.

24

عاقداً ذراعيه أمام صدره، يتكئ الرجل إلى الحائط الخشبي لمقصورة القارب.

"الآن وقد عرفتَ أنني الأخت الصغيرة لواحدة من عشيقاتك السابقات، فهل ستهجرني فجأة مثلما هجرتها؟"، تسأل يوميكو، ضاحكة كأنها تتأهّب للانقضاض عليه. تنظر إلى الرجل وسحنته تتذبذب في ضوء القنديل المتوهّج الآن داخل غطائه الذي نظّفَتْه. واقفة على رؤوس أصابعها ومحدودبة قليلاً، تدفّئ يديها على المجمرة الصغيرة.

– فإذن، أخيراً، الشيء الوحيد الذي يهمّك هو أن تعرفي هل أفكّر فيك!

– وماذا بعد؟ ألستَ معجباً بي؟ الأخوات الصغيرات مختلفات عن الأخوات الكبيرات في كل شيء، وصولاً إلى طريقتهنّ في التقبيل.

– هل تريدين الحديث عن ذلك الأسلوب المضجر في التقبيل الذي أكرهه ويثير الكثير من المتاعب؟

– وأنا أيضاً أكرهه. لكنني أتساءل، لقد قامت الشرطة بتوقيف بضعة شبّان يقامرون لقتل الوقت لا غير، فلماذا لم يعتقلوك سيّد أكاجي؟

– بنت شاطرة. تتذكّرين اسمي. شكراً.

''سأكون بنتاً شاطرة بالفعل وأساعدك على التذكّر. لأنك أبله قليلاً. أنت تعرف أهمية التحلّي بذاكرة قوية عند الإقدام على ارتكاب السيئات''، ثم تميل صوبه، ''إنّني أتساءل ما سبب إجفالتك في دوّامة الخيل، وسط الأحصنة الخشبية حيث يلهو الأولاد العاقلون والبنات العاقلات، وماذا يعني قبولك الخروج هنا في عرض نهر أوكاوا؟''.

''آه...''، ويبتسم أكاجي كمَن يمازح طفلة، ''هذا يسلّيني ويمتعني. تلك عادة من عاداتي الخرقاء. إضافة إلى ابتعادي عن أساكوسا مدة عامين''.

– ولكن لماذا رياح القدر... آه، صحيح. الرياح. لقد أتيتَ محمولاً على هبوب العاصفة. حللتَ على أختي. في ذلك المساء، كانت سيارات البلدية والشرطة تعبر الجسر المؤقَّت فوق أوكاوا. على الضفة الشرقية للنهر، كان الماء يبلغ خصور الناس. لم يبقَ بناء واحد هناك. لم يقتصر الدمار على الجهة الشرقية، فقد طيّرتِ الرياحُ كلَّ الأكشاك الصغيرة في الحديقة. كان المشي متعذّراً في مثل تلك الرياح، والفتيات على الأرض يزحفن على أيديهنّ وركبهنّ، باكياتٍ والمطر يضرب شعورهنّ ويمرّغ خصلاتهنّ بالوحل. شبابيك مدرستنا تهشّم بلّورها كله. رُحنا نجوب المكان، حاملين أفرِشَتنا ومتأبّطين أغراضَنا القليلة، هاربين من الظلام الذي لم نجد لتبديده عودَ كبريت واحداً. وفي صباح اليوم التالي، وجدتُك بجانبي هناك. ثم حاولنا أن نسترَ الشبابيك بقطع فاحمة من التوتياء وألواح خشب قديمة وخرقَ ثياب ممزّقة.

– هلّا أعفيتني من سماع هذه القصص المبكية؟

– ضجيج المطارق عند دقّ المسامير لا يزال بمقدوري سماعه حتى الآن. لن أنسى ذلك الصوت ما حييت. كان صوتاً كئيباً، وليس تصليحاً للشبابيك فحسب، أو تصليحاً لمدرستنا. كان التعليم هو القضية الأولى التي تصدّت لها الحكومة الجديدة بعد إصلاحات ميجي. كما كان التعليم الأولوية القصوى في روسيا الجديدة. أتذكر بوضوح خطابَ المدير. في 1 أكتوبر، أول أيام الدوام المدرسي، أتى حوالى أربعمئة تلميذ من أصل ألفين. كنا نمشي على الأرض المحروقة. كانت منازلنا كلها قد تهدّمت في الحرائق – لم يبقَ منها منزل واحد. انهمرتْ دموعنا فرحاً حين رأينا بعضنا بعضاً من جديد. كانت هذه هي المدرسة التي صنعناها بأيدينا. فكّكنا صناديق البيرة الخشبية وثبّتنا ألواحها بالمسامير، وصنعنا منها مقاعد التلاميذ وطاولات المعلّمين. علّقنا حُصُراً من القشّ للفصل بين

الصفوف. مثل المنام، كان طلاب الصفوف العليا يعملون في المدرسة يومياً كالمجانين. كان المعلم يكتب معادلات الرياضيات على جدران لا تزال رائحة الحريق والدخان تفوح منها. لم نستطع أن نصنع أي سبّورة سوداء حقيقية. كانت صفوف من عشرين إلى ثلاثين تلميذاً يجلسون على خمس أو ستّ حصُرٍ من القشّ ممدودة قبالة الجدران. كانت مدرسة عظيمة. كانت سعادتنا غامرة، والجميعُ شجعاناً وفخورين. كنا لا نزال موجودين، على قيد الحياة. لكنني أتساءل، إذا انهار العالم مرة أخرى، فهل سنعمل من صميم قلوبنا مرة أخرى لإرجاع المدرسة إلى سابق عهدها، على غرار ما فعلنا حينذاك؟ عندما بدأ الدوام في المدرسة تدهورتْ حالة أختي وتفاقم شعورها بالوحدة. كانت تتنهّد في نافذة الطابق الأول عندما تسمع أصوات التلاميذ يقرؤون من كتبهم المدرسية، أو ينشدون الأغاني، أو يردّدون الصيحات أثناء التمارين في حصص الرياضة، فترفع عينيها والدموع تجري على خدّيها.

– إذا كنتِ تنوين لومي وتحميلي المسؤولية على جنون أختك، فكفّي عن هذه المناورات وادخلي صلب الموضوع.

قبلة الزرنيخ

25

خزانتان صغيرتان مصنوعتان بالكامل من خشب الباولونيا[45]، مندولين، مرآة ارتفاعها ستّون سنتمتر، صندوق للشاي ملبَّس بشرائط من الأبنوس الخشن والأرْز الأسود زُخرفت في أشكال هندسية، موقد هيباتشي مستطيل مقدود من خشب الزلكوفا[46]، إضافة إلى أشياء متنوّعة مما يُباع عند معبد أوتوري، موضوعة قرب مجسَّم مصغَّر لمعبد شنتو من الخشب الأبيض، تراوح من مذراة كوماده مصنوعة من الخيزران إلى ملعقة هاغويتا منقوشة بصورة لحيوان من حيوانات الأبراج – كلّ الإكسسوارات الشعبية للبيوت في وسط المدينة. لكنّني سمعتُ أن هناك مقصورات مسقوفة بالقصب في قوارب الشحن تشبه إلى حد بعيد غرفَ المعيشة في البيوت الميسورة. أما على متن الكورِيناي–مارو، فيوميكو ترفع الجمر المتوهّج من الموقد الصغير وتضعه داخل سطل مليء برماد القشّ.

45 تعرف شجرة الباولونيا بصلابة خشبها وخفّة وزنه، واستخدامه واسع الانتشار في اليابان، حيث يصنع منه أثاث المنازل وآلات الموسيقا. كانت بعض الأوسمة الإمبراطورية في عصر ميجي تُزخرَف بأوراق هذه الشجرة وزهورها.

46 إحدى أشجار الزينة في اليابان، من فصيلة الدردار.

– آه، أنت تخيفني. هل لمتُك؟ هل تهدّدني؟ لم ترجِعْ إلينا التأمينات إلا عشرة بالمئة مما فقدناه في الزلزال. ولكن لم يكن هناك أيّ تأمين لحبّ أختي.

– حسناً، كان عليكم تأمين أوشيو احتياطاً، في حال إيداعِها مصحّة المجانين. ولكن لا ضمانات في أي مكان من هذا العالم، فكيف إذن سأدّعي المسؤولية عن جنون الآخرين؟ ماذا لو جُنّتْ كلُّ النساء المهجورات؟ هذا ليس من شأني. على أي حال، لم تكن تبدو على أوشيو أي علامة جنون على الإطلاق عندما انفصلتُ عنها.

– وأين تودعتُما؟ عند الباب الأمامي لمخفر الشرطة، صحيح؟

– نعم، هذا هو العُرْف لدى سفَلة الناس. أمام الشرطة، لزمت أوشيو الصمت حيال كلّ ما يتعلّق بي، وأنا لم أكن أنوي نكران الجميل ولا الانتحار حباً معها.

– قلتَها بلسانك، يسعدني سماع ذلك!

تخرج يوميكو من جيب معطفها الأبيض علبةَ دواء صغيرة مليئة بحبات زرنيخ تشبه حبَّ الدُّخْن[47] فتخشخشها في راحة يدها. ثم تردف وعيناها نصف مغمضتين من النشوة: ’’كل حبة واحدة صغيرة تحتوي خمسة مليغرامات من الزرنيخ. العلبة الصغيرة الواحدة تحتوي خمسمئة حبة تكفي لقتل كثيرين. هذه العلبة – يا للمتعة!‘‘.

47 نبات واسع الانتشار في أفريقيا وشرق آسيا، حبه صغير أملس كالسمسم.

– همم...

– انظر، في لحظاتٍ كهذه، وأنتَ تسخر مني مبتسماً تبدو بالفعل مثل دمية في معرض للفنون والتقاليد الشعبية. أتظنّني أهدّدك بهذه الحبوب؟ يا حرام يا حبيبي! هذه لعبتي! كلا. ليست لعبة، بل إحدى حوائجي حين أريد دغدغة في باطن قدميّ أو تنقية بشرتي العارية والحفاظ دائماً على رونقها وشفافيتها. هذه الحبوب... يمكننا ابتلاعها أيضاً! كنتُ أفكّر، طوال هذا الوقت وأنا أتملّى وجهك، هل في مستطاعي أن أقتلك بها في أي وقت، وكان هذا الخاطر يمتعني. حتى القلب الأسود الذي أعمته الكراهية ينشرح إزاء فكرة كهذه. لكن غالباً ما ينتهي الإنسان بحبّ الشخص الذي يرغب في قتله. كلا. لم أحضر هذه العلبة من أجل لقائنا بالتحديد. فأنا، كما تعلم، أتناول وجباتي في الحديقة عادة.

– هذا سخفٌ ما بعده سخف. ألم تقولي منذ قليل إنك تركبين الماء لأنك دائماً ملاحَقة على البرّ؟

– آها! على البرّ كنتَ ستستطيع الهرب متى ما شئت، وكان أصحابك القدامى سيزعجوننا حقاً إذا طاردونا. أما على الماء، فالقرار بيدي. أحمل هذه الحبوب الصغيرة معي دائماً، لأنني أتناولها مع الوجبات. ففي هذه الأيام، تستطيع أن تأكل وجبة عامرة بعشرة صنات أو عشرين في حديقة أساكوسا. الطبخ في البيت مكلف وليس اقتصادياً.

’’دعيني ألقي نظرة‘‘، يبسط أكاجي يده، بعدما ظلّ متكتّفاً حتى الآن.

تكشف له الحبوب المسمومة عن يوميكو أخرى تحت ضوء مختلف.

لا تفوتها هذه الملاحظة.

– إذا وقعتُ في غرامك مثلما وقعتْ أختي، فسوف أقتل نفسي بهذه الحبوب الصغيرة. كنتُ توّاقة إلى لقائك حتى ما عدتُ أكترث إذا قتلتني. قصدي، إذا أفلحتَ في أن تجعل مني امرأة حقيقية.

تشدّ ذراعه بلطف وتلقي ستّ حبات زرنيخ في راحة يده: ’’من السهل الثرثرة عن الموت والاحتضار... ولكن إذا كان السمُّ معك في جيبك وقلت إنك ستموت، ألن يشتدّ شغف الحبّ حينذاك؟ هذا هو السبب. خذْها. ابلعْها‘‘.

يبتسم أكاجي مشمئزاً، كأنه سيرمي الحبوب بعيداً.

"لا ترمِها! لا تهدرْها!"، تقول يوميكو وتنهال بفمها على راحة يده. تطحن الحبّات الصغيرة بأسنانها الأمامية الجميلة، محدّقة في وجهه وابتسامة شاحبة تملأ عينيها. ثم تباغت أكاجي وتنقضّ عليه. تقحِم شفتيها في فمه وتقبّله. يحرق السمُّ لسانه.

26

كمثل فهْدةٍ ترتدّ بقفزة واحدة إلى الوراء بعدما نشبت براثنها المميتة في فريستها، تخفض يوميكو رأسها وتحدّق بآكاجي. التباين غريب بين الظلال الناعمة التي تلقيها رموشها الكثيفة على خدّيها وبين قسوة التعبير الذي يعتري وجهها.

عندما صعد آكاجي على متن الكورنياي–مارو أخبرته يوميكو أنها قد ضيّعتْ علبة مكياجها في فوضى الليلة الفائتة. غيابُ المساحيق البيضاء عن وجهها وقلةُ النوم يضفيان على عريها الآسر صفاء بارداً. أحد كتفيها العاريين يكشف انزلاق معطفها محلول الأزرار إثر الدفع القويّ الذي تلقّته من أكاجي.

لا يتوقف أكاجي عن البصاق. الزرنيخ يلذع لسانه. مذعوراً، يمسك بإبريق الشاي مفكراً بالغرغرة، ولكنه لا يجد مكاناً يستفرغ فيه.

حين ترى يوميكو وجنتيه منتفختين بالماء، تتلوّى من شدة الضحك. كانت الحبّات قد لطّخت يوميكو أيضاً، فكست أسنانها المنمنمة المنضّدة بلون بني داكن، وسالتْ بضع قطرات وبلّلت شفتيها الجافّتين. لا يتورّع أكاجي عن النظر إلى هاتين الشفتين. الشهوة.

ثم يرتعد. السمّ.

"آه!"، حين يفتح فمه يندلق الماء فوق حضنه وركبتيه، فيمسك بيوميكو من كتفيها: "يا حمقاء! تمضمضي! اغسلي فمك، هل تسمعينني! أنتِ مجنونة. مثل أختك تماماً!".

تخلع يوميكو المعطف الذي يشدّه أكاجي، وتبتعد بضع خطوات ثم ضاحكةً تتهالك على الأرض. بطنها يتلوّى حتى أنّ عضلاتِ فخذيها ترتسم واحدة واحدة.

تنفض جدائلها الشعثاء، وإذ ترفع رأسها تفيض عيناها اللامعتان بالدمع.

– آه منك! ربما تعرف ما تسميه العُرف لدى سفلة الناس، ولكنك بالتأكيد لا تعرف كيف يجدر بالعشاق أن يتصرّفوا. لقد قبّلتُك للمرة الأولى، وأنت اكتفيت بالبصاق والغرغرة!

تبدأ يوميكو الضحك من جديد. ارتعاشات جسدها تجسّم عريها الوحشي.

– يا للبشاعة. في اعتقادي، بعد كل ما جرى، يستحسن ألا أصير امرأة أبداً. آه، يا للسخف! يا للغرابة!

"آه!"، يمسك أكاجي برقبة يوميكو ويجذبها إليه. يضغط وجهها على صدره، ويخبط خدّها بقبضته ليرغمها على فتح فمها. ثم بيده الأخرى يُنزِل الكمَّ الطويل لقميصه الداخلي ليمسح لسانها وأسنانها.

يوميكو تضحك من خلف دموعها، دموع الغثيان التي تبلّل صدر أكاجي: "لـ– لـ– لكن، لكنّني بخير. تلك، تلك مسرحية لا أكثر. أنا آسفة. ولكن كان من المستحيل أن أقبّلك بأي طريقة أخرى".

يوميكو بين ذراعيه، وقد تراخت قبضتاه. تنفّسها ثقيل. ترفع عينيها النديّتين، وتحدّق في وجهه مباشرة.

– لماذا تنظر إليّ هكذا؟ ها أنت الآن، أخيراً، تنظر إليّ. منذ التقينا في الأكواريوم وأنت تعاملني كأنني طفلة أو عاهرة رخيصة. وذلك ما أغضبني أشدّ الغضب فأحدثتُ هذه الضجّة. ألم تفهمْ ما قلتُه حين أخبرتك أنّ الزرنيخ طمأنينتي؟

ولكن في تلك اللحظة يحمرّ وجه يوميكو حتى أذنيها، فتتشاغل بتمسيد تنّورتها كأنها قد انتبهت إليها للتوّ.

"انظري، أنا..."، يقول أكاجي فيتهدّج صوته حين يعلو، "بخصوص أوشيو...".

– لا داعي لتشرح لي أيّ شيء. إذا كان لديّ أي شيء أقوله، فسأتكلّم على نفسي شخصياً، لا نيابة عن أختي. مفهوم؟ لقد رأيتُ أختي عاشقةً وأقسمتُ لنفسي أنني لن أصير امرأة أبداً. يا لتعاستي. ثم التقيتُ بك، أنت السبب في كل شيء، وفكرتُ: فقط لو استطعتُ أن أصير امرأة، لكنتُ في منتهى السعادة.

كلاهما يتفحّص الآخر بعينيه، وحين تتلاقى نظراتهما ويوشكان على الالتحام، يجذبها أكاجي بقوّة ويضمّها بذراعيه، مخفِضاً وجهَه لصق وجهها.

– حمقاء!

تدفع يوميكو فمه براحة يدها اليمنى.

أليس فم أكاجي وشفتاه وأسنانه الآن ملطّخة كلّها بالسمّ؟ ظلّت يوميكو، طوال هذا الوقت، قابضة على باقي الحبوب، فذابتْ في عرَق يدها.

– قطعاً، لستِ إلا معتوهة!

بغتة يشحب أكاجي ويخرُّ على وجهه.

أوباميا وهيميميا

27

وراء ضريح سانجا، تقع اللوحة الحجرية التذكارية لزويون مومس يوشيوارا مقابل اللوحة الحجرية التذكارية للممثّل اللامع تسوغا[48].

48 نُصبت هذه اللوحة سنة 1882 ويبلغ ارتفاعها مترين. كانت اللوحات التذكارية لرواة الأفلام الصامتة، وممثلي السينما وممثلي الكابوكي في عصر إيدو أمثال تاكيموتو تسوغا وفنانين آخرين، منصوبة في أماكن متفرقة من حديقة أساكوسا.

قد تخالون حديقةَ أساكوسا حديقةَ نساء، ولكن بين ثلاثين لوحة تذكارية موجودة هناك لم تخصّص إلا واحدة فقط لعاهرة، وهذه اللوحة تقدمة من زويون نفسها إلى محراب هيتومارو.

رويداً رويداً
ضبابُ الفجر
يغشى الجزيرة
تختفي السفينة.
أبقى هنا،
يمزّقني الحنين.

حتى لو كانت هذه الكلمات قد نسجت على منوال الأسلوب المعتمَد في مختارات مانيوشو، فإن يد المرأة التي حفرتها في الحجر قويةٌ أقرب إلى الرجولة. كأن "درّة المومسات" كانت قد نذرت هذه القصيدة لمحراب هيتومارو. بين الآلهة الخمسين أو المئة في حديقة أساكوسا هيميميا هي الإلهة الأقدم والربّة الوحيدة للعاهرات.

بناء على أمر صادر من مجلس البلدية في يونيو 1891، السنة الرابعة والعشرين من حكم الإمبراطور ميجي، طُمرت بحيرة أوبا بالتراب ولم يبقَ منها اليوم إلا شكلها الخارجي. من جيل إلى جيل، ساد اعتقاد بأن طيف المرأة العجوز يلوح في المساءات عند اكتمال القمر، هناك فوق

مرج أساجي. حفظاً لذكراها من الاندثار، قرّرتُ نصب هذه اللوحة التذكارية هنا.

موريتا إتسوسابورو

هذا ‘‘الموقع التاريخي لبحيرة أوبا‘‘ الذي تشير إليه اللوحة التذكارية يقع حالياً وسط مجموعة من البيوت، على امتداد طريق المشاة، عند المبنى رقم 23 في المجمع السادس للبنايات في أوماميشي، والآن يقيم أوباميا وَهيميميا معاً بصحبة سبعة أو ثمانية آلهة أخرى في معبد شيكاتزو.

ثمة ثلاث روايات متداولة مختلفة لأسطورة بحيرة أوبا، وفي ثلاثتها تتوسّد هيميميا مخدّة من حجر. لا شكّ أنّ ما ذكّرني بهذه الأسطورة قصة يوميكو التي كانت تتوسّد الإسمنت حين تنام (وربما تنام الآن على مخدة من خشب القارب).

كان مرج أساجي المزروع بالقصب في موساشينو سهلاً شاسعاً حيث يبزغ القمر فوق الأعشاب العالية المفضّضة ولا يخترقها نوره. قد يمرُّ مسافر من هناك بالمصادفة أثناء بحثه عن نزل يمضي فيه ليلته، ويحزنه أن يسمع صرخاتِ الزقزاق قرب نهر سوميدا. قد يقع على كوخ متداعي السقف وسط سهل الحشائش الذابلة. هناك، في ذلك الكوخ القميء، عاشت عجوزٌ قلبها من حجر.

كانت لهذه الساحرة العجوز ابنة جميلة لا تشبهها في شيء.

ستزيّن العجوز ابنتها في أبهى ثوب وترسلها لترحّب بالمسافر المتعب وتدعوه للقدوم إلى الكوخ. ستأمر ابنتها بالنوم إلى جانب المسافر على مخدة من حجر. ثم في حلكة الليل، حين توقن العجوز أن المسافر قد غطّ في النوم، ستقطع الحبل الرقيق الذي كانت قد جهّزته مسبقاً بعدما ربطت به صخرة كبيرة سوف تهوي وتسحق رأس الرجل النائم إلى جوار ابنتها. ثم ستمزق العجوز الملابسَ عن الجسد الدامي للمسافر الميت وتغرِق جثته في البحيرة.

هكذا قضى تسعمئة وتسعة وتسعون رجلاً. لكن المسافر الألف سمع ناياً خافت الأنين. كان صوت هذا الناي يشبه إنساناً يغنّي: ‘‘عندما تغيب الشمس، حتى لو كنتَ من دون مأوى تبيت فيه ليلتك، فلا تذهب إلى الكوخ الموحش في مرج القصب في أساكوسا‘‘.

بفضل هذا التحذير، رمق الرجل مخدةَ الحجر بعين الريبة، فاستطلع المكان خلسة ليعرف المزيد. رفع ناظريه إلى الصخرة الكبيرة، فسقطت قدّام عينيه، مثلما توقّع بالضبط. مرتعداً مخافة الموت، هرع هارباً ولاذ بمعبد كبير. ولما استفاق من النوم دون أي أذى، اكتشف أنه في قاعة معبد كانّون، وأدرك أن الإلهة كانون نفسها كانت قد اتخذت شكل رجل يحصد القصب ويعزف الناي.

وبعد سنين، خلال حقبة حكم الإمبراطور يوميو، عاشت عجوزٌ تحت السقف نفسه مع ابنه الأمير الذي لم يكن وقتذاك إلا ولداً صغيراً. حين عاينت العجوز بذخَ الملابس الثمينة للولد طمعت فيها وابتسمت. أما ابنتها اليافعة، المفتونة بجمال هذا الولد ولطفه، فلم تفارقه وشاطرته سريرها. ثم بغتة هوت الصخرة والعجوز ساهية. في الحقيقة، كان الولد تجسُّداً للإلهة كانّون فاختفى، أما الابنة، فظلّتْ وراءه مهشّمة قتيلة.

في الواقع، كانت هذه الفتاة قد كتمت ذعرَها من شرّ أفعالها، راغبةً في إنهاء حياتها. وقد أضفى هيامها بالولد الجميل نشوةَ الحبّ على هذا الموت.

أما العجوز الشرّيرة التي تستحقّ أن تسمَّى "شيطانة"، فسفكت أحرَّ الدموع حداداً على موت ابنتها. وبعد وقت وجيز، في يأس مطبق، ارتمتْ في البحيرة وغرقت.

الشيء الوحيد المختلف في الرواية الثانية للقصّة هو أن هيميميا ابنة عائلة فقيرة من الساموراي، كما لا يظهر تجسّد الإلهة كانون. بدلاً من ذلك، "تكفيراً عن ذنوبها"، ترتدي الابنة ثياب مسافر وتقتلها الصخرة. عندما يرى والداها ما جرى، يتعرفان من الفور إلى "حقيقة بوذا" فيرتديان الأردية السوداء للكهنة البوذيين.

لو كانت يوميكو قد ماتت متسمّمة بالزرنيخ على متن الكورينايـ–مارو، لقيل أن المشاعر التي ساورتها كانت كمشاعر الابنة في تينك الروايتين الأخريين للأسطورة، ولكن...

28

تدور الرواية الثالثة أثناء حكم سوشون، الإمبراطور الثاني والثلاثين.

كان قطّاع الطرق، على طول المرج الموحش وعرضه، يُغيرون على المسافرين القادمين من الشرق والشمال.

رحمتِ الإلهة كانّون المسافرين فأمرت شاكارا التنّين ملك المياه بأن يحوّل نفسه إلى امرأة عجوز ويحوّل ابنته الثالثة التنّينة إلى سيدة شابّة ساحرة الجمال، وأرسلهما للعيش معاً في كوخ موحش وسط المرج، حيث تستقبلان الحجّاج والمسافرين من قاصي الأرض ودانيها. تردّد على الكوخ قطاع طرق كثيرون اشتهوا وصال الابنة الحسناء. شربوا الساكي وتفاخروا بخصالهم طالبين يدها للزواج. كان جواب الأمّ هو دعوة كل قاطع طريق على حدة للنوم في غرفة مع ابنتها على مخدة من حجر. ثم كانت تقطع الحبل فتهوي الصخرة وتسحق رأس قاطع الطريق. انقضت سنوات عدة على

هذا المنوال، وجاء قطاع طرق كثيرون إلى الكوخ الموحش يشتهون جمال الابنة فأودتِ الشهوة بحياتهم.

وهكذا قضي على قطاع الطرق جميعاً بالغواية، بدءاً من زعيمهم إيمارو، وحكم عليهم بالموت واحداً بعد الآخر لإسرافهم في شهوات الجسد. بمرور الوقت، لم يبقَ هناك قاطع طريق واحد، ونعِمَ طريق المسافرين بالأمان التامّ.

ومع ذلك، درج القرويون على القول في تلك الأيام: ''لا تذهبْ إلى الكوخ الموحش للمرأة العجوز، حتى لو كنت من دون مأوى عند حلول الليل''.

وفي وقت لاحق، كان الملك التنّين لا يزال في هيئة امرأة عجوز، فارتمى في البحيرة وأمسى الإله الحامي كوريكارا– فودو تنين المياه الأسود. تحوّلت ابنته التنّينة إلى الإلهة الذهبية المشعشعة بنزايتن. حُفظتْ مخدةُ الحجر ومرآة الأميرة الحسناء ككنوز من أجل أجيال المستقبل في معبد أساكوسا.

لو كانت يوميكو في هذه الأيام هي الابنة التنّينة أميرة المياه وشاءت أن تسمّم الأوغاد في حديقة أساكوسا واحداً تلو الآخر، لكان أكاجي في النهاية، لاعباً دورَ قاطع الطريق الزعيم إيمارو، قد ذهب ضحيةً لشهواته بعدما استدرجته إلى فراش الموت.

ولكن عندما قرأتُ على لوح الإعلانات، بجانب مخفر الشرطة الصغير في بوابة كاميناري:

اجتماع في الهاناكاوادو

الفرقة الحمراء

لم أكن أعرف أن يوميكو كانت على متن الكوريناي–مارو في ذلك اليوم نفسه.

لقد رويتُ لكم، أيّها القرّاء الأعزّاء، حكاية أوباميا وهيميميا التي تعرفونها كلّكم لأنّها صفحة واحدة من ''تاريخ المعجزات'' التي اجترحتها كانّون في أساكوسا، وكانت لأهميتها تُغنَّى في هذه الترنيمة الثانية من قصائد الحجّاج المكرَّسة للأماكن الثلاثة والثلاثين المقدَّسة في عصر إيدو: ''فوق بحيرة أوبا، الطافحة بذنوب العالم، وِجهةُ صلواتنا هي الكوخ الموحش حيث عاشت عجوز لُبّيتْ أمنيتها بالارتماء في المياه''.

وبالعودة إلى قصّتنا السابقة، فها أنا الآن واقفٌ عند مدخل سوق ناكاميسه، والصغار المزعجون باعة التقاويم يطوّقونني بصخبهم.

عامداً إلى تجنّب هؤلاء الأولاد، أتنزّه متسكّعاً على امتداد شارع أساكوسا متّجهاً إلى الهاناكاوادو. أصادف فتاتين صينيتين أمام مكتب البريد في أساكوسا، وكل منهما ترتدي فستاناً صينياً أصفر. وعند التفاتي صوبهما، أسمع فجأة: ''آه! هل أعجبتاك؟''.

القائل شخص يلبس سترة هاوري من الحرير الصناعي زرقاء برّاقة تقلّمها شرائط ذهبية.

– ماذا؟

– عليك بالذهاب لترى تسوجيموتو! عنده صينيات، كوريات، بيضاوات!

تسوجيموتو! سأعرّفكم إليه لاحقاً، أيّها القرّاء الأعزّاء، لأنه الأذكى والأشدّ حزناً والأكثر غرابة بين سائر الأنذال المثيرين للشبهات في حديقة أساكوسا.

– هل نذهب إلى برج المترو؟

– آه؟ هل تدعوني لتناول العشاء؟

– أليس المُلتقى في المطعم؟

– مَن؟

– اجتماعهم هناك، عصابة الحزام الأحمر. رأيتُ ذلك مكتوباً على لوح الإعلانات عند بوابة كاميناري. هل حدث شيء ما؟

''كيف؟ لكنك قلت لي إننا ذاهبان إلى البرج! ها قد غششتني مرة أخرى. في الواقع، ظننتك لطيفاً! كنت أبحث عمّن يدعوني إلى العشاء، فانطلى عليّ المقلب! كلا. لم أرَ لوح الإعلانات. ولكنك ذاهب إلى هناك؟ كنتُ أمزح حين حدثتك عن دعوتي إلى العشاء. ها أنت ترى، لقد اشتريتُ هذا التذكار وأنا على الطريق إلى البيت''، تقول هاروكو، ملوّحةً بهدية صغيرة مغلَّفة بالورق أمام عيني. ''هذه هنا...''.

''هذه هنا'' عبارة شهيرة تمتاز بها أساكوسا. ولكنني، في هذه الرواية، أريد منكم أن تحزروا اسم الحلوى، ولو كانت الأحجية سهلة الحلّ في الواقع.

– سينكشف سرّي إذا عرفتَ ماذا اشتريتُ. خلسة، سأمرّر الصحيفة من تحت الطاولة، وسترى العجب. ستأخذها بائعة المحلّ وتدسّها بسرعة في سروالها الداخلي. شاكرةً ستخصّني بتخفيض كبير في السعر.

29

على سبيل المثال، حين تتنزّه يوميكو مع الممثل اليافع أوتاسابورو، تبدو ملامحها أشبه بالصبيان أكثر من هذا المراهق ذي الشفتين البارعتي الجمال. عندما تشبه فتاةٌ جميلة الرجالَ، أفلا تعتقدون، أيّها القرّاء الأعزّاء، أن جمالها الهشَّ يطعن القلب بالكآبة؟

استأجرتُ بيتاً يطابق بيت يوميكو في المبنى نفسه في ذلك الزقاق المسدود حيث يمكنكم أن تروا برج الإطفاء على ضفة يوشيوارا، وسرعان ما لفت نظري موقف مفاجئ. كانت يوميكو تساعد أوتاسابورو ليرتدي جوارب التابي. هناك في المدخل حيث البيانو. كانت يوميكو تمسح دموعها بكمّها وصدرها يعلو بالنحيب والتنهّدات. كان أوتاسابورو جالساً قُبالتها وساقاه ممدودتان، معتمراً قبعة صياد طيور كبيرة مصنوعة من جلد الغزال ويداه مدسوستان في جيوب معطفه الرجالي التنكّري. بالطبع، على الأرجح، لم يفعل هذا الطفل شيئاً يُبكي يوميكو. ولكنني تصرّفت كأني لم أرَ شيئاً، فتسلّلتُ خلسة لأتوارى عن الأنظار.

ماذا يعني هذا المشهد لفتاة مسترجلة إلى هذا الحدّ؟ وددتُ لو أصيح: ”هذه هي الحال، ولن ألومها أبداً! أياً كان ما تفعله، فهذه المرأة تشعر بالذنب دوماً!“.

لا ينبغي أن أنسى إخباركم بأن أوتاسابورو ليس الأخ الصغير ليوميكو. إنه مجرّد ولد لا يتجاوز عمره اثنتي أو ثلاث عشرة سنة.

ثمة فرق بين هاروكو ويوميكو. تستطيعون أن تقارنوا هاروكو الأكثر أنوثة بأي امرأة أخرى لا على التعيين. خيرٌ لنا القول إنها امرأة بين النساء، من دون البحث عن تعريف لها.

لا مآسي عند المرأة الحقيقية. كلُّ مَن يرى هاروكو يقتنع بهذا الرأي. أو على الأقل، بدلاً من الملاحظة أن لا مآسي حقيقية عند هاروكو، يجدر بنا القول إنها تنتمي إلى تلك الفئة من النساء الحقيقيات اللواتي لا مآسي عندهنّ.

”هذا صحيح، أؤكّد لك... في سروالها الداخلي“، تقول هاروكو وهي تمشي معي، مطرقة تنظر إلى قدمي. ”لا مكان سواه لإخفاء الصحيفة. ففي هذا المحلّ، فساتين البائعات من دون جيوب، وكذلك مآزرهنّ. لكنهنّ مولعات بالجرائد. آه! ما كان ينبغي أن أقول ذلك“.

– لماذا؟ هل هناك أي شيء مميّز في صحيفة اليوم؟

– لا يقتصر الأمر على هذا اليوم. لا فرق بين يوم وآخر. سمعتُ أن لدى صاحب هذا المحلّ ثماني عشيقات. إنه يأتي إلى المحلّ بعد الظهر، قادماً من بيت إحدى عشيقاته، فيجري حسابات اليوم الفائت، ثم يرسل النقود مع إحداهنّ إلى البنك، وسرعان ما يغادر مرة أخرى. الطريف هو ابناه. إنهما يقيمان لدى عشيقة أبيهما. يقال أن زوجته متوفّاة. لكنني لا أفهم علاقة عشيقاته بالجرائد. في الواقع صاحب المحل لا يسمح إطلاقاً للبائعات بقراءة أي صحيفة. الكتب غير مسموحة أيضاً. إذا أرسل أحدهم كتاباً إلى إحدى البائعات، فلن يعطيها إياه صاحب المحل بل سيرجعه فوراً إلى المرسل.

– حقاً؟ ولكنني أظنّ أن مثل هذه الأشياء تحدث.

– أنا... أنا لم أختلقها من عندي. كانت الفتيات يفتقدن الدعايات المضاءة والكلمات المكتوبة بالنيون. كنّ يرينها من المحلّ، وتلك هي الكلمات الوحيدة التي كنّ يستطعن أن يقرأنها. ولهذا كان سرورهنّ كبيراً حين يقع بين أيديهنّ كتابٌ ما أو صحيفة. كنّ يقرأنها خلسة في التواليت ساعة أو أكثر، ثم يدسسنها في سراويلهنّ الداخلية. وعند حلول الليل، لحظة جولة التفتيش، كنّ يطفئن المصابيح في وقت مبكّر دائماً. الطريف أن هذه الأجواء تشبه أغنية "نور الحباحب" و"الثلج على حافة النافذة"[49]. كانت البائعات ينمن في الطابق الأول. عندما كنّ يفتحن النافذة كانت أضواء مصابيح الشوارع تدخل الغرفة، وحينئذ تعلو الرؤوس.

49 "نور الحباحب" أغنية من عصر ميجي، كانت تغنَّى في المدارس غالباً على لحن الأغنية السكوتلاندية Auld Lang Syne. "الثلج على حافة النافذة" إشارة إلى حكاية صينية حول عالمين كانا طالبين فقيرين عاجزين عن شراء الفوانيس أو الشموع فيدرسان على نور الثلج أو ضوء القمر.

– هذه قصة رائعة! عملي، كما تعلمين، هو حثّ الناس على القراءة. يقال مؤخراً أن الأدب – أي قراءة الكلمات – قد فقد سحره، ولكن...

– كلا! هذا مخيف! لا يمكنك أن تكتب عنهنّ. البائعات المسكينات. سمعتُ أن عددهنّ الآن ثماني عشرة فتاة. حين يعثر صاحب المحلّ على أي شيء يُقْرَأ في حوزتهنّ، فإنه يشدّد على استجوابهنّ من أين حصلن عليه. لن يخبرنه طبعاً. وعندئذ يصففهن في رتل أمام الباب ويضربهنّ الواحدة بعد الأخرى. يصفعهنّ ليتكلّمن. في الواقع، نعلم أن هناك، قدّام المحلّ، بائع الجرائد العجوز المتعَب الأغبر شاحب الوجه، ولا يزال ودوداً معهنّ. عندما تغلق الفتياتُ المحلَّ في الليل، فإنه يدسّ تحت الباب جرائدَ المساء التي لم يبِعْها. ولكن أرجوك، لا تكتب عن هذا البائع على الخصوص. لماذا لا تكتب عن الزبائن الذين ينسون دائماً جرائدَهم ومجلاتهم على طاولة المحل؟

عشب الربيع،

الزهرة المتفتّحة، البنفسج،

الفاوانيا البيضاء،

الأقحوان، مُلبَّس الفاصولياء الحمراء،

أطايب الريف، قمر الفجر...

شارداً أقرأ. هذه أسماء أصناف متنوّعة من الحلويات اليابانية التقليدية المناسبة لتزيين مناضد الدمى في عيد الفتيات. كرز مجفّف، كراميل، علكة، شوكولا مصفوفة داخل الصندوق الزجاجي هنا في محل في الطابق الأرضي من برج مطعم المترو.

إلى اليسار، خزانة الوجبات الجاهزة:

رزّ، خبز، قهوة، شاي إنكليزي – خمسة صنات

شاي بالليمون، ماء الصودا – سبعة صنات

آيس كريم، كعك، أناناس، فواكه – عشرة صنات

قريدس مقليّ، رزّ بالكاري، وجبة طفل – خمسة وعشرون صنّاً

شريحة لحم عجل، كستليتّه، كروكيت، سلطة بلحم الخنزير، محشي ملفوف، لحم عجل مطهو – ثلاثون صنّاً

وجبة غداء كاملة – خمسة وثلاثون صنّاً

– آه، يا حبيبي! الأكل هنا غالٍ جدّاً. دعنا نذهب.

إلى يمين المصعد، محلات وموائد لمن يحملون قسائم الطعام.

– لم يقل أحد إنك لا تستطيعين الصعود إلى البرج ما لم تشترِ شيئاً تأكلينه. انظري. المكتوب هنا: البرج الحديدي، ارتفاعه عن سطح الأرض أربعون متراً، الدخول مجاني.

تلوّح هاروكو بهديتها المغلّفة، فتضحك فتيات المطعم.

– سنأكل هذه ونشرب الماء. في ما بعد، سنجد بالتأكيد جرائد المساء وأشياء أخرى للقراءة مبعثرة في أرجاء الحديقة[50]. لقد أعطتني بائعة المحل كلّ هذا مجاناً لأنني ناولتها، مع ياريكان واحد فقط، صحيفة عثرت عليها مرمية في الحديقة.

50 "الكراب" أحد أسماء حديقة أساكوسا.

داخل المصعد مطليّ بـ"اللكر" ومرصّع بنقوش ذهبية.

– يا ربّي، المكتوب هنا أن السعة ثلاثة عشر شخصاً. مئتان وخمسون يناً خلال ثلاث سنين، فكم المبلغ في اليوم الواحد؟ سأجري الحساب داخل رأسي قبل وصولنا إلى قمة البرج. في المحل الذي اشتريتُ منه هذه الحلويات تحصل البائعات المتمرّنات على مئتين وخمسين يناً خلال ثلاث سنين، أي ثلاثة وثمانين يناً وثلاثة وثلاثين صنّاً وثلاثة رين وثلاثة مو في السنة الواحدة، أي أقلّ من سبعة ينات في الشهر. آه، هل وصلنا توّاً إلى الطابق السادس؟

المطبخ مقابل المصعد. نستطيع المرور بجانبه، ونجتاز الأرضية المبلَّطة بأحجار بيضاء وسوداء كرقعة شطرنج، صعوداً إلى الحديقة على سطح البرج.

– في السنة ثلاثمئة وخمسة وستون يوماً، أي أقلّ من ثلاثة وعشرين صنّ في اليوم. يُفتح المحل من الثامنة صباحاً حتى الحادية عشرة والنصف ليلاً، أي هناك خمس عشرة ساعة ونصف من العمل يومياً. لديهنّ استراحة طبعاً، ولسن ملزمات العملَ طوال الوقت، ولكن يبقى المبلغ أقل من صن واحد، خمسة رين في الساعة. أيّ راتب هذا؟ مقبول؟ منخفض؟ لا يعجبني.

هذا ما تقوله هاروكو دون أن تنظر إلى المدينة المترامية في الأسفل.

– أولاً، هل كان حسابك صحيحاً؟

– دعني أخبرك، أعلم أنك لا تستطيع المرور بموائد قسائم الطعام من دون أن تشتري شيئاً، وأنا لا أتباهى بإجراء بالحساب. لقد أجريته بدقة، حتى آخر صن وآخر خمسة رين خلال الزمن الوجيز الذي استغرقه ركوب المصعد. نعم. آه، انظر! معبد إيناري! في مثل هذا المكان! انظر، هناك، هناك. معبد الإله الجليل إيناري... لقد رفعوا الأعلام من أجله.

بوابة توريي في معبد إيناري مصنوعة من الحديد.

تدور أمام عيوننا ذراع فولاذية طويلة، رافعة بناء تشيّد جسر آزوما.

– يشبه المبنى تلك الجوارب المبهرجة التي يرتديها لاعبو الغولف، وعلى سطحه ترفرف رايات دول من أنحاء العالم. والزيّ الرسمي لمفتّشي التذاكر في المترو يميّز مواصلات طوكيو. المفتشون أنيقون كموظفي الاستقبال في الفنادق الغربية في الأفلام. دسّ معبد إيناري هنا يشبه إلصاق زهرة صناعية لتزيين شعر منكوش.

قرب السلّم الصاعد إلى شرفة المراقبة، هناك أربع نادلات صغيرات متواريات خلف ستارة بيضاء يعزفن لحن "ميناء هابو" على الهارمونيكا.

– أليست جميلة هذه الموسيقا؟ أعتقد أن الموسيقا كالجرائد في محل الحلويات. صنّ واحد، خمسة رين في الساعة، ولا يستطعن أن يتركن المحل إلا مرتين في السنة، وتكون المشرفة موكولة بهنّ مثل رحلات المدرسة الابتدائية.

الإسمنت

31

عربة الكستناء المشوية في شارع أساكوسا، وقِدر التحميص يدور بمزيج الرمل الأسود وحبات الكستناء التي تنتفخ. متفرّجاً عليها، أجاد الوصف عضو من عصابة الحزام الأحمر: ”تلك رقصة ’هولا–هولا‘ المدهشة! حقيقية أكثر من رقصات هارونو يوشيكو، مثل راقصة سوداء بدينة ضخمة“.

لا يحظى عازف الناي كامِه بتصفيق حارّ ما لم يعزف أغنيات الجاز التي يتفنّن في بذاءاتها، رغم أنه لا يكفّ عن الشتائم على الخشبة في مسرح يوراكو.

على سبيل المثال، هل استمعتُم، أيّها القرّاء الأعزّاء، لعروض مانزاي أخيراً؟ كانت طريفة عادة. لكنّ ممثّلي المانزاي سنة 1929 تحوّلوا إلى مهرّجين يبعثون على أسى مضاعف، مثل قطار يسير من دون سكّة، لأنّهم تهمّشوا عند رواج الغناء ”الحديث“، ذلك الهراء الأرعن الوحشي المستورَد مباشرة من أميركا.

أو خذوا مثالاً آخر. اذهبوا وألقوا نظرة على الأوبرا في مسرح تِيَكو، حيث يؤدي الأمير الباهر جنجي والسيّد ناريهيرا رقصةَ جاز. تلك قصة أخرى، لمن سيفكّر في سماحة السيّد ناريهيرا. موكوجيما بكل نوارسها أمست الآن حديقة من الإسمنت على ضفة النهر. والمحلات التي كانت تبيع كعكاتِ الأرزّ الخاصة بمعبد شويمي مغلّفةً بورق الكرز وقطائفَ كوتوتوي وطيباتٍ أخرى في موكوجيما تحوّلت الآن إلى أبنية إسمنتية أيضاً.

على مقربة من هناك، مرسى زوارق المدرسة العليا للتجارة، البناية الزرقاء المشيدة من الخشب... وإذا قارنتُم البنايات، تبدو هذه البناية من زمان آخر، أقدم بكثير من بناية المحل الذي يبيع كعك الرزّ المغلّف بورق الكرز.

ولكن قد يصعب على السيّد ناريهيرا أن يستوعب سحر الإسمنت.

سمعتُ أن ستوديوهات كاماتا في شركة شوتشيكو للسينما قد صنعت فيلماً فظيعاً مستوحى من الأغنية الشعبية[51]: ”هذا هو الأخير!“، وسوف يُعرض، في وقت قريب على الأرجح، فيلم موسيقي عنوانه ”هذا هو الإسمنت!“. لا يفهم المتهكّمون سحر الإسفلت وسحر الإسمنت.

51 في 1929 و1930، أنتجت أفلام صامتة قصيرة مستلهمة من أغنيات شعبية، وكانت تعرض عادة كجزء من برامج سينمائية أطول. كان راوي الفيلم [البنشي] يقرأ كلمات الأغنية أثناء عرض الفيلم دون أن يغنّيها.

أتردّد عند الوقوف على هذا السحر. موضوع المراحيض مقرف، ولكن لا مثال أحسن منه. في الحديقة العامة الصغيرة القريبة من يوشيوارا (حسناً، لا يصحّ أن تسمَّى "حديقة عامة" في الواقع. إنها أقرب إلى فسحة يلعب فيها أولاد هذا الحي الفقير)، ينظّف بضعة أولاد المرحاض العمومي، وهو أنظف مرحاض رأيته على الإطلاق.

– هل أنتم من ينظّف هذا المكان يا أولاد؟

يرمقني الأولاد بنظراتٍ مستفسرة.

– كلّ يوم؟

– أوه، أوه، أحياناً.

– لماذا؟ هل أوكلكم أحد بتنظيفه أو أجبركم؟

– لا.

يتبادل الأولاد نظرات متواطئة ويتفرّقون هاربين.

وحين أسأل إحدى المربّيات في الحديقة: "أعتقد أنهم يحبّون فعل ذلك. مبنى المراحيض أحدث بكثير من المكان الذي يعيشون فيه، وهذه هي الفرصة الوحيدة المتاحة لهم كي يستخدموا هذا المبنى الفخم الذي لا يملك مثله إلا الأغنياء. لهذا ينظّفونه غالباً لأنه يشعرهم بالفخر".

غريب، ولكنني أسمع الجواب نفسه عندما أسأل مربية أخرى على المقعد المقابل.

لا شكّ أن المراحيض العمومية فخمة حقاً، ولا تقارَن ببيوتهم. ولكن ألا يرتبط حبّ هؤلاء الأولاد لهذه المراحيض بسحر الإسمنت المسلّح؟ وإذا كان الراشدون يُثنون على الصغار تحت مسمّى "الواجب العام"، ألا ينبري الأولاد لتأدية هذا الواجب بسبب سحر البناء الحديث؟ ألا يفضّل الأولاد المراحيضَ الإسمنتية على صالون الشاي في قلعة موموياما الإمبراطورية؟

وإذا تعيّن عليّ الاختيار بين المعالم الثمانية الجديدة في أساكوسا، لاخترتُ بالتأكيد حديقة دنبوين الشهيرة التي صمّمها المعلّم كوبوري إنشو حيث التجأت يوميكو والآخرون أثناء الزلزال. ومع ذلك اكتفت يوميكو بالقول: "ماذا؟ هل تلك حديقة شهيرة؟".

وعلى الأرجح، استناداً إلى ردّ فعلها، سينسى كثيرون إدراج هذه الحديقة ضمن معالم أساكوسا، وتقول الشائعات إنها ستفتتح للعموم في الأول من أبريل 1930. ولكن من سينسى جسر كوتوتوي الإسمنتي أو حديقة سوميدا الإسمنتية؟ سيأتي برج مطعم المترو، المشيّد من الإسمنت المسلّح، في

مقدّمة الأبنية الطليعية قبل معبد الأسطحة الخمسة. في نهاية شارع أساكوسا، يقع معبد سنشو الذي يُبنى من الإسمنت في الوقت الراهن مع أبواب دارجة حالياً تشبه القضبان الحديدية أمام السجون، وقد تستقطب هذه الأمكنة البوذية المباركة "الحديثة" الزوّارَ الذين يأتون للصلاة في معبد كانون إلهة أساكوسا.

ولكن فوق سطح مطعم المترو ("زهرة المستقبل في ثقافة عصرنا"، كما تقول الدعايات الملصقة إلى عربات المترو)، تتوارى النادلات خلف ستارة بيضاء فلا تظهر منهن إلا جواربهن القطنية، عازفات على الهارمونيكا، تلك الآلة الموسيقية العتيقة الحزينة.

مغتبطة هي هاركو التي تشرب الماء من الحنفية وتفتح علبة الحلوى التي أحضرتها معها، ولكن...

32

ثمة سياج يحيط بسطح البرج وتكلّله شباك من الأسلاك الشائكة، ربما درءاً للانتحار. أمام معبد إيناري، هناك ثمانية كراسيّ ومنفضتان طويلتان. من هناك، أستمع لضوضاء الشارع.

صفارات شرطة المرور، أجراس باعة الجرائد، صليل سلاسل الرافعات، هدير المحرّكات في القوارب البخارية على النهر، طقطقة الصنادل الخشبية على الإسفلت، ضجيج السيارات والترام، هارمونيكا الفتيات هنا في الأعلى، جرس الترام، صوت انفتاح باب المصعد، أبواق السيارات... أصوات شتّى تتناهى من بعيد إلى أذنيّ الساهمتين، وتصير صوتاً واحداً حميماً، فأطفو على موج هذا الصوت كأنه يهدهدني.

نهر أوكاوا بجسوره الأربعة يشكّل في جريانه خطّاً يغطّيه ضباب الشتاء. ولكن بين فينة وأخرى، يخترق أذنيّ صوت حادّ: إيبيي، إيبيي. أستطيع أن أرى مصدره في الأسفل. إنه صوت دمية. عند الضغط برفق على زرّ التشغيل تدور صفيحة معدنية مستديرة فيصدر صوت زاعق وتنطلق شرارات زرقاء وحمراء في كل اتجاه. ولدٌ شحّاذ يبيع هذه الدمى أمام باب البريد. طفلة عمرها حوالى ثلاث سنين، مستلقية على الإسفلت عند قدميه، تبكي: بووو هووو، بووو هووو. مجبرة على البكاء. البكاء هو العمل الذي تقوم به بنتُ السنوات الثلاث. البَكّاء بين الشحّاذين الصغار يلملم مالاً أكثر. لكن الولد بائع الدمى يرمقها من خلف ظهرها بنظرة شرسة وكراهية صريحة. لم أرَ قطّ مثيلاً لنظرته في القسوة والبرود.

لأضرب لكم مثالاً آخر، أيّها القرّاء الأعزّاء. حين تقفون أمام ملصقات الأفلام في صالات السينما أديروا عيونكم إلى الجهة الأخرى من الشارع:

لا أحد في العالم كلّه يُعاني مثلي. السنة الماضية في شهر أكتوبر، توفي زوجي وعليّ الاعتناء بأمي ذات الخمسة وسبعين عاماً، وأنا مصابة بالبيري–بيري[52]، وعليّ تربية ثلاثة أطفال، و...

52 مرض "الهزال الرزّي" الناجم عن عوز الفيتامين ب 1، قد يسببه الإسراف في تناول الرزّ المقشّر. يتظاهر بانتفاخات في الطرفين السفليين وأعراض أخرى.

على الأغلب، ستجدون أشياء من هذا القبيل مكتوبة على يافطات صغيرة ترفعها متسوّلات متورّمات الأرجل.

ولكن أين الأطفال الثلاثة؟ لقد خرجوا معاً إلى مكانٍ ما. تسلّقوا الأشجار عند طرف البركة. لا يجوز أن تروهم. وحين يدركون أنكم قد رأيتموهم يسارعون إلى القفز ويبدؤون عراكاً بالأيدي قدّامكم، أيّها القرّاء الأعزّاء. ثم يباشرون الشجار والبكاء. عملهم هو تمثيل العراك، ولكن عيونهم تنضح بالكراهية أكثر من المتعاركين الحقيقيين.

والآن، أودّ تذكيركم بالعينين اللامعتين لهاروكو. حدقتاها البنيّتان تتدرّجان نحو البياض كأنّ لونهما يتفشّى، والبياض بدوره سهل الاحمرار، لكن...

– يا سلام، ما ألذّه! مذاق ماء الحنفية أطيب عند ضخّه إلى أعلى المطعم. حُكماً.

كالعصفور تمدّ هاروكو رقبتها الرقيقة لترشف الماء، ثم تلعق شفتيها وتعود إلى كرسيّها.

إنها تشبه فتاة ريفية. لا يليق بها فستان الحرير الذهبي اللمّاع الرخيص الذي ترتديه.

– ها أنتِ، فجأة، تبدين في منتهى الهدوء.

– بلى. أنا أهدأ دوماً بعد عشر دقائق من لقائي مع رجل.

– جزء من خطّة، صحيح؟

– من باب الإغراء؟ كلا. أنا فتاة تفرح بسهولة، أحبّ التعرّف إلى الناس ومحادثتهم. بعد مدة قصيرة أفتح معهم حديثاً صغيراً.

– هل تريدين الذهاب لتشربي ماء لذيذاً حقاً؟

– نعم، من فضلك.

يمتد المطعم من الطابق الأول إلى الخامس. يختلف كل طابق عن الآخر، حتى في ألوان ورق الجدران ومصابيح الزينة متنوّعة الأشكال. كل شيء برّاق، عصريّ، نظيف. الكحول ممنوع في

الطابقين الأول والثاني. ولكن بإمكاننا شرب القهوة طبعاً في الطابق الخامس ذي الجدران الخضراء الذي ندخله الآن. في وسعنا أن نرى من النافذة الغربية أعلام المخزن الكبير أوينو ماتسوزاكايا.

مومس مبتذلة تملأ الآن قدح الساكي للرجل الذي يرافقها. على الطاولة المجاورة لهما، تجلس مجموعة من طلبة المرحلة الثانوية. عائلتان مع أولادهما يأكلون كستليته كبيرة كأطباقهم.

على الطاولة القريبة من المدخل فتاتان صغيرتان في عمر السادسة تتربّعان على كرسييهما، ونادلة تدهن بالزبدة خبزهما المحمّص. وحين تفرغان من الأكل، تطلبان المصعد وتهبطان بهدوء.

نبتسم.

– لئيمتان، هاتان الصغيرتان. هذه تربية أساكوسا. ستفرح يوميكو.

– ولكن كيف لم تصل عصابة يوميكو إلى هنا حتى الآن؟ لعلّهم على سطح البرج؟

33

فنجان القهوة فارغ. هاروكو تلحس الملعقة كطفلة ترضع حليب أمّها، وتحدق ساهمة عبر النافذة الجنوبية.

– بسطات الفواكه جميلة حقاً، أليس كذلك؟

"ماذا؟"، تقول وقد فوجئت قليلاً. "بلى. إنها جميلة. كنتُ أنظر إلى الأسطحة. سطوح الباصات وعربات الترام. تغطّيها طبقات من الغبار والوسخ. بشعةٌ كل تلك الأشياء التي تتجمّع فوقها".

– فيمَ تفكرين الآن؟

– لا شيء على وجه التحديد. أسترخي فقط.

– هكذا إذن. تهدئين بعد عشر دقائق حين تكونين مع رجل، وبعد عشرين دقيقة تنسين وجوده معك، صحيح؟

– لستُ الآنسة يوميكو، وأكره أن أقول الأشياء بالقطّارة كالخِياطة.

– كالخِياطة؟

– كإبرة تبرق في الضوء قبل أن تتوارى داخل النسيج من جديد، مرة بعد أخرى. يوميكو تراني مثيرة للشفقة. وأنا أراها مثيرة للشفقة. لكنني، كما تعلم، لا أستطيع أن أتحمّل يوميكو.

– أوه!

– أولاً، قبل أي شيء، تلك الفتاة حمقاء. منذ قليل، أدهشتُك بمهاراتي في الحساب، صحيح؟ لقد توصلت إلى الجواب بإجراء الحساب. لا يمكن لامرأة أن تحسّن أحوالها إذا تصرّفتْ مثل الآنسة يوميكو. أما أكيكو، فأحبّه. إنه يوميكو في هيئة فتى. يلاطفني أكيكو ويحاول حقاً الاعتناء بي، رغم أنه يصغرني سنّاً. هذا ما أستغربه في قرارة نفسي. قد أبدو مغرورة قليلاً، لكنه يقول إنني في منتهى الأناقة. ها أنت ترى الرجال يسخرون من النساء اللواتي يجارين الموضة، لكنني لا أبالي غالباً. هكذا هنّ النساء، على ما أظنّ. الرجال يتظارفون معي دائماً...

– ماذا تقصدين؟ يتظارفون معك؟

– نعم، أقصد ما قلتهُ حرفياً. لا فرق بين هذا الرجل أو ذاك. لا أستطيع أن أشرح لك الأمر. أفكّر أحياناً أنني فتاة مثيرة للشفقة ولست شجاعة أبداً. كلا. لا فرق إذا قلتُ خيرٌ لي لو كنتُ رجلاً.

صامتاً، أمدّ يدي.

– أنا آسفة.

تتناول هاروكو الملعقة التي كانت تلحسها وتضعها في يدي، شاردةً لا تلاحظ تصرّفها. ثم تردف:

– قلتُ للتو إني أسترخي فقط. أنا مسترخية تماماً. سرعان ما أسترخي حين أكون مع رجل. لا لزوم للتفكير في أي شيء ولا فعل أي شيء. أنا في غنى عن الخطط والمشاريع ووجع الرأس. بصفتي فتاة تعتمد على نفسها، أنا ملزَمة الانتباه إلى نفسي، لكنني بحاجة إلى الاسترخاء أيضاً. الرجال هم الحبوب المنوّمة للحياة. ثم يحلّ الفراق صباحاً، عند الاستيقاظ. وهذا مؤلم. آه، مؤلم جدّاً. أرجوك اعذرني على قول مثل هذه الأشياء المليئة بالادّعاء. لكنّ الفتاة العاشقة تبكي في الليل وتبكي في الصباح عند الوداع. عندما تكفّ الفتاة عن البكاء صباحاً، فهذا يعني أنها قد كبرت بالفعل واستقلّت بنفسها وصارت امرأة. أما الآنسة يوميكو، فتشاجر الرجال، كأنها مسألة حياة أو موت. أنت تعلم، لقد رأيتَ اللوحات الإعلانية الكبيرة أمام مسرح كانّون، صحيح؟ كأنها قد خرجتْ للتوّ من مسرحيات المبارزة بالسيف، مثلما تقول تلك الإعلانات بالضبط: "سأقطع رأسَ كلّ مَن يبالغ في الاقتراب". لا تكاد يوميكو تنام. لا أعلم فيمَ تفكّر حتى ينتابها الأرق. الإنسان حيوان تجارب مثير للشفقة. كم من الوقت يستطيع العيش دون نوم؟

– أليس لدى يوميكو حبيب؟

– لا أحبّ هذا منك. حقّاً، لا أحبّه. إذا كنتَ راغباً في طرح مثل هذا السؤال عليّ فكان عليك مصارحتي منذ البداية، بدلاً من أن تتركني أثرثر هكذا.

– براعتك في الخياطة مدهشة.

– صحيح. أنا فتاة عادية. ولهذا، في اعتقادي، يجب أن أتعلّم استخدام الإبرة. آه، لا. لا فائدة من ذلك. أنت الآن تتصرّف كأنك لا تبالي حقاً. ولكنك بعد عشرين دقيقة أخرى، ستسألني من جديد هل لدى يوميكو حبيب. أكره هذه الطريقة.

34

الذراع الفولاذية الضخمة تستدير مرة أخرى نحو النافذة، فترفع هاروكو رأسها إذ تسمع صليل السلاسل، وعيناها شبه مغمضتين: "آه، أودّ أن أشنق نفسي. يرفعونني فأتأرجح وأنا صامتة. رائع. لا أكفّ عن التفكير في هذا الأمر. بكامل مكياجي، وثيابي كلها حمراء غامقة، أتطوّح وتختلج

أطرافي وأنا أجاهد لأفكّ رقبتي. يا للمتعة! وبعد أن أتدلّى هنيهة عالياً هناك، أسقط في النهر وقد فارقتُ الحياة...".

– لكن فكرتك تعود إلى أيام درج فيها تعبير "ستّ السمّ"[53] – كان شيئاً مذهلاً حقاً. رياضية ترتدي لباس سباحة، ترتمي من قمة الرافعة وتغطس كالسنونو. عليكِ، كامرأة عصرية، أن تتعلّمي كيف تؤدين غطس السنونو.

[53] يعود استخدام هذا التعبير إلى مطلع عصر ميجي في سبعينيات القرن التاسع عشر، وكان يشير إلى العاشقة المخذولة التي تنتقم لنفسها بقتل حبيبها أو زوجها.

– حسناً. قُلْ مثل هذه الأشياء للآنسة يوميكو. تلك الفتاة كعذراء في صندوق، مصونة إلى أن يحين زفافها.ممّ تخاف يوميكو؟ لا أدري. إنها، في كل الأحوال، لا تستطيع أن تكون عروساً حقيقية.

– ما كنتُ أعرف ذلك. على أي حال عقلية الناس في أساكوسا قديمة فعلاً. هذا أكيد. جميعهم منصاعون للفروق بين المراتب، من باعتها الجوّالين ونصّابيها إلى شحّاذيها ومشرّديها، كلّهم يحترمون الواجبات الأخلاقية، يؤمنون بالصداقة بين الأصحاب، على منوال المقامرين في عصر إيدو. هناك محتالون شبّان في حديقة دوغنزاكا في شيبويا أو في شينجوكو، ولكنهم سلالة جديدة، ربما لأنهم لا يمتلكون أي تقاليد خلافاً لأساكوسا. لا أظنّ أن هناك مكاناً آخر كهذا في اليابان، ظاهره يضجّ بالحركة والحياة وباطنه يغلي بالكثير من الحوادث. لكن أساكوسا في جوهرها مثل عينة داخل صندوق الخنافس في منزل الحشرات، لا تمتّ بأي صلة إلى عالم اليوم، مثل جزيرة نائية أو قرية أفريقية يرأسها زعيم، وتحيط بها شبكة كاملة من الأعراف العريقة.

– ماذا جرى لك؟ لا أحبّ مثل هذا الكلام. الطلبة الذين يهربون من المدرسة ليذهبوا إلى أساكوسا، وأحياناً تعتقلهم الشرطة، يقولون أشياء كهذه. شبكة كاملة من الأعراف العريقة. هل وقعتَ فيها يوماً؟ بالطبع لا. لأنها غير موجودة. لحسن الحظ، الفضول البسيط هو ما يقود الناس إلى أساكوسا. جُلْ بعينيك في أنحائها وأَشبِعْ فضولك، واسمحْ لي بالضحك من هذه الأعراف! أساكوسا مأوى حقيقي لأناس مستقلّين. فقط فكّر كيف ستكون الأمور من دونهم. شجارات دامية، ناس يموتون جوعاً في الشوارع. تلك هي الحقيقة فعلاً. هذا ما تختصُّ به أساكوسا. أما أنا، فأودّ أن أشنق نفسي من رافعة بناء. واذهبْ أنت لتطرح أسئلتك على الرافعة: "يا مدام رافعة، أين اختفت النوارس؟ هل لدى يوميكو حبيب؟" اذهبْ واسأل النوارس!

– نعم، بالتأكيد. تطير النوارس نحو جسر آزوما، حيث كانت السفينة التي تذهب إلى تاكيماشي. ما تبقّى من سفينة تاكيماشي يحمل الآن اسماً غريباً هو ناريهيرا.

– وهل كانت النوارس تذهب إلى هناك؟

– نعم. في الواقع، طيور العاصمة فوق نهر سوميدا ليست إلا نوارس عادية منذ القدم. تفيد بعض الكتب بأن مناقيرها وأقدامها حمراء. يُقال أنها عمياء، ولكن هذا كلام سخيف. غالباً ما تبترد أسرابها بين الصفصاف الورديّ على الضفاف في قصائد السنريو.

في المواقع الشهيرة، تحيا النوارس.

بعد اجتياز الجسر تتحول إلى طيور العاصمة.

المراكبي يقطع اسم الطائر إلى نصفين[54].

ليست هذه الطيور الآن إلا نوارس كوماغاتا ذوات الصرخات الحزينة.

فكيف لن تشتهر كوماغاتا وطيورها نوارس.

54 هذه القصيدة مأخوذة من "حكايات إيسه" المكتوبة في القرن الثاني عشر، وفيها يسأل السيد ناريهيرا النوارس عن أحوال حبّه في كيوتو. التلاعب بالكلمة عند شطر اسم الطائر إلى نصفين يحيل على تغير اسم الطيور في المدينة نفسها.

فإذن، إنها تسمَّى "طيور العاصمة" حتى بلوغها جسرَ آزوما، عند موضع سفينة تاكيماشي القديمة، ثم تتحوّل إلى نوارس مسكينة عندما تطير فوق النهر إلى كوماغاتا.

– وهذا السيّد ناريهيرا لا يزال حاضراً في الأغاني حتى يومنا. يُقال أنه أعظم زير نساء في التاريخ. نعم، واحد من أولئك الذين يقولون: "آه، كم أنت جميلة" لأي امرأة يصادفها على الطريق لينال ما يبتغي.

– ألا تُغنَّى قصّته الآن في مسرح تايكو؟

ولكنني تذكرتُ، أيّها القرّاء الأعزّاء، أنني قد نسيتُ الأمير الباهر جنجي والسيّد ناريهيرا على الخشبة في مسرح تايكو.

ههنا حاشية بلاط مرموقون يرتدون ملابس أرستقراطية باذخة، لكنهم يحملون عصياً رفيعة للمشي ويؤرجحون أوراكَهم:

أنا برو[55] أرتدي أفرول العمّال

فخور ألوّح بمطرقتي الثقيلة

55 بروليتاري.

يغنّون "سمفونية المدينة"، ويؤدّون رقصة جاز، وفجأة تقذف العصيّ في الهواء وينقلب المشهد إلى عراك بالسيوف.

هاروكو التي رأت أن أفكاري قديمة تتباهى أيضاً، وتقبّل بسرور أربعةَ أو خمسة رجال على التوالي.

– عروس برج أساكوسا، هذه أنا. هل تعرف مسرحية ''عرائس برج إيفل''؟

35

على الخشبة، عاصمة عصر هيآن في أوجها: سيدات بلاط راقيات أنيقات من زمن الأمير الباهر جنجي والسيّد ناريهيرا، يغنّين ويرقصن ببطء، ريثما تظهر وسطهنّ فجأة فتاة ذات تنورة قصيرة، أحدث منهنّ بألف سنة، وهي ترقص الشارلستون حتى تتوارى. ثم يفتحن نقاشاً حول الحبّ والمجتمع، وهنّ يستخدمن مصطلحات دارجة مثل ''فتاة يسارية''.

– ولكن ما هي البروليتاريا؟

– هذا هو الاسم الذي يطلق على رفاق يعملون معاً في مجتمع من دون طبقات، ويكسبون عيشهم بشرف.

وفي نهاية النقاش، يتشاجرن ويتلاكمن، قائلات: ''هذه هي الملاكمة. القتال على الطريقة الغربية''.

بالمناسبة، أيّها القرّاء الأعزّاء، قد يبدو تعبير ''فتاة يسارية'' طريفاً، لكنه من دون شكّ آخر الصرعات في أساكوسا. تلك طريقة وقحة في قول ''عسراء''، أو إشارة إلى ''من تشرب الكحول وتثير المشكلات''. فإذا قال أحد أعضاء عصابة الحزام الأحمر: ''أصبحت يوميكو يسارية هذه الأيام''، فمعنى التورية أنها مخدوعة أو مفلسة. وإذا قالوا: ''هاروكو فتاة غيشا عصرية يسارية''، فالمقصود هو تأثرها بكتاب ألكساندرا كولونتاي ''الحبّ الأحمر''. لكن الفرق بين الغيشا في اليابان وروسيا معقل اليسار هو أن الغيشا اليابانية ترضى بالنقود.

على أي حال، رسائل الحبّ للأمير الباهر جنجي المكتوبة بلغةٍ أدبية تُتلى مثل أغنيات الأوبرا – تلك هي أساكوسا. وعلى الخشبة حاشية البلاط تتكلّم خليطاً عجائبياً من لهجات يابانية من مختلف العصور. ثم يؤدون رقصة الثعلب يداً بيد، ويغنّي كل أعضاء الفرقة أغنيةَ جاز ويرافق الجمهور اللحنَ بالتصفيق، وأخيراً الختام الكبير – ذلك ''مسرح موسيقيّ''.

على قمة برج المترو، قبل الغداء، ما أسهل أن تلعب هاروكو دورَ ''عروس برج إيفل''. هذا لأن كازينو فُولي يستخدم الآن ديكوراً على الخشبة يطابق الديكور في مسرحية جان كوكتو *Les*

mariés de la tour Eiffel [عرائس برج إيفل][56].

56 بدأ أول عروض هذه المسرحية في اليابان سنة 1924.

لا أحدَ يستغرب وصول الصبيان في عصابة الحزام الأحمر آتين من مكان ما وهم يركبون شاحنة
– هذه هي أساكوسا.

تنزيلات نهاية السنة قد بدأت للتوّ[57]. وعلى شاكلة الأسواق الشعبية، تضجّ الشوارع بالنداءات: "لدينا أعلام، بيارق، بطاقات حمراء، فوانيس من ورق، فرق موسيقا، فتيات مانوكان هنا في أساكوسا".

57 هناك موسمان لتنزيلات الأسعار في اليابان: الأول في نهاية السنة وبداية كانون الثاني/ يناير، والثاني في منتصف الصيف.

في خضمّ هذه الألوان كلها، يلتمع اللباس الأبيض لبائع كوريّ يحمل على كتفه سبعة أو ثمانية أحزمة من فرو "الدب القطبيّ" (على حدّ زعمه)، شاقاً طريقه وسط الزحام. تتابع عيوننا هذا المشهد من نافذة الطابق الخامس، وحين توشك هذه البقعة البيضاء على اجتياز سكة الترام، تتوقف شاحنة صغيرة أمامه ويقفز منها ولدان.

"آه، إنها البنت الصغيرة. هل الشاحنة قادمة من موكوجيما؟ من كوتوتوي؟ أتساءل ما المشكلة"، تقول هاروكو وتقوم على قدميها.

تلك البنت هي الفتاة الصغيرة في بيت يوميكو.

كالممثلات الصغيرات في الأوبرا، ترتدي معطفها الأحمر الغامق، وشفتاها مطليتان بالأحمر طبعاً وحاجباها مزجّجان. لكنّ الولد الصغير الذي يرافقها أشبه بالشحّاذين يمسك بيدها وهما يدخلان المطعم.

تصعد الفتاة الصغيرة وحدها. ملامحها بالغة الجدّية، تأتي إلى هاروكو وتوشوش في أذنها.

– آه من هذا الولد، شيء لا يُصدَّق. على الطريق إلى هنا، سرق برغياً من درابزين السلالم.

– وأنتِ أيضاً لا تُصَدَّقين. ألا تخبطين الأرض بقدميك على إيقاع أغاني الفرقة في الأكواريوم كل ليلة؟

– وبعد؟ الأولاد القادمون من أمكنة أخرى سيأخذون مكاننا.

لا يبدو عليها القلق، ثم تشدّ كمَّ هاروكو كأنها ستفشي سرّاً.

– ماذا؟

– أختي الكبيرة على متن كورينايْ–مارو، و...

– حقاً؟ ألم تقُلْ إننا سنلتقي في البرج؟

وإذ تومئ البنت الصغيرة برأسها ننهض للصعود إلى قمة البرج، ويقفز الولد الصغير من وراء الستارة البيضاء حيث كانت النادلات يعزفن الهارمونيكا.

– هيه. دعها وشأنها. لا تفعل ذلك!

من دون ضحك أو ابتسام، ينعطف الولد الصغير إلى إحدى الزوايا بجانب معبد إيناري. ثم يعود ويُرينا قصاصة ورق وجدها هناك. نذرٌ من نذور الفرقة الحمراء. قطعة من ورق القرطاسية، على أحد وجهيها كلماتٌ خطّتْها يوميكو.

يلوّح بالورقة أمامنا: "انظروا هنا! ما هذا؟".

36

الولد الصغير الذي يرافق البنت الصغيرة يُدعى ''ولد القارب''. هذا لأنه كان متشرّداً يسكن قارباً عندما اختارته عصابة الحزام الأحمر للانضمام إليها. لم يكن قارباً حقيقياً، بل جزءاً من ديكور المسرح، مرمياً وراء الكواليس ليستريح فيه الممثّلون أو ليستخدموه على الخشبة.

كان ولد القارب محتالاً صغيراً لا يحار في تدبير لقمته، فهو نشّال معروف بخفّة اليد، يشمّ محافظ النقود ويعثر على أشياء غريبة في أمكنة غريبة. عينه الآن على أصص الأشجار الصغيرة بجانب معبد إيناري. يجد هناك قطعة ورق، مليئة بكلمات ناعمة خطّتها يوميكو، تشبه تمارين الكتابة.

يلتقط ولد القارب ورقة نذر الفرقة الحمراء التي وقعَتْ ليشعلها بعود ثقاب.

ألقي نظرة على نصف الرسالة:

حين ينقشع الضباب يشرق الضوء،
حين يتوقف البرق يحلّ الظلام.

''ما المكتوب هنا؟''، يسأل ولد القارب.

آخذ منه الورقة، وأقرؤها بصوت واضح عالٍ فيما نحن الأربعة نصعد الدرج الحلزوني إلى قمة البرج:

السحاب خفيف في الصباح، كثيف في المساء.
الضباب كثيف في الصباح، خفيف في المساء.
حين ينقشع الضباب يشرق الضوء،
حين يتوقف البرق يحلّ الظلام.
أوراق الخريف تغير ألوانها أولاً على قمة الجبل،
أزهار الربيع تتفتّح أولاً عند أسفل الجبل.
النهر، الهادئ في النهار، صاخب في الليل،
البحر، الصاخب في النهار، هادئ في الليل.
الزهور على الشجرة تتفتّح في الصباح،

الأزهار بين العشب تتفتّح في الليل.

"والمعنى؟ هل هذه صلاة أو ورقة فأل؟ دعني أرها"، تقول هاروكو وتخرج يديها من ثنايا ثوبها.

– آه، فهمت.

– شفرة ما؟

– مجرد خربشات. ربما لا. هذه هي يوميكو، لا بد لها من الاستعراض حتى لو خربشت.

– ولكن لماذا رُميت هذه الورقة هنا دون سائر الأماكن؟

– لن أصدعَ رأسي بقطعة ورق. لنفترض أن أحدهم حاول استدراج يوميكو، فأخبرته: "سأرسل إليك جوابي غداً". والجواب الذي تلقّاه هو هذه الأحجية. ولو ظلّ يقلّبها في رأسه طوال حياته، فلن يحزر الجواب. أدركَ أخيراً، بعد مجيئه إلى هنا في البرج، أنها كانت تسخر منه. فرمى الورقة غاضباً. هكذا وصلتْ إلى هنا، لأن أحد الصاعدين إلى البرج جلبها معه. كما تعلم، ما لم أكن مخطئة، حتى يوميكو قد تكون خفيفة الظلّ. لن تعطيه أي جواب صريح رغم أنها وعدته بالكتابة إليه في اليوم التالي. هذا مؤكّد.

قمة البرج – برج إسمنتي دائري مثل برج كنيسة، نوافذه مطلة على الجهات الأربع، شِباك معدنية مثبتة في حافات النوافذ، أسفل الجدران مطليّ بالأخضر وأعلاها بالأزرق الفاتح، مع ثريا بلّورية معلقة إلى السقف الدائري.

عند النافذة الشرقية أربعة رجال مجتمعون يلتفتون بسرعة عند دخولنا، فلا يبالون عندما يرون هاروكو وأصدقاءها.

– يا ولد القارب، أنت قادم من كوتوتوي؟

هناك بار كاميا أسفل النافذة الشرقية مباشرة. يساراً، موقع بناء محطة توبو لخطوط السكك الحديدية في أساكوسا، ثم قطعة أرض خالية مسيّجة بالأسلاك. نهر أوكاوا. جسر آزوما، مع جسر مؤقت تنفّذه شركة زنيداكا. ورشات البناء وتقطيع الأحجار بجانب الجسر الحديدي لمحطة توبو. أبعد على هذه الضفة نفسها، مجموعة من القوارب الصغيرة وجسر كوتوتوي. على الضفة المقابلة، شركة سابّورو للبيرة. موقف كينشيبوري. خزّان أوشيما للمحروقات. محطة أوشياجي. حديقة سوميدا. المدرسة الابتدائية. المنطقة الصناعية. معبد ميمغوري. فيلّا أوكورا. قناة أراكاوا[58] لتصريف المياه. جبل تسوكوبا ملفَّعاً بضباب شتوي.

58 يجري نهر آراكاوا عبر مصانع طوكيو ويصبّ في خليج طوكيو. سنة 1911 اقترح العمل على قناة لتصريف مياه الفيضانات ومنع الحرائق، وانتهى إنجازها في القسم الشمالي من طوكيو سنة 1930.

من نافذة إلى أخرى، تتجوّل هاروكو ويداها في ثنايا ثيابها، وتتأمّل سطوح طوكيو: ”مجرد ضيعة. طوكيو تشبه صندلاً خشبياً مقلوباً. بل صندلاً خشبياً قذراً، مثل قرية قُلب عاليها سافلها[59]“.

59 كانت معظم المباني في طوكيو خشبية واطئة في زمن كتابة هذه الرواية، وكانت بناياتها العالية معدودة وتقتصر على مركز المدينة.

– قلتِ قرية؟ أحسنتِ.

ويحتضنها أحد الرجال ويقبّلها.

الرجل رقم اثنين يقبّلها من دون كلام.

الرجلان الأخيران ينتظران دوريهما بهدوء ثم يقبّلانها أيضاً.

وفي هذه الأثناء هاروكو واقفة هناك، عيناها مغمضتان، ويداها في ثنايا ثيابها: ”عروس برج أساكوسا، هذه أنا. هل لديك طلاء شفاه أحمر؟“.

37

”هل لديك طلاء شفاه أحمر؟“، عندما تستفسر هاروكو، تضغط البنت الصغيرة أنفها على الشبكة المعدنية للنافذة الغربية. هذا لأن ولد القارب يرنو إلى شفتيها الحمراوين ويده على كتفها.

من النافذة الغربية – مكتب البريد في أساكوسا مثل حاوية قمامة مقلوبة على جانبها. الحروف الذهبية لليافطة الكبيرة لسكاكر كاميناري. بلدية أساكوسا. معبد دنبوين. شارع أساكوسا – زينة المحلات في تنزيلات نهاية السنة تذكّركم بمهرجان الخنفساء. السيارات وعربات الترام تسير على امتداد الجادة الرئيسية، أعلام الاحتفال باليوم الأول للمجنّدين الجدد في الجيش، معبد سنشو الإسمنتي في نهاية الشارع، سطحه النحاسي كامد البريق يلوّنه المغيب. على الجهة اليمنى من شارع أساكوسا، أسطحة المحلات في سوق ناكاميسه وحي دار السينما. على الجهة اليسرى، مركز الهاتف ودورة مياه عمومية كبيرة. مخزن أوينو ماتسوزاكايا. محطة أوينو. مبنى غابة أوينو الرمادي والدخان الأبيض للقطار. المتحف الإمبراطوري. قاعة ياتسودا في الجامعة الإمبراطورية ومكتبة الجامعة. كاتدرائية نيكولاي. ضريح ياسوكوني. القصر الحكومي المشيد حديثاً. ويعلو هذا البحر الواسعَ من مباني المدينة، في الصباحات والأماسي الصافية، جبلُ فوجي بكامل بهائه.

كما لا يخفى التقبيل عندهم كالتصفير.

الرجل الرابع يرتدي طقماً قطنياً مخمليّ الزغب من دون قبعة، وينتعل صندلاً عالياً ثقيلاً مصنوعاً من خشب المغنولية، وعلى جبينه واقٍ من الشمس بلاستيكيّ أزرق يخفي وجهه. منهياً تقبيل هاروكو، يخاطب ولد القارب: ''هيه، يا ولد، أي خبر من جِنكو صاحب البسكليت؟''.

– أوه، أوه، إنه يحرس الكوريناي–مارو. ولكن نافذة المقصورة مغلقة، ولهذا ليست لديه أي فكرة عمّا يدور في الداخل. أعطى يوميكو الإشارة لكي يرسو على الضفة في أقرب وقت ممكن.

– آه، إذن هذا هو السبب في ذهاب القارب إلى جسر كوتوتوي.

ويلتفت الرجل ولا يزال على عينه منظار صغير ذو عدسة واحدة. أسفل بنطلونه الهاكاما مطويّ ويلبس رداء إنفرنس، فيبدو مثل طالب جامعي، رغم أنه يرتدي قبعة صيادين على شاكلة الكثير من الباعة الشبّان.

رجل آخر منهم يرتدي طاقية مدرسية. ثم هناك صاحبهم الذي يبدو مثل شابّ غندور من وسط المدينة.

– ولكن اليوم، هنا بالضبط، وجدتُ رسالة من أكيكو.

''رسالة؟''، ويلتفت أربعتهم مندهشين، متسائلين إذا لم تكن الورقة التي كانوا قد رموها.

أرى الدهشة في عيونهم فألتفت صوب النافذة الشمالية وأنظر إلى الجهة التي ينظرون نحوها – فتحات التهوية على سطح البرج وأعلام من أرجاء العالم. شارع ناكاميسه. الدلفين الذهبي على سطح مطعم إيماهان. بوابة نيو. الغربان. معبد الأسطحة الخمسة – وحدها أحجار السطح الأعلى خضراء. شجرة الجنكة الكبيرة مليئة بالأوراق الميتة. قاعة كانّون قيد الترميم. منذ مطلع ديسمبر، سقفوا بالتوتياء معبرَ المشاة المفضي إلى المدخل وأحاطوا المعبد بسياج من الخيزران. وعند مكتب الاستعلامات، تستطيعون، أيها القرّاء الأعزّاء، أن تقرؤوا اللافتات الخاصة بترميم القاعة الرئيسية: هذا الصرح عرضه 6.48 متر، وطوله 3.51 متر، وارتفاعه 3.36 متر، وسيُستخدم فيه 5000 جذع من جذوع الأرْز تتفاوت أطوالها بين 9 و17 متراً، و 70 متراً مكعباً من أخشاب البناء المستطيلة، وكذلك 4000 لوح متموّج من الصفيح. ثم هناك بستان أشجار أيبسها الشتاء في باحة المعبد. يوشيوارا. خزّان سنجو للمحروقات. غيوم الشتاء الخفيضة في السماء المدلهمّة عند الطرف الغربي لطوكيو.

'''السحاب خفيف في الصباح، كثيف في المساء...'، ما معنى هذا بحقّ الجحيم؟''، يحدّق الرجال بقطعة الورق التي استلّتها هاروكو من كمّها.

– هذه شفرة سرية. ولكن، كما تعلمون، ليست لدى أكيكو أي فكرة عن قدومنا جميعاً إلى هنا اليوم.

– ألم يجبر أحدُهم أكيكو على القدوم إلى هنا؟

– لا. ربما أتى شابّ غريب ورمى الورقة هنا.

"يا ولد القارب"، يقول صاحبهم ذو الطقم المخملي بنبرة آمرة، ناظراً إلى الوجه الخلفي للورقة. "انزلْ إلى المطعم وسخّن هذه الورقة على الموقد، فإذا ظهرت كلمات، عُدْ إلى هنا فوراً. مفهوم؟ انتبه وكُن حذِراً".

"يا سيّد، لو سمحت، أعطني خمسة صنّات. من أجل القهوة"، يمدّ ولد القارب يده باتّجاهي، ويقول للبنت الصغيرة بجانبه: "معه نقود!".

"تلك هي طبيعة الأمور"، يخبرني الشابّ الذي يعتمر قبعة صيادين. "ليلة أمس، وقعت مشكلة كبيرة في بيت يوميكو، وقد بلغنا الخبر هذا الصباح. كان عليها أن تغيب عن أساكوسا اليوم لأن الوضع خطير جداً. ما كان ينبغي أن تركب القارب مع أكاجي العَفِن، ولأننا قلقون عليها، فنحن نواصل المراقبة. خلسة طبعاً، لأنها تحاول أن تلعب دور الشجاعة".

"هيه، انظروا!"، صاحبهم ذو المنظار يصيح من النافذة. "هناك، إنهم يجرّون أكيكو من القارب، صدره يلوح. كُمُّ معطفه الأبيض أحمر! الدمّ!".

– هل هم شرطة النهر؟

يدنو زورقٌ بخاريّ أبيض سريع، تترجرج على المياه ظلالُ جسر كوتوتوي.

38

يدنو زورق بخاريّ أبيض سريع، تترجرج على المياه ظلالُ جسر كوتوتوي.

إلى هنا وصلتُ في كتابتي. صحيح. من فبراير إلى يوليو تركتُ ”حكاية عصابة الحزام الأحمر“ جانباً.

”كُمُّ المعطف الأبيض أحمر! الدمّ!“، صاح هذه الجملة صاحبهم المراقب بالمنظار من برج مطعم المترو. أما يوميكو ذات المعطف الأبيض، فقد احتجزوها في مقصورة القارب. عليّ استئناف القصّة من هنا.

لكن الضباب حينذاك، في شتاء 1929، كان يغطّي نهر أوكاوا عند المغيب. كانت تنزيلات نهاية السنة قد بدأت في الشوارع. نحن الآن في 1930، وها قد بدأت التنزيلات الخاصة بِعيدِ أوبون [عيد الموتى] في منتصف يوليو. لكنّ باعة الخنافس والحباحب، في ساعات الليل في حديقة أساكوسا، لم يلحقوا بدورة الفصول، وتأخّرت بائعات الورد مثلهم في الظهور هذا الصيف.

باقات الأزهار التي تبيعها الفتيات بجانب الطريق متأخرة عن موسمها في الشطر الأعظم منها، ولكن، أيّها القرّاء الأعزّاء، هل سبق واشتريتُم أزهاراً في أساكوسا؟ ما من أزهار أخرى مثلها تتساقط بتلاتها بهذه السرعة.

”ربما عليّ بيع الزهور أيضاً، ولكن وفق موضة غينزا“، تقول هاروكو.

– تعلمين سلفاً أن هناك فتيات يبعن الأزهار وفق موضة غينزا. وراء مسرح توكيوا ومسرح الحديقة.

– آه، هل اشتريتَ الأزهار منهنّ؟

– لا تكوني سخيفة.

– تعلم أنهن لا يبعن الزهور. سمعتُ أنهن يدسسن في باقاتهن بطاقات بأسمائهن والعناوين. يكتبْن عليها: دعنا نلتقي في الساعة الفلانية في المكان الفلاني.

– ويبعن أزهاراً تتساقط بتلاتها سريعاً. أتساءل أين يمكنني أن ألتقيهنّ؟

– أوه، على مهلك. تلك الأزهار. تغرز نكاشة أسنان في الزهرة من الأسدية حتى السويقة. إنها تثير اهتمامك من النظرة الأولى، ثم تبتسم عندما تنظر إليها مرة ثانية، وعندما تراها في المرة الثالثة

يخفق قلبك. ربما تُستخدم الحيلة نفسها في محلات المزوّرين. أساكوسا ميدان التزوير. لا بأس بالتُّحف المزيّفة التي تُباع هناك. أما الصور الفوتوغرافية، ففظيعة. هناك صور لنجمات سينما صاعدات بلباس السباحة، ولكنهن في الواقع مجرد فتيات جميلات عاديات خلعن ثيابهنّ. والصور ''الأصلية'' لفتيات بريئات مهدّدات بالأخطار ليست في الحقيقة إلا لقطات من فيلم ساموراي. وصورة كانيتشي يرفس أوميا على شاطئ آتامي مصبوغة بألوان فاقعة. وعرائس البحر اللواتي لا يرتدين إلا الجوارب ليست إلا صورة جماعية من أحد دروس الرياضة في مدرسة للبنات. إذا هززت باقات البائعات، تساقطت أزهار ذابلة وصور من الأفلام أو صور مقصوصة من مجلات الموضة. أما كتبهنّ، فالحديث عنها يطول. كتب رديئة كثيرة جداً، تلك الكتيّبات التي غالباً ما تُرفق مع المجلات النسائية. يُلصق إلى أغلفتها ورق أبيض يشفّ عن العناوين تحته، وتستطيع أن ترى بوضوح: ''دليل الحياكة والحرف اليدوية'' و''الدليل السهل إلى الطبخ الغربي والصينيّ''... كل هذه البضاعة المزوَّرة تُعرَض بتغليف أنيق والمحتوى فارغ. مثل الروايات، ألا تظنّ ذلك؟

– مثل عروض المنوَّعات في أساكوسا بالضبط.

''على الشاكلة نفسها. ولكن إذا وخزتَ الجسد العاري لفتاة حية فسيخرج دم أحمر حقيقي''، تقول هاروكو وتنفخ في ثمرة الهوزوكي[60] الصغيرة الشبيهة بالقنديل بين شفتيها، فيصدر صوت كنقيق ضفدع.

[60] الهوزوكي نبتة ثمارها تشبه الفوانيس وذات بذور، كانت تباع في أساكوسا حوالى العاشر من تموز/ يوليو. كانت تستخدم للزينة ومعالجة بعض الأمراض، ويحوّل الأطفال قشورها الفارغة إلى صفّارات.

9 و10 يوليو هما اليومان المباركان لكانّون في أساكوسا. إذا كنتم مؤمنين بكانّون، أيّها القرّاء الأعزّاء، فإليكم أيامها المباركة:

1 يناير (يُعادل مئة يوم)

28 فبراير (يُعادل مئة يوم)

4 مارس (يُعادل تسعين يوماً)

18 أبريل (يُعادل خمسين يوماً)

18 مايو (يُعادل مئة يوم)

18 يونيو (يُعادل خمسين يوماً)

9 و10 يونيو (كل يوم منهما يُعادل ستة وأربعين ألف يوم)

24 أغسطس (يُعادل أربعة آلاف يوم)

20 سبتمبر (يُعادل ستة آلاف يوم)

19 أكتوبر (يُعادل ألف يوم)

7 نوفمبر (يُعادل ستة آلاف وستين يوماً)

19 ديسمبر (يُعادل أربعة آلاف وستمئة يوم)

على سبيل المثال، لو زرتُم المعبد يوم 9 يوليو، على منوالنا هاروكو وأنا، فسوف تتلقّون من النعمة ما يعادل ستة وأربعين ألف زيارة. وإذا زرتموه في الأيام المباركة ثلاث سنين وثلاثة شهور من دون أن تفوّتوا يوماً واحداً، فسوف تضمنون البركات الإلهية: "تلبية الأمنيات كلها، الشفاء من كل داء، رفاه البنين والأحفاد، بلوغ العائلة بأكملها قداسة النيرفانا".

لن يعلم الفانُون أبداً كيف تقرّرت هذه الأيام المبارَكة وكيف تمّ التوصّل إلى هذه المعادلات، أما الجهلة الذين يتردّدون على المعبد ويصلّون في باقي الأيام، فحمقى مخدوعون. ولهذا سترون قاعة كانون التي تغلق أبوابها عند المساء، حتى في ليلة رأس السنة، مزيّنة بالكامل في أيام النعمة التي يعادل كل منها ستة وأربعين ألف يوم، وتستقبل الزوار حتى وقت متأخر من الليل.

هناك أيضاً سوق الهوزوكي. إنه مليء بنباتات الهوزوكي المعلّقة بالمقلوب. ألا يبدو الجو صيفياً بعدما انتهى موسم الأمطار؟ تستطيعون أن تسمعوا الرعود في التعاويذ التي تمنع الصواعق وتُباع في هذا اليوم[61].

61 المقصود أوراق عرانيس الذرة التي يقال أنها تقي من الرعود والصواعق.

39

موكب من الحجاج الآتين من بحار الجنوب يفزع الحمائم صباحاً في معبد سنسو. هذه مجموعة سياحية.

امرأة كورية تمشي حافية على الإسفلت، وقد رُبط طفلٌ إلى خصر تنورتها الكورية البيضاء بحزام أسود وفق الطريقة الكورية، وحذاؤها القماشي يتدلّى من يدها. في ليلة واحدة، يمرّ عدد كبير من نساء شبيهات أمام مسرح شوشيكو في شارع ماتسوكيو.

أربعة أطفال صينيين يلعبون لعبة المطاردة تحت أفاريز مسرح شوشيكو الذي أطفأ أضواءه للتوّ. لأربعتهم جدائل خلف رؤوسهم. يتنادون ويتراكضون مثل القرود حول القضبان النحاسية للبوابة أمام كشك التذاكر، وكل منهم يحاول الهرب. المحلات مغلقة. هناك الباعة المتجولون الصغار الذين

يذهبون إلى المقاهي في القسم الخلفي لأساكوسا وصولاً إلى المنطقة المحيطة بيوشيوارا، ليبيعوا أوراق الفأل والتعاويذ والفاصولياء والحبّار المجفّف. سيبدأ البيع بعد قليل. يأتي إلى المقاهي في المساء الواحد حوالى أربعين أو خمسين ولداً من هؤلاء، يابانيين وكوريين وصينيين، وستميّزون الصينيين منهم من الفور حين ترون جدائلهم.

بغتة، تلوّح هاروكو بيدها وتنادي فتاتين بيضاوين آتيتين من ورائنا وهما الآن تمشيان أمامنا: "فاريا!".

من هنا فصاعداً، أيّها القرّاء الأعزاء، سأسلِم القيادَ لهاروكو. بتعبير آخر، في النسخة السينمائية من "عصابة الحزام الأحمر في أساكوسا" المنجزَة أخيراً، ماتت يوميكو في ختام الفيلم. كانت قد دسّت في فمها على متن الكوريناي–مارو ستَّ حبات زرنيخ عيار الحبة الواحدة منها خمسة ملغرامات.

"فاريا!" والفتاتان اللتان تناديهما هاروكو تحثّان المشي في الشارع وصندلاهما يطقطقان، مسرعتين مثل مُهرتين جامحتين، فيعصف عطر الغواية.

الفتاتان تصفّران، وقد شبكت إحداهما ذراعها بذراع الأخرى، رأساهما حاسران وسيقانهما عارية، وكلتاهما ترتدي فستاناً رقيقاً أحمر كفساتين الرقص ولا شيء آخر تحته، كأنهما تتعمّدان اللامبالاة بأصحاب البشرة الملوّنة الذين ينظرون إلى بياض لحمهما وتستهزئان بشهوانية اليابانيين.

– هؤلاء القِحاب المستورَدات فخورات! يتصرّفن كأنهن صاحبات المكان.

"لا أعرف السبب، ولكن في الآونة الأخيرة، ازدادت أعداد هؤلاء الأجنبيات إلى حدّ مقلق في الحديقة. سمعتُ أحدهم يقول إن هذا المكان قد يتحوّل، عاجلاً أم آجلاً، إلى بؤرة عالمية للعصابات. لا، لا. اعذرني على التفوّه بهذه الحماقات"، تقول هاروكو ملوّحةً بيدها مرة أخرى كأنها تودّع ركّاباً على رصيف النهر: "ميرا! فاريا!".

يا لدهشتي! الفتاة الأطول تستدير، وبرؤوس أصابعها ترفع قليلاً فستانها القصير، ثم تنحني احتراماً وترسل لنا قبلة في الهواء.

"آه، كم أكره هؤلاء الفتيات الأجنبيات"، وتشيح هاروكو بوجهها متأفّفة. "تلك الصبية، عمرها ستة عشر عاماً فقط. جميلة حقاً وساقاها طويلتان. حتى النساء يرغبن في النظر إليها. كل ما تفعله منذ وصولها إلى هنا هو القليل من الرقص الياباني الذي لا تجيده. أما الراقصات اليابانيات، فخصورهنّ ضامرة كالفتيات الصغيرات. لا شيء عارماً فيهنّ. يابسات. سمعتُ أن الأخت الكبيرة، ميرا، عمرها ثمانية عشر عاماً. إنهما تستقلان الترام من بوابة كاميناري إلى البيت مباشرة، ولهذا

انسَ. عليك الذهاب لتسأل تسوجيموتو عن فتيات أخريات. سمعتُ أن لديه بضع فتيات بيضاوات أعمارهنّ خمسة عشر أو ستة عشر عاماً. سمعتُ أنه يُطْلقهنّ في شارع ناكاميسه، فيتظاهرن بالطبع أنهن راقصات استعراضيات. أما هاتان البنتان، فلهما أخت تصغرهما عمرها أربعة عشر عاماً وأخت أخرى تكبرهنّ عمرها واحد وعشرون عاماً، وأربعتهنّ يرقصن معاً في مسرح مانساي، ويسمّين أنفسهن الأخوات دانيلفسكي".

تلمع الأفخاذ العارية للراقصات الروسيات بيضاء شفافة، مدهونة بزيت معطَّر، وحين يقرعن بكعوبهنّ العالية إسفلت الليل، تلوح هذه الأفخاذ صلبة نضرة كنباتات الهوزوكي اليانعة. إنها تعلن الصيف وتلخّصه، أكثر بكثير من الأقدام العارية للفتيات اليابانيات التي تظهر تحت أطراف اليوكاتا. وعلى الخشبة، تقطر الراقصات الروسيات عرقاً يراه الجمهور يسيل تحت بياض مساحيقهنّ.

في مطلع يونيو المنصرم، أي منذ شهر، كانت هارونو يوشيكو ترقص في مسرح الدنكيكان وأقلقها تعرُّقها. أخبرتني أن عرقها كان ينضح أكثر كلما حاولت السيطرة عليه.

بالمناسبة، عندما قامت يوميكو باستدراج أكاجي على متن الكوريناي–مارو، كانت سيقان الراقصات في الأكواريوم مثل زجاج أحمر بسبب البرد. لقد انقضت قرابة سبعة شهور منذئذ، أيّها القرّاء الأعزّاء، وعليّ الاعتراف لكم أن محاولة وصف الحياة خلال تلك الشهور السبعة الماضية في أساكوسا ضربٌ من المستحيل، أصعبُ من الإمساك بشعاع شمس السنة الفائتة.

والآن، بجانب مخفر ماتسوكيو للشرطة، تستلّ هاروكو من حزام الكيمونو واحدة من أوراق النذور التي وضعتها الفرقة الحمراء، كما لو كانت تستخرج ورقة مغمّسة بالمساحيق البيضاء.

– حسناً، سأودّعك الآن. طلب مني هيكو الأعسر المقيم في جوكو بعض الأشغال العويصة. لست واثقة بمقدرتي على الإطلاق، ولكن يجب أن أبذل قصارى جهدي لأن أعرافنا في أساكوسا تقتضي العيش بأي ثمن! مع السلامة.

جوكو تعني شينجوكو.

جماعة الزنّار الأحمر

40

يقع مخفر الشرطة عند تقاطع شارعَي أساكوسا وماتسوكيو. إنه إلى يساركم عند الخروج من هونغانجي البوابة الخلفية لأساكوسا، غربيّ موقف الترام تاواراماشي. يمكنكم القول إن المدخل الرئيسي إلى أساكوسا هو بوابة كاميناري شرقاً، وشارع ماتسوكيو غرباً.

أمواج الناس التي تغمر أساكوسا تقارب مئة مليون إنسان في السنة، والأموال التي تضخّ سنوياً في العروض والألعاب والمطاعم وبيوت الغيشا تبلغ حوالى 6.12 مليون ينّ (على الأقلّ، وفق الإحصاءات)، ويقال أن دكّان التبغ عند المدخل الغربي جنى ذات مرة مئتي ين في يوم واحد.

ثم تراجعت المبيعات في دكاكين التبغ تراجعاً حادّاً مفاجئاً، لأن الطريق الجديد يفصلها حالياً عن الحديقة. لقد حوّلت وزارة البناء والإسكان، ومكتب الإنشاءات وشقّ الطرق في المدينة، ازدهارَ تلك التجارة إلى ذكرى من الماضي. الطريق عريض، وعلى مَن يفكر في شراء التبغ أن يقطع مسافة طويلة. الزحام شديد على الجهة الأخرى من الشارع، حتى أن الناس لا ينتبهون إلى الفتيات الروسيات وهنّ يتمشّين هنا بخطوات واسعة.

"أظنّ أنّ بطاقتك حمراء هذا المساء"، أقول، ناظراً إلى ورقة النذر في يد هاروكو، ونحن على رصيف الجهة الخالية من الشارع.

– آه، تذكرت. لم يتبقّ عندي غير البطاقات الحمراء! لقد استخدمت الخضراء كثيراً، ها أنت ترى كم أنا متهتّكة وألاحق الشبّان!

هذه البطاقات ذنوب تُغتَفَر لدى عصابة الحزام الأحمر، دُعابة من ذاك الصنف الدارج في الأحياء الشعبية وسط المدينة. تكون أحياناً بمكانة بطاقاتهم الاسمية أو هوياتهم الشخصية أو علامات إنذار.

هناك بطاقات حمراء وأخرى خضراء من ورق سميك كالورق المستخدم في صناعة الأبواب، صغيرة يستطيعون إخفاءها في راحة اليد، وعليها ثلاث كلمات "فرقة أساكوسا الحمراء" مطبوعة بأسلوب كانتاي في الخط. تعتمد خطّتهم مبدأ إشارات المرور.

على سبيل المثال، فلنفترض أن هاروكو قد اصطادت رجلاً وأخذته إلى حلويات ميجي الفاخرة أمام بوابة كاميناري. سترمي بطاقة خضراء أمام باب المحلّ. فيلتقط الإشارة أحدُ رفاقها المارّين هناك ويسلب الرجل نقوده.

لكنهم لا يعرفون أبداً أيّ صنف من الناس سيلتقون، ولا أين أو متى أو كيف سيلتقونهم. ولهذا يخاتلون ويلصقون بطاقة حمراء إلى جدار مطعم صيني قذر عندما يصادفون شخصاً مريباً. هكذا تمتلئ الطرقات المؤدية إلى تلك المباني المعتمة الشاغرة بالبطاقات الحمراء. إنها علامات إنذار أو نداءات استغاثة.

إذا اختفتْ إحدى الفتيات، فإنهم يسألون الشحاذين أولاً: "هل رأيتم ورقة مثل هذه سقطتْ هنا؟". يسألون المتشرّدين الذين يتزاحمون أمام المطاعم في وقت متأخر من الليل أو في الصباح الباكر، ويقايضونهم الجواب ببقايا المأكولات.

– في الحقيقة، لا تفيدني البطاقات الحمراء كثيراً، ولكن لا بد من إيفاء الدين لجماعة الزنّار الأحمر القديمة. قلتُ سأخبر هيكو بالقصّة عندما أرى أولئك الشبان من نادي إيما[62]. لن يعرفهم لأنه قادم للتو من جوكو. سأتجوّل مع هيكو وأشير إلى وجوههم، واحداً واحداً. هذا مضجر حقاً. ربما أستطيع أن ألصق البطاقات الحمراء إلى ظهورهم. سيبيع هؤلاء الشبّان الحيوانات من نادي إيما لحومَهم والدمغات الحمراء على جلودهم.

62 نادٍ لهواة الفن وجامعي اللوحات، كان بعض أعضائه يمارسون الدعارة. تعني "إيما" لوحة خشبية صغيرة يعلقها الزوار إلى الأضرحة المقدسة. معظم هذه اللوحات تحمل صور حيوانات، ولا سيما الحصان، كصلوات تُرفع إلى الآلهة على أرواح الخيول النافقة في الفيضانات والقحط والكوارث الأخرى.

– ولكنك تزاولين عملاً خطيراً ولا تنالين شيئاً؟

– خطير؟ ما الخطر فيه؟ ها أنت ترى، أنا مجرد فتاة بسيطة. لست قبيحة ولا أخون العهود لكي يضربني الرجال.

تضحك هاروكو حتى يرتجّ كتفاها.

– انظُرْ هناك، الطابق الأول.

فستان مزيَّن بالزهور يتدلّى من خطّاف مشجب على الجدار. وكذلك قبعة سيدة مع وردة حمراء كبيرة.

نزُل يامابون القديم. الطابق الأول من هذا المبنى الياباني المتداعي مقابل مبنى غربي الطراز. امرأة بيضاء تجلس على كرسي من الخيزران وسط حصُر التاتامي، وعلى ركبتيها طفلة عمرها حوالى عشر سنين.

– سيني رينتارا ولِين رينتارا، مغنيّتان وراقصتان من فنلندا. تعملان في مسرح تايكو.

إنهما على مبعدة ثلاثة بيوت أو أربعة من دكان التبغ الذي كسدت سجائره. أمتعتهما قليلة بائسة. وحدها الملابس زاهية.

41

''جماعة الزنّار الأحمر القديمة''، هذا ما قالته هاروكو، ولكن ''القديمة'' لا تعني في الواقع زمناً بعيداً.

أيّها القرّاء الأعزّاء، تتذكّرون بالتأكيد ذلك الصيف الذي تفشّت فيه موضة زنانير الكيمونو الحمراء الأرجوانية.

كانت بائعات المحلات وعاملات البريد والهاتف وفتيات الأحياء الشعبية وسط البلد يتفقّدن بسطات الليل، لأنهن على الخصوص كنّ يعشقن هذا النوع من الزنانير. كان اللون الأحمر الأرجواني يشي بسوء السمعة.

وقتذاك في أساكوسا، كانت هاروكو تضع زناراً أحمر. كانت هناك عصابة فتيات تدعى ''جماعة الزنّار الأحمر''. وفي الوقت نفسه، كانت موضة الزنانير الحمراء قد درجت في كل مكان. طغى سحرها على الفتيات. لم تقتصر جماعة الزنّار الأحمر على أساكوسا، بل امتدّت فروعها إلى نواحي طوكيو الصاخبة وأحيائها كافة. انتسبت فتيات كثيرات إلى الجماعة، إذ كان كل ما يلزم للانتساب هو شدّ الكيمونو بزنّار أحمر لا غير. لم يكن هذا الزنّار حكراً على الجماعة، لكن الاسم وحده كان كفيلاً بإغراء فتيات عديدات.

وقبل كل شيء آخر، احذروا الموضة، أيّها القرّاء الأعزّاء، حرصاً على بناتكم. وأنتم الفطنون، أيّها القرّاء الموقّرون، قد تستهزئون بالفتيات المنتسبات إلى جماعة الزنّار الأحمر، ولكن هل تدركون مدى سذاجة الفتيات في حديقة أساكوسا، وهل تعلمون سهولة استغلالهنّ وبيعهنّ؟

''لا بد أن تخمد هذه الفورة مع بداية الخريف. لا يمكنك أن ترتدي زنّاراً كهذا طوال الوقت''، قلتُ لهاروكو أخيراً.

– نعم، تلك هي المشكلة. ولهذا فكّرنا في ارتداء زنانير سوداء مطلع الخريف – زنانير من ساتان أسود.

كما كانت هناك، وقتذاك في أساكوسا، عصابة صبيان تُدعى ''جماعة الحزام الأسود''. وفضلاً عن ذلك، كان الكثير من عشّاق فتيات الزنّار الأحمر منتسبين إلى تلك العصابة.

– كانت صاحبة الاقتراح هي أويتو ذات الشعر المصبوغ. كانت أويتو هذه مثالَ الأخت الكبيرة الذكية، وهي تغنّي الآن مع فرقة إيرو–إيرو للرقص في مسرح نيهون: "ذاهبة إلى شيمباشي في آزوما، قدماي عاريتان، صندلي من خشب". كان عمرها حينذاك ثمانية عشر أو تسعة عشر عاماً. كان زنّار الساتان الأسود يليق بها، ولكن هذه الزنانير لا تناسب بالضرورة جميع الفتيات. بعضهنّ تذمّرن. عصابات الفتيات لا حول لها ولا قوّة. هذا ما تدركه فتاة غبيّة مثلي، تتعيّش على ضعف النساء، وتتدبّر أمورها بأقلّ ما يمكن من المشكلات. قبول حقيقة هذا الضعف ينتهي باللامبالاة. كان الأولى بيوميكو وأويتو الاقتداء بي.

– أخيراً، تكرّمتِ بتقديمي إلى أويتو. ولكنها رجَتْني أن أتركها وشأنها، لأن التجوّل معي مجازفة خطيرة.

– فإذن اتركها وشأنها. إنهن، كما تعلم، مختلفات عن عصابة الحزام الأحمر. يُقال أن الدمَ انهمر كالمطر في تلك الأيام، عندما تمشّت أويتو في أرجاء الحديقة وشعرها المصبوغ مسترسل[63]. ولمّا كنتُ أفكّر أنني لم أرَها منذ مدّة، سمعتُ أنها قد أصبحت بائعة في مخزن كبير. أعتقد جازمة أنها قد رجعت إلى الرقص لأنها جنَتِ الكثير من المال. أجزم لك مئة بالمئة. إنها تستدرج البائعات الصغيرات الساذجات كقوّادة عجوز.

63 كان الشعر القصير أو المسترسل مثيراً ويملأ الدعايات، وقلما شوهد لدى النساء في الحياة اليومية خلال الثلاثينيات.

المخزن الكبير في أساكوسا... هل تعتقدون، أيّها القرّاء الأعزّاء، أن خيال هاروكو قد شطح بعيداً؟ هناك جماعة سرّية من شينكون في هونغو، على الطرف الآخر من أوكاوا، حضورها راسخ في أساكوسا. أعرف اسمها، لكنني لا أستطيع الكشف عنه وكتابته هنا. سمعتُ أن الكثير من أعضائها بائعات في المحلات الكبيرة. دلّني أحد أعضاء عصابة الحزام الأحمر إلى أحد هذه المحلات، محدّداً الطابق وطاولة البيع. ذهبتُ إلى المحلّ لأرى أولئك الفتيات، ولمّا اقتربتُ منهن، انتابني أسف شديد عليهنّ منعني من النظر إليهنّ وأنا أعبر. هذا مثال واحد فقط. ولكن لا صلة تجمع بين هذه الجماعة وأويتو.

أنا متأكّد، أيّها القرّاء الأعزّاء، لستُم سُذّجاً لتحسبوا أشياء من هذا القبيل هراء محضاً. بإمكانكم العثور على وجوه أخرى لهذا العبث في "دراسة حول عالم أساكوسا". فمثلاً، هالَني أن أقرأ عن أساكوسا والفتيات اللواتي كنّ يعملن في معامل الحرير في شينشو[64].

64 الاسم القديم لناغانو. المدن والبلدات الواردة أدناه تقع في الجبال شمال اليابان.

"نهاية معامل الحرير في شينشو؟"، لعلّكم، أيّها القرّاء الأعزاء، قد قرأتُم هذا العنوان العريض في الجرائد يوم 13 أو 14 يوليو. أكثر من ثلاثمئة مصنع حرير في مقاطعة سوا – نواحي شيموسوا، أوكايا، ميناتو، كاواغيشي، كونان، كاميسوا، مياغاوا، تاماغاوا، آيمي، ناغازاكي – أقفلت أبوابها دفعة واحدة جرّاء الانخفاض الحادّ في أسعار الحرير. وسرعان ما عمّتِ الظاهرةُ شيزوكا وياماناشي وأرجاءَ البلاد كافة.

حوالى مئة ألف فتاة عاملة في هذه المصانع غدونَ عاطلات عن العمل.

إلى أين ذهبن؟ ربما بعضهنّ عُدنَ إلى قُراهُنّ وبلداتهنّ في المناطق النائية أو الجبال، وأخريات انضممن إلى صفوف النضال ضد الرأسماليين. لكن هذا لا يمثّلهن جميعاً. الأخريات استقبلهنّ القوّادون بالأحضان في أساكوسا.

العفَن والحفلات

42

بركة هيوتان داكنة الخضرة. والسبب أشنيات خضراء تتكاثر صيفاً كالعفن في المياه الراكدة. إذا صعدتم على مقربة من الضفة، وعبرتم أجمة من الشجر معتمة الظلال، فستبلغون بقعة أرض فسيحة.

الثانية صباحاً. عشرون رجلاً يقرفصون على الأرض في دائرة أمام المقاعد. وإذا نظرتُم عن كثب، لرأيتُم سلطعونات صغيرة أيضاً. يربط الرجال أسلاكاً إلى السلطعونات يمسكونها بكلتا اليدين ويحاولون الدفع بها لتتعارك بملاقطها. السلطعونات تبيضّ من الغبار. لا تحرّك ساكناً، وملاقطها المتراخية تتدلى. يتوقّف شرطيّ ثيابه كلها بيضاء ويستطلع الأمر. بابتسامة ساخرة، يستأنف المشي ويبتعد.

"هيه!"، ينادي صاحب لا يزال واقفاً، يرتدي طقماً من صوف ألباكا وقبعة بنما مزيّفة.

– ماذا؟ هل وجدت عملاً؟

– حسناً يا معلّم. ذهبتُ حتى وصلتُ إلى شيباورا، ولكنني لم أجد أي عمل. ولهذا ألاعب هذه السلطعونات هنا. تعال وتفرّجْ في الصباح. سيفرح الأطفال.

– هممم...

يرفع الرجال المتحلقون حول الدائرة رؤوسهم في اللحظة نفسها، فيبدو على صاحبهم الواقف شعورٌ طفيف بالزهو، بينما الشرطي في لباسه المدنيّ الأبيض يفتح مروحته الورقية ويغلقها، مواصلاً جولاته بين مقاعد الحديقة. وفي أيامنا، جرياً على العادة القديمة، يتعيّن على جميع المفتّشين الشبّان أن يتبادلوا كلمة أو اثنتين مع المخضرمين في الحديقة. لكن هناك عدد كبير من المشرّدين الوافدين الجدد للنوم في الهواء الطلق، فلا يستطيع هذا الشرطيّ تمييز وجوههم جميعاً، وإنْ بدت هذه الملاحظة وقحة.

– الذباب، بق الفراش، قطط مريضة، أحصنة مصابة بضربة شمس، رجال ونساء، بارات مزدحمة إلى حدّ الدوار، عروض في الشارع. الصيف.

– الصيف سِيرك. نعم، إنه سيرك. ففي الصيف كل شيء ممكن. معظم الناس يقضون الشتاء كله داخل بيوتهم. أما صيفاً، فالحياة تنبض في هدير الشوارع.

وهكذا، في الصيف، تتحوّل مقاعد الحدائق وعتبات المحلات إلى أسرّة من الجنّة. باعتقادي، لا يوجد فندق آخر في اليابان كلّها يحوي عدداً من الأسرّة يضاهي العدد الضخم المتوافر في رحاب أساكوسا صيفاً.

يُقال أنه من المستحيل إحصاء عدد المشرّدين في أساكوسا حتى لو استخدمتم مِعداد الخرز.

على أي حال، لا يمكنكم فعلياً أن تعتمدوا الإحصاءات الحكومية. فإذا جرى التحضير لاستبيان رسميّ أو شيء من هذا القبيل، نمى الخبر إلى المشرّدين قبل البدء به، فيتوارون ولا يتركون أثراً يدلّ على مكانهم. ولهذا لا أحد يستطيع الجزم إنْ كان عدد النزلاء في هذا الفندق خمسمئة أو ثمانمئة أو أي رقم آخر. لكنّ عددهم يبقى كبيراً هذا الصيف.

لا يجوز القول إنهم يتكاثرون فجأة كالأشنيات في بركة هيوتان. لا حاجة بكم إلى السؤال عن السبب. عندما سُرِق غمد السيف في تمثال دانجورو، ألم يلقِ الصحافيون اللوم على الركود والأزمة الاقتصادية؟

"أطفال سيئو التغذية"، "انتحار عائلي"... مثل هذه التعابير الغريبة ليست جديدة عليكم، أيّها القرّاء الأعزّاء. "الركود" و"الإيروتيكية" – لم يكن الصحافيون يكتبون إلا عن هاتين الكلمتين سنة 1930. قصص الناس أثناء الركود مضجرة ولا تُحصى. هكذا إذن: "الركود يقتل الناس وبوذا على السواء".

استقصيتُ التبرّعات إلى معبد كانّون في أساكوسا. المفارقة ازديادها بسبب الركود. هذا يشهد على طبيعة الناس ونياتهم، ولكن في السنة الماضية. غنيّ عن القول إن التبرّعات هذه السنة شحيحة ولا تستحقّ الذكر.

نُشرت مقالة، تحت هذا العنوان العريض "بوذا حزين ويعاني انتكاسة"، مكتوبة عن الجمود العامّ لمبيعات الهدايا وتقدمات النذور خلال عيد أوبون. هذا صحيح في أساكوسا بالتأكيد. فقط قارنوا مبيعات نهاية السنة في الشتاء الماضي مع مبيعات الهدايا في منتصف الصيف. على أي حال، على امتداد شارع ناكاميسه تعلّق المحلات إلى واجهاتها يافطات تعلن حسومات خاصّة، وتغطّي عتباتها بمظلات رُسمت على قماشها مضلعات بيضاء وزرقاء، وتُزيَّن بزهور مجد الصباح، أو بالأحرى زهور اصطناعية تعيسة، زنابق النهار أو زهور القمر أو الأقحوان، لكن هناك على الأقل أزهار متفتّحة بوقية الشكل. غير أنّكم لن تسمعوا حتى النايات أو الطبول في شوارع التسوق الأخرى التي تخلو من الزينة.

لا أستغرب أن البنت الصغيرة التي امتطتِ الحصان المقدَّس، خلال احتفالات عيد سانجا في 17 و18 مايو، قد اضطرت في يونيو إلى بيع جسدها كي تعيل عائلتها.

لولا الركود، ما التقيتُ هيكو الأعسر. إنه مثال نموذجي عن الأزمة. التمس منّي نقوداً: ''هل يمكنك أن تشتري لي يوكاتا؟'' و...

43

باريس، العطر مع أوراق *marronnier* [الكستناء] الخضراء اليانعة!

حفلة مغنية السوبرانو الآنسة أوديت دُلتاي التي ستنقلكم إلى أجواء الأوبرا في الشانزيليزيه

هذا هو المكتوب على لوحة الإعلانات في مسرح شوشيكو. عرض موسيقي في الأسبوع الأول من يوليو. وفي الأسبوع الثاني:

الإيروتيكية دافقة من أجسادهن الجميلة العارية البيضاء كاللآلئ،

الراقصة الروسية الآنسة فارينا رادوشينكو وفرقتها

وفي مسرح مانسي، تامارا وميرا وفاريا ولوبا، فرقة ''مترو'' الراقصة للأخوات دانيلفسكي. رقصات غجرية، رقصات قوقازية، رقصات إسبانية، رقصات جاز، رقصة عروس البحر. الفتيات الروسيات يغنّين ''أغنية كاندا'' و''أغنية غينزا الحديثة'' باليابانية، مع لكناتهنّ الروسية العذبة.

فرقة الرقص المختلط في مسرح تايكو، سيني رينتارا ولينا رينتارا. ''راقصات ومغنّيات من فنلندا''، يقول الإعلان. الأمّ سيني تغنّي ''أغنية أوكيسا''، بينما ابنتها لينا ذات السنوات العشر، المكلّلة بتاج من الزهور والمرتدية كيمونو يابانياً طويل الكمّين، تؤدّي ''رقصة أوكيسا''. ثم تغافلكم لينا فترتدي طقماً رجالياً من الساتان الأسود، وتعتمر قبعة من الحرير، وفي يدها عصا للمشي:

آه، أنا تشارلي تشابلن،

المهرّج المرِح دائماً.

تغنّي وترقص مازجةً بين رقصة القوقاز ومشية البطّة علامة تشابلين المسجلة. وينهال التصفيق الحارّ على هذه الفتاة الصغيرة، في يوليو هذا، أكثر من أي راقصة أخرى في مسارح أساكوسا كلها. عموماً، جماهير أساكوسا لطفاء مع الراقصات الأجنبيات، وخصوصاً الصغيرات.

وبعد انتهاء المشهد، تنزل لينا وسط الجمهور لتبيع بطاقات بريدية طبعت عليها صورتها الشخصية. جميلة. يذكّرني جمالها بفتاة صينية اسمها لين جينهوا عرفتُها منذ عشر سنين.

أيها القرّاء الأعزّاء، أرجوكم تحمّلوني هنيهة واسمحوا لي أن أشارككم ذكرى حزينة.

"عرض لين جينهوا في شينجوكو".

كان في الثاني من يناير، هذه السنة. ذهبتُ إلى خيمة هذا المسرح البائس في شينجوكو، لا لشيء إلا لكي أراها. كان عرضاً ملفَّقاً لم تظهر فيه لين جينهوا.

استطراد. كانت الفتاة الدبّة في مقصورة المسرح الصغير المجاور. الفتاة الدبّة الجميلة التي ظهرت هذا الربيع في أساكوسا وراء شارع ناكاميسه. وفي الوقت نفسه، كانت هناك خيمة سيرك قرب مطعم إيماهان. وهناك، في خيمة السيرك تلك، رأيتُ لين جينهوا.

كان عمرها، على غرار لينا، عشر سنين. كان الجسد النحيل للفتاة الصغيرة ذات السنوات العشر يؤدّي "بهلوانيات" غريبة مذهلة. كانت جميلة مثل حشرة غريبة مذهلة. حشرة نبيلة كئيبة وباهظة السعر. نزلت وسط الجمهور أيضاً، وباعت بطاقات بريدية طبعت عليها صورتها الشخصية.

ولكن أخيراً، بالمصادفة البحتة، بعد هذه السنوات العشر، رأيتُ لين جينهوا مرة أخرى.

"أوه! هيّا، فلنخرجْ!"، كانت بشعة، بدينة، قزمة، والشفتان حمراوان فاقعتان في دمامة الوجه.

هيكو الأعسر، ملتفتاً نحوي، مشدوهاً، لا يبدي أي نيّة للحاق بي والخروج. هذا في مسرح إيغاوا–أوموري في أساكوسا.

وفي يومٍ آخر من يوليو هذا، تذكّرني الساقان الممشوقتان لفاريا دانيلفسكي بالراقصة الأجمل آنّا لوبوفسكي.

وما دمتم، أيّها القرّاء الأعزّاء، قد تلطّفتُم بالاستماع لذكرياتي، فهلّا سمحتُم لي أن أطلب منكم قراءة قصة كتبتُها سنة 1923؟

...

النجمة ممثلة الأوبرا في مسرح كينريو تمشي تحت مطر الخريف في كاغورازاكا، متقاسمة المظلة نفسها مع أمّها، ممثلة الأوبرا أيضاً. الأمّ ممسكةٌ المظلّة. تمشي الابنة بوقار بالغ إلى جانب أمّها وترافقها مثل خادمة.

عندما يرى الناس الأمّ والابنةَ ذات الملابس الغربية، مرهَقتين كأنهما ناجيتان من حرائق المسارح أو حريق منزلهما، يتيقّنون مما آلت إليه أحوالهما، فيميلون إلى التعاطف مع الأمّ التي تُعلي شأن ابنتها أكثر من إساءتهم الظنَّ بالابنة.

لا أعتقد أن الابنة ستمانع إذا كتبتُ اسمها هنا. إنها ساغارا آيكو التي عادت الآن إلى الظهور على شاشات السينما.

44

إليكم القصةُ التي كتبتُ منذ سبع سنين!

فلنعد إلى بداية القصة. بعد الزلزال بخمسة عشر يوماً، تتمشى ممثّلتا أوبرا تحت أمطار الخريف في كاغورازاكا وهما تتقاسمان مظلة واحدة.

وقتذاك، منذ أربع سنين أو خمس، فكرتُ في رذاذ شتوي يهمي على أساكوسا. حينذاك، لاقت عروض الأوبرا في مسرح نيهون نجاحاً كبيراً. على الخشبة، تألّق ساوادا ريوكيشي في عزف "سوناتا ضوء القمر"، كما قدّمت بعض العروض فرقةٌ روسية هرب ممثّلوها إلى اليابان بعد الثورة.

كان بين أعضاء هذه الفرقة سيدة اسمها غان ستارسكي. والراقصة نينا بافلوفا التي كانت ترتاد أجواء الفنانين في تسورومي. كما حضرت هناك عائلة لوبوفسكي – الأخَوان دانييل وإسرائيل لوبوفسكي وأختهما آنا لوبوفسكي. كانت آنا أكبرهم سنّاً وعمرها ثلاثة عشر أو أربعة عشر عاماً، أما إسرائيل، فيقارب العاشرة. كانت آنا أنيقة بارعة الجمال.

كنت طالباً في أرقى مدرسة ثانوية وقتذاك، وانتظرتُ مع صديقي أ خروجَ آنا من باب المسرح. كان الإخوة الثلاثة لوبوفسكي برفقة روسي عجوز يرتدي أسمالاً رثّة. كان معطف آنا مهلهلاً بالياً أيضاً، وإن بدا رائعاً وهي ترتديه.

مشى أربعتهم – الأب وأطفاله – حتى بلغوا حلبة التزلج على الجليد شمال مسرح ميكوني حيث توقفوا. كانت رقبة آنا تبلغ مستوى كتفي، فحدّقت ببشرتها.

داست آنا بحذائها الموحِل قدمَ طالب مرحلة إعدادية، فضرّج الخجل وجهها، وابتسمت بارتباك. احمرّ وجه الطالب أيضاً.

ثم ذهب الأربعة إلى ضفة البركة، واشترى الأب لوبوفسكي بضع حبات كستناء مشوية.

دخلوا فندقاً رخيصاً قميئاً مقابل مسرح ميكوني.

وقفنا هناك، رافعين أنظارنا إلى الطابق الأول من ذلك الفندق الرخيص.

”غداً، سألازم الغرفة المجاورة لغرفتهم وأشتري آنا بخمسين ينّ. هذا مبلغٌ كافٍ لليلة واحدة“، قال رفيقي أ.

وبعد هنيهة، بدأت تمطر. ولمّا التجأنا إلى رواق مسرح ميكوني لنتّقي المطر التفتنا وفوجئنا بما رأينا. كان هناك شخصٌ يتكئ إلى الحائط، ممعناً التحديق في الطابق الأول حيث كانت آنا. كان طالب المرحلة الإعدادية الذي داست آنا قدمه.

فكرتُ في آنا هذه لوقت طويل.

لوهلة، قلّبت الفكرة في رأسي ناوياً أن أكتب رواية طويلة غريبة تدور أحداثها في حديقة أساكوسا وشخصياتها نساء مُعدَمات – العاملات في مصانع التبغ والسجائر في كوراماي، النادلات في دور السينما الصغيرة، فتيات السيرك والبهلوانات اللواتي يمشين متوازنات على كرات كبيرة – وفكّرتُ أن تكون البطلتان هما آنا هذه والراقصة البهلوانية الصينية الصغيرة لين جينهوا.

سأضيف مثالاً آخر: شابّة أجنبية تعيسة الحظّ وحزينة حقاً. كانت مديرة فرقة السيرك المائي أوتّو ساكس الذي أتى من أميركا في تلك السنة. كان هناك سلّم ارتفاعه ثلاثون متراً منصوب فوق الخرائب المتفحّمة في مسرح آزوما، تتسلّقه زعيمة الفرقة لتقفز من قمّته إلى حوضِ ماء صغير.

كانت هناك امرأة ضخمة قفزت كالنورس من ارتفاع خمسة عشر متراً. كانت تشبه نورساً بالفعل. جميلة.

سمعتُ أن المديرة كانت تودّع بقية أعضاء فرقتها قبل صعود السلّم. أي كانت ”تشرب كأس الوداع الأخير“، إذا استخدمنا كناية يابانية، وتتلو على قمة السلّم صلاة للسماء المليئة بالنجوم. ونحن في الأسفل، كنا نعلم أن ريحاً قوية باردة تهبّ في السماء.

ثم كانت تستدير بغتة وتقوّس جسدها نحو الوراء، لتغطس ورأسها في المقدّمة، ثم تقلب جسدها في الهواء في منتصف القفزة، وتحطّ داخل الحوض على قدميها أولاً.

كانت باردة كالجليد طوال الاستعراض كلّه. لم تكن تتمنّن على الجمهور بابتسامة واحدة أثناء صعود السلم، وبعد قفزها في الماء تسبح إلى حافة الحوض وتنفض رأسها في بضع حركات، ثم ترجع إلى غرفة تبديل الملابس من دون أن تكلف نفسها عناء النظر أو الالتفات إلى أحد. كان حزنها بادياً ونظراتها قلقة، من بدء الاستعراض إلى الختام، كأنّ ما تفعله لا يستهويها البتّة.

سُحِرتُ بزعيمة هذه الفرقة. كم وددتُ لو رأيتُها تقفز من قمة البرج المجاور ذي الاثني عشر طابقاً.

أخبرتُكم عن نيّتي أن أكتب رواية طويلة غريبة. وها أنا، أيّها القرّاء الأعزّاء، في هذه الصفحات، بعد عشر سنين، قد بدأتُ أخيراً تنفيذَ تلك الفكرة.

45

ولكن، أيها القرّاء الأعزّاء، ليس هناك أي سبب يمنعني حقّاً من مصارحتكم ببعض ذكرياتي حين كانت أوبرا أساكوسا في قمّة مجدها.

بعض ممثلات الأوبرا اللواتي كنّ هنا منذ عشر سنين يعُدن الآن كراقصات استعراضيات. أليست هذه طبيعة الحال اليوم في أساكوسا؟

حسناً، فلنعُدْ إلى يوليو 1930. لا أزال أدعم فرقة الرقص المختلط حيث ترقص لينا رينتارا وآخرون في مسرح تايكو–

لكنني أعتقد أنهم يخلطون الكثير من الأشياء معاً، ولستُ من الذين تصدمهم أشياء من قبيل "جاز كابّورِه"، أما "شبكة الفراشات"، تلك "الرقصة المختلطة" كما أدّاها الراهب هونِنساي نيوكاي وماتسوياما ناميكو، فمبالَغ فيها قليلاً.

خذوا مثال "فرقة الجاز الياباني– الغربيّ" التي أتيتُ على ذكرها سابقاً – ناميكو ربّان زرقاء العينين ترتدي ملابس بحّار، ونيوكاي فتاة يابانية يرتدي كيمونو طويل الكمين، ويستخدمان قماشاً كشبكة بيضاء لصيد الفراشات، وبحركات مثيرة من أيديهما وجسديهما يمثّلان دوريهما كعاشقين، وفي حين يرقص البحّار رقصة غربيّة، ترقص فتاته رقصة يابانية.

ساوا مورينو، التي ظهرت في يونيو على خشبة مسرح شوا مع فرقة تنكاتسو، تخلط الأمور أيضاً وتؤدّي الرقصات نفسها التي كانت ترقصها منذ عشر سنين، مثل "المربّية" أو "حياة غجرية". وعندما تقلب ملامحها لتضحك الجمهور يمتلئ وجهها بالتجاعيد كالقِردة.

من جهة أخرى، هناك كيمورا توكيكو من مسرح أوتوَا – أشجع وأوقح بنت في العالم، أذهلت حتى الفاجرات الحقيقيات.

إنها تبدو في مُقتبل الصبا، ومَن يعرف عمرها لا يصدِّق.

العرض الافتتاحي للفرقة الراقصة إيرو–إيرو في مسرح نيهون:

عرض مجنون لراقصات عاريات!

نعم، أيها القرّاء الأعزّاء، هذا ما يقوله ملصق الإعلان.

كيتامورا تاكيو وفوجيمورا غورو من مسرح طوكيو مع فوجيتا تسوياكو من فرقة البجعة البيضاء، كما يقول الإعلان، في:

استعراض ضخم لراقصات عاريات! العجب العجاب!

البلهاء السمينة كاواي سوميكو قد عادت إلى مسرح نيهون. انتقلت ساوا كاورو من مسرح كانّون إلى مسرح أساكوسا. تظهر تايا ريكيزو وياناغيدا تاييشي وتختفيان، ثم تعاودان الظهور فجأة. ما عادت تصفية ممثّلي الأوبرا حدثاً نادراً.

كان العرضان الرابع والخامس من Paramount Show [65] في الدنكيكان في يونيو، أما الرقصات التي تعبّر عن سنة 1930، فهي رقصة الجاز لهارونو يوشيكو ورقصة الشارلستون لمينامي إيكو.

65 المحاكاة اليابانية لعروض باراماونت في هوليوود.

حتى مسرح هاتسون الذي طرد النجمة مغنية الغيدايو التي غنّت "ضوء القمر فوق القلعة الموحشة"، قد أعاد أخيراً دهان لوحاته الإعلانية وكتب:

جولة من العروض الفنية المنوّعة السوبر–حديثة

"العجب العجاب" هو "الهزل والفكاهة"، "منوّعات موسيقية"، "رقصات استعراضية".

أما "أوكيشي الصينية" لكاواي سوميكو وفرقتها الراقصة، و"رقصة القبلات" لكازينو فُولي، فقد تضمّنتا مشاهدَ إباحية ثارت حولها جدالات عنيفة دعت إلى تشديد الرقابة.

في اليوم التالي لمرور الفتاتين الروسيتين بنا، هاروكو وأنا، تجوّلتُ وحدي في أساكوسا لألقي نظرة على هذه العروض المذكورة سلفاً كلّها.

على أي حال، فجأة قرأتُ:

طوفان من المجانين يجتاح العاصمة جرّاء مصاعب الحياة ومِحَنها.

كل المستشفيات امتلأت عن بكرة أبيها،

كلُّ المرضى ذوي الأمراض الخفيفة يُخرجون تدريجياً كي يفسحوا المجال لغيرهم.

ليست هذه الكلمات إعلانات استعراضات راقصة أمام المسارح. إنها العناوين العريضة في الصحف.

46

الغالبية الساحقة من صعاليك أساكوسا مجانين قليلاً. أساكوسا مصحة مجانين كبيرة. وما كلُّ الذي ينامون فيها شحّاذين أو صعاليك. تدفقت جموع من العاطلين عن العمل هذا الصيف، فازداد معهم طبعاً عدد الشحّاذين والصعاليك.

كما شحّتْ خلال الركود بقايا المأكولات التي توزَّع على الشحّاذين. وليس هناك إلا عدد محدود من المقاعد في الحديقة. ولكن لا تزال التقسيمات الصارمة للمكان سارية منذ سالف الأيام. وإذا انتهكتُموها، فقد لا تفقدون ركنكم وتُطْردون من أساكوسا فحسب، بل قد تفقدون حياتكم أيضاً. أمّا الشحّاذون، على أي حال، فيتوالدون في ”زمن المجاعة“ كالأشنيات في بركة هيوتان.

هذا ما سمعتُ: كان عاملاً مياوماً انتقل من مرحلة الدويا [النزل الرخيص] إلى الأوكان[66] [التشرّد]. كان يرضى بأي عمل للحصول على قليل من المال، فيسرف في الشّرب ويدخّن أعقاب السجائر، ويهدر ما تبقى على المفرقعات. عندما عاد إلى الحديقة، فجّر لهم المفرقعات على الأرض. بانغ–بانغ.

66 يستخدم الكاتب، غير مرة في سياق هذه الرواية، تسميات دارجة في لهجة أساكوسا مثل: ”دويا“، ”أوكان“، ”زوكِه“، ”دايغارا“، ”زوبو“... كانت تعيّن فئات المشرّدين والمتسوّلين وهرميّة مراتبهم.

– لقد فكّرتُ في الأمر مليّاً!

إنه وافدٌ جديد هنا، ليس له وزن بين المخضرمين في هذه النواحي، والمفرقعات سترفع من رصيد شعبيته. لكنه يعود خائباً خالي الوفاض مرة أخرى عند انبلاج الصبح.

شلّة المتفرّجين على عراك السلطعونات قادمون جدد على الأغلب، لم يستطيعوا أن يظفروا بالمقاعد لأنها لا تحقّ لهم. المقاعد ملآنة أينما نظرتُ حولي. حين يجلس ثلاثة شبان على مقعد واحد لا تبقى أي فسحة لجلوس شخص آخر.

أمشي بهدوء إلى أجمة الشجر الظليلة. على قمة الجسر الإسمنتي المقوَّس:

– هذا كلام طنّان. علينا التأكّد من وجود النقود قبل إرسال الرجال ليقوموا باللازم.

– أخرق مثلك لن يرسلهم أبداً. أمنيتي الوحيدة أن أصير غنيّاً، ولهذا سأذهب إلى شينشو. أنت تعلم أنّها تعجّ بالفتيات، حتى تحار أين ستضع قدمك. جميعهنّ يناهزن السادسة عشر ويتسكّعن في

الشوارع ضائعات، بريئات إغواؤهنّ سهل.

– هل هنّ جميلات؟

– لا يهمّ. سنلبسُهنّ ثياباً غربيّة ضيّقة.

– هل يكفي عشرون أو ثلاثون يناً؟

– أنت الآن تتكلّم مثل المزوّرين. سنخصّص ألف ينّ لكل رأس منهنّ.

– لا تجعجع هكذا.

– اذهبْ إذن وغيّرِ العالم.

انصرفتُ لدى سماع هذه الكلمات التي تكدّر القلب. ولكن، أيها القراء الأعزاء، هؤلاء ليسوا صعاليك. إنهم ثلاثة أعضاء من عصابة لاختطاف عاملات المصانع، وها قد اطّلعتم على مخططاتهم السرّية لإرسال بعض رجالهم إلى شينشو حيث يوجد عدد كبير من الفتيات العاطلات عن العمل.

كان حديثهم سيفرحني لو كانوا مجرد حالمين بكنز المال، ولكن هؤلاء الأنذال بأحابيلهم القديمة إياها قد يحقّقون مآربهم مع وجود حوالى مئة ألف عاملة فقدن عملهنّ. الأجدر بكم، يا شرطة شينشو، اعتقال هؤلاء "الصيّع" بدلاً من ملاحقة الناشطين الاجتماعيين.

هذه بالطبع أمنيات أرجوها في قرارة نفسي. أعيتني الحيل، وقد لا تستسيغ الفتيات مبادراتي المتواضعة. ولهذا سألزم السكوت حيال هذا الموضوع، وسأخبركم عن فتاة رأيتُها هنا في القسم الخلفي من الحديقة.

– هؤلاء الفتيات الصغيرات... لا يعرفن شيئاً إلا الألم والعذاب. ليست لديهنّ أدنى فكرة عمّا يفعلْنه.

يضحك هيكو الأعسر، ثم يضيف والجدية مرتسمة على ملامحه: "هل تستطيع أن تشتري لي يوكاتا؟".

لا مفرَّ من التكشيرة، لأن هيكو يباغتني بطرح هذا السؤال.

– "يوكاتا نادي النساء"[67]، من ماركة "مساء الجنوب". قالت إنها تريده من كريب الحرير.

67 تأسست مجلة "نادي النساء" سنة 1920، وكانت تتضمن مواداً عن الموضة والحياة المنزلية إلى جانب القصص الأدبية. بدءاً من 1923، كانت تلحق معها كتيّبات تشبه ما يُباع من الكتب الرخيصة في الأكشاك في الشوارع الخلفية لأساكوسا.

– ستعطيه لحبيبة قلبك؟

– على مهلك، دقيقة. أنت تهينني. سأغلبك. لا تستهِنْ بي. لا علم لي بطبيعة العلاقات التي تربطك مع يوميكو والأخريات، أما أنا، فلم أخرفْ لأبتزّ أحدهم من أجل الحصول على يوكاتا أهديه إلى فتاة.

– فإذن لا تريد مالاً لشراء يوكاتا نسائي؟

– قطعاً، أنت لا تفهمني. عمر البنت أربع عشرة سنة. مازحتُها بالقول إنني سأهديها يوكاتا، فأخذتني على محمل الجد وصدّقتني كأنني إله. كيف سأخذلها وهي مجرد طفلة! حسناً، سأبيعها لك. إنها فتاة للبيع، كما تعلم. ستبدأ مزاولة المهنة بعد حوالى أسبوع. لكني لستُ رخيصاً إلى هذا الحد لأستولي بواسطة يوكاتا على قلب فتاة صغيرة. سأناولها اليوكاتا أمام الباب، إذ ليس لمنزلهم مدخل حقيقي، ثم أعود على جناح السرعة.

– أي يوكاتا تقصد؟ ''مساء الجنوب'' من كريب الحرير؟

– نعم، شكراً. لم يكن قصدي أنني لا أملك المبلغ، ثلاثة ينات وخمسة وأربعين صنّاً. لكنّ مالي وسخ. نقودك أكثر وأنظف. لا تماطل. اَعطِني المبلغ، وسأدعك تلتقيها. هيّا، عجّلْ واكتُبْ عنها. ستكفي مكافأة المقالة لشراء عشرة أو عشرين يوكاتا في ليلة واحدة.

وفي رواية أخرى، يُقال أن قوّاداً قد اصطحب هيكو الأعسر إلى هنا، جاهلاً أن هذا الفتى قد أتى من شينجوكو لتسيير الأعمال لدى عائلة شيرويا.

كنّا في يونيو يومَ صادفتُ شاحنةً محمّلة بالأقحوانات الحمراء والصفراء والبيضاء على الطريق إلى أساكوسا.

كان وصول هيكو إلى أساكوسا يوم احتفالات سانجا. راجتْ شائعات عن قدوم عصابة من بضعة أشخاص خطيرين ليختلطوا بحشود الناس في هذا ''العيد الشهير في أساكوسا حيث تقدَّم القرابين إلى إله الحرب''.

47

مصاريع أبواب مكسورة مغلقة، عُلّقت أمامها ستارة كبيرة مهترئة، تشبه شرشفاً أو قماشة صرّة، والورق الأصفر ملصق إلى كلّ الألواح الزجاجية في الأبواب الجرّارة التي تفصل الغرفة المفروشة بثلاث حصُر تاتامي عن هذه الغرفة المفروشة بستّ حصُر تاتامي حيث يستلقي هيكو، وفيها منضدة

صغيرة قديمة للزينة مع مرآة (لماذا المرايا مكسورة عادة في مثل هذه البيوت؟)، وعلى المشجب أربعة أو خمسة يوكاتات للنساء قطنية رخيصة.

هيكو مستلقٍ على جانبه ورأسه يتوسّد مرفقه. عيناه مغمضتان. الهدوء عميم. لا يضايقه القوّاد الذي لا يكفّ عن صعود الأدراج ونزولها. وجوده الآن في منزل غريب يهدّئ روعه؛ كأنه ملاذ يتخفّى فيه.

الساعة تجاوزت العاشرة والنصف. الفتاة التي قالت إنها ذاهبة إلى السينما لم ترجعْ بعدُ إلى البيت.

– إنها تعود إلى البيت مشياً على الأغلب. والمسافة، كما تعلم، بعيدة وصعبة على قدمي فتاة صغيرة مثلها.

– ربما ذهبتْ إلى مكان آخر؟

– صدّقني، إنها لا تزال بنتاً صغيرة. لقد خرجت وحدها، فإلى أين ستذهب؟

– أوه، اهدأ قليلاً. لم أقُلْ إنك تكذبُ عليّ فقط لأنها ليست هنا.

– حسناً. أنا أعيش وراء هذا البيت بالضبط. وأعلم أنها ليست من صنف البنات اللواتي يتجوّلن في الليل. قيل لي أنهم لا يعطونها إلا عشرين صنّاً.

– فإذن أنت تسكن بالقرب من صالون الشاي فوجيتا؟

"يا سيّد، هل أنت من هذه النواحي؟"، يقول الرجل وعيناه تستفهمان هيكو.

– لا، لكن الفتاة في ملصق الإعلان صديقة قديمة.

– حقاً؟

– ما صحّة ما يقال عن خسارة أوميتسو وزنها بعد أن أنجبت ولداً؟

– لا أعرف شيئاً عن الموضوع، ولكن...

– قُل لي، لا بد أنك قد انعطفت حول الحديقة على طريقك إلى هنا. فربما صادفتَ روكوجي سُويتِن.

– مَن هذا؟

– ماذا؟ ألا تعرفه؟ إنه زعيم عصابة من النشّالين، المنافسة للعصابة في محلّ الخياطة. افتتح محلاً جميلاً للراديوهات وزاد دخله بهذا العمل الإضافي الذي درجت موضته. عنده صبية ظريفة. رأيتها تقف بجانب العجوز على عتبة المحلّ، شعرها الجعِد مصفف في تسريحة موموواره. الزعيم هادئ، إذ خرج من السجن منذ مدة وجيزة. أعرفه بالشكل فقط. سمعتُ هذا من ولد يعمل ويأكل عنده. هذا الولد خشن الطباع، ويتبختر في الحديقة، وقد صادف روكوجي في الترام منذ أربعة أو

خمسة أيام، وعندما وصل إلى البيت وجد في جيب بنطلونه أربع قطع نقدية من فئة خمسين صنّاً. كانت سعادته عارمة لأن يد المعلّم لا تزال على خفّتها المعهودة.

"ستعود بعد قليل"، يقول القوّاد ويغادر الغرفة.

تصعد إلى الطابق الأول سيدة عجوز قصيرة القامة. تضع علبة كبريت أمام هيكو. وجهها أسمر متطاول مع نظّارة قديمة على طرف أنفها. لا يزال هيكو ناعساً. وبعد خمس دقائق تعود العجوز من جديد، ومعها هذه المرة منفضة زجاجية خضراء رخيصة ومجلات.

– لا بد أنك قد مللت. ألا تريد بعض الفاصولياء الحلوة؟ الصغيرة قد توقّفت غالباً لتشتري بعض الحلوى. ألا ترغب في تصفّح هذه المجلات؟ قد لا تروق لك. هذه مجلة "نادي الفتيات"[68]. هنا الأعداد الستة كاملة من يناير إلى يونيو.

68 بدأ إصدار هذه المجلة سنة 1922. في زمن هذه الرواية، كانت صور بنات الأثرياء تُطبع على الغلاف الأمامي للمجلة.

وفيما هيكو ينظر إلى صور الفتيات في الصفحات الأمامية ساهماً، يسمع تنفُّساً، كأن هناك مَن يستيقظ في الغرفة المجاورة ذات الحصُر الثلاث. يعتدل في جلسته لكنه لا يستطيع أن يرى شيئاً.

في الأسفل، عودة البنت. يصعد القوّاد إلى الطابق الأول والارتياح بادٍ عليه.

– هيه، هل هناك أحد في الغرفة المجاورة؟

– آه، إنها امرأة متقاعدة تعيش هنا. سأطلب منها النزول إلى تحت فوراً.

– هل أيقظتُها؟

– لا مشكلة بتاتاً. سأتحدّث إليها.

وفي تلك اللحظة، تجلب البنت الشاي وفق التقاليد المتَّبعة. ملامحها تفاجئ هيكو. ذراعاها مكشوفان في يوكاتا جنروكو قصير الكمّين مربوط بحزام للصبيان أزرق اللون، غدائرها مرسلة إلى كتفيها، كأنها تلميذة عادت من المدرسة الابتدائية، صائحة: "ها قد رجعتُ إلى البيت!".

48

كأن هذه البنت الصغيرة لم تتبرّج قطّ من قبل. حمرة الخجل قد زالت عن وجهها حين تصعد وحدها في المرة الثانية، وإذ يسألها هيكو: ''كان فيلماً ممتعاً؟ ماذا شاهدتِ؟''، تتمادى فتكلّمه وهي لا تزال واقفة، كأنه رفيقها في المدرسة.

– أوه، أوه. اسمه ''الموهبة''.

– في المسرح الإمبراطوري، صحيح؟

– لا، في الماكينو.

– آه، صحيح. لم يُعرَضْ ''الموهبة'' في المسرح الإمبراطوري بعد. تعرفين أنني قد انتظرتُك أكثر من ساعة؟

– حقاً؟ لقد ذهبتُ إلى مينوا.

– هل هي بعيدة من أساكوسا؟

''لا، قريبة جداً. أوه، ارتدِ هذا!''، وتتناول يوكاتا عليه رسمٌ كبير لعربة من البلاط الإمبراطوري، وترميه عند قدميّ هيكو.

– دقيقة واحدة.

– حسناً. هل تقرئين ''نادي الفتيات'' كلّ شهر؟

– أوه، نعم. لدي جميع أعدادها منذ سنتين أو ثلاث سنين.

– إنهن يرتدين يوكاتات جميلة حقاً، أليس كذلك؟

''بلى، جميلة''، وتجثو البنت بجانب هيكو الذي لا يزال مستلقياً ورأسه يتوسّد ذراعه، فتكاد ركبتاها تلامسان مرفقه.

عدد يونيو من ''نادي الفتيات'' مفتوح على دعاية لليوكاتا.

– هل تريدين مني أن أشتري لك واحداً؟

– حقاً؟

يُفاجأ هيكو بإشراقة مباغتة أضاءت وجهها. توحي تعابيرها بتصديقها ما قاله، كأنه سيخرج الآن ويشتري لها يوكاتا. لا تستغرب ولا تحسب أن تلك مزحة أو كذبة. كما لا تفكّر أنهما امرأة وزبون.

”هممم، أيّ واحد منها؟“، تمعن النظر في الموديلات. لا تقول ”شكراً“ أو ”عفواً“.

– فلننظر إليها على مهل في وقت لاحق.

– آه، انتظرْ لحظة! عليّ الذهاب إلى محل المعكرونة. سأذهب وأعود ركضاً.

وتنطلق نزولاً على الأدراج، كتلميذة طلبت من رفيقتها في اللعب أن تنتظر قليلاً.

هيكو مستلقٍ، قدماه تتدلّيان لأنهما تتخطّيان فراش الطفلة.

المرأة في الغرفة المجاورة ذات الحصر الثلاث تخرج بهدوء. في الأسفل، يُسمَع صوت ارتشاف حساء السوبا[69].

69 نوع من أنواع شوربة المعكرونة.

– هل ستأكلين أيضاً؟

– أوه. عندما يأتي زبون فكلُّ مَن في البيت يأكلون المعكرونة.

– نعم، احتفال حقيقي.

ترفع البنت عينيها لتحدّق في هيكو بنظرة باردة، كأنه على طاولة عمليات.

– متى خرجتِ من المدرسة الابتدائية؟

– مارْسْ هذه السنة.

– هل عمرك خمس عشرة سنة فعلاً؟

– لا، أربعة عشر.

ثم تفتح ورقة بيضاء وتمسك بها بكلتا يديها أمام عينيها الواسعتين اللامعتين، أعلى بقليل من مستوى نظرها، وتقرأ بصوتٍ عالٍ صافٍ: ”عند الإصابة بالمرض وعدم المعالجة الفورية، فقد تطرأ مضاعفات متباينة تؤثّر في مختلف وظائف الجسم. وفي النهاية، سيجرّ الويلات على العائلة وتنتقل الأذيّة إلى ذرية المستقبل...“.

– هيه!

– إنه مديد المفعول.

– أوه؟

– هذا الدواء لا يفسد. كما يقول المكتوب هنا[70].

70 أي النشرة الطبية المرفقة مع دواء لمعالجة السفلس.

– آه! أنتِ قادرة على قراءة كلمات صعبة كهذه! في تقديري السبب هو أنّك تقرئين ”نادي الفتيات“ منذ كنتِ في الصفّ الرابع.

– إلى الآن، لا أزال أتردّد غالباً على مكتبة أساكوسا للأطفال...

تقول بنبرة جدّية فيتهدّج صوتها ويتغضّن جبينها قليلاً، ولكن لا يفارق البرود تعابير وجهها.

ينظران إلى الموديلات في دعايات اليوكاتا من جديد.

– أيّها تفضّلين؟

– همم... لا أعرف. سأسأل أمّي.

ينزل هيكو أيضاً ويلقي نظرة خاطفة على الغرفة المجاورة. هناك ثلاث نساء: السيدة العجوز المتقاعدة التي سمعها منذ قليل، وامرأة هزيلة تناهز الثلاثين، وامرأة شابة لا ترتدي سوى قميص داخلي أحمر من الصوف وقد أحاطت وركيها بإزار. جسدها المكتنز جميل.

49

على الأرجح، لا علاقة لما سأقوله لكم بأي شيء مما سبق. لديّ ابنة عمّ تسكن مقابل معبد أساكوسا. طالبة في ثانوية للبنات وعمرها أربع عشرة سنة. اثنتان من رفيقاتها السابقات في المدرسة الابتدائية التحقتا بالعصابة القرمزية (إحداهما ابنة ممثل كوميدي مشهور). هذه العصابة موجودة فعلاً، وليست تلاعباً باسم العصابة الحمراء. لا تعرف ابنة عمي ذات الأربعة عشر عاماً أنني أكتب رواية عنوانها ”عصابة الحزام الأحمر في أساكوسا“، كما لا تعرف على الأغلب طبيعة نشاطات هذه العصابة القرمزية. كل ما تعرفه أن هاتين البنتين من المدرسة الابتدائية ”تتبادلان دائماً الرسائلَ مع الصبيان“.

منذ وقت ليس بالبعيد أتت ابنة عمي لزيارتي في المنزل الذي أسكنه وحدي، ولأنني كنت ملتزماً موعداً في أساكوسا ذلك اليوم، ولم أكن أستطيع أن أتركها وحدها في البيت، فقد اصطحبتها معي والتقطتُ لها صورة مع ستّ أو سبع راقصات جاز داخل غرفة تبديل الملابس في مسرح الدنكيكان.

”قُل لي عمّي، هل ستنتشر الصورة في كتاب؟“، قلقةً تطرح عليّ السؤال نفسه كلّما التقينا. هذا لأن معلمتها قد تكتشف ذهابها إلى أساكوسا. وفي مدرستها الذهاب إلى أساكوسا ممنوع منعاً باتاً باستثناء الزيارات إلى معبد الإلهة كانّون.

أملي أن تكبر وتصير سيدة شابة لم ترَ في حياتها حديقة أساكوسا. على أي حال، لا أعرف فتاة أخرى غيرها بعمر الأربعة عشر عاماً. وما قاله هيكو صحيح تماماً: "لا تزال فرخاً، سيّانِ جميلةً كانت أم لا".

منتظراً الفتاة، يتمعّن هيكو في صور "السيدات الشابات اللواتي لا يعرفن أساكوسا"، تزيّن الأغلفة الداخلية للأعداد الستة من "نادي الفتيات".

– إنهن جذّابات، واللقطات مغرية، لكنهنّ مدلّعات. هذه الفتاة لا تشبههنّ إطلاقاً. الفتيات الصغيرات من أساكوسا إلى يوشيوارا يعرفن عادةً أكثر من أقرانهنّ في العمر نفسه، أما هذه الصغيرة، فلم تبلغْ بعدُ تلك المرحلة من النضوج.

لم يقل لها رجل يوماً إنه سيشتري لها شيئاً. ولهذا تعجز عن تحديد مشاعرها. لا لأنها تأخذ نكتة على محمل الجدّ، بل لأنها لا تدرك الفارق بين الجدّ والمزاح.

– سأسأل أمّي.

يُفاجأ هيكو الأعسر ببراءتها وعفوية نهوضها على قدميها، كأنها قد نسيت ما كانت مقبلةً على عمله.

فلنأمل ألا يجرح الراشدون في الطابق الأرضيّ تلك البراءة.

لا تلبث البنت أن تعاود الصعود راكضة وفي يدها المجلة وفي طياتها تلوح صفحة الإعلان.

– قالوا إن "مساء الجنوب" يناسبني.

– أيٌّ منها؟ هذا الذي رُسمت عليه زهور الأمارلس؟ إنه أنسب لسيّدات أكبر منك عُمراً، ما رأيك؟

– هذا ما اختارته لي أختي الكبيرة.

– هل أختك الكبيرة هي الفتاة ذات القميص الأحمر؟

– أوه. كان قصدي زوجة أخي الكبير.

– أخوك الكبير؟

– لقد ذهب للعمل في هوكّايدو. أما الأخرى، فهي أختي الكبيرة الحقيقية.

– هناك موديلان: الأوّل من موسلين والثاني من كريب الحرير. أيّهما ستختارين؟

– ما هو الموسلين؟

– قطن عالي الجودة.

"أظنّ أن الحرير جميل"، وللمرة الأولى تتردّد، كأنها تجري حساباً.

– ولكن أخبريني بدقّة كيف سأعود إلى هنا مرة أخرى، وإلا فلن أجد طريق العودة أبداً.

''حسناً. سأرسم لك خريطة. هل أستطيع أن أستخدم هذه؟''، وتلتقط الورقة التي كانت تقرؤها، وتبلّل رأس قلم الرصاص بلسانها. ''هنا موقف ريوسنجي، وهذه هي أساكوسا، وهذه هي مينوا. مفهوم؟''.

ثم تكتب رقم الشارع والعنوان واسم أمّها كما هو مكتوب على اللوحة الاسمية أمام الدار.

ترافق الفتاة الصغيرة أمّها لتشيّع هيكو إلى الباب، ولكنها تطلّ برأسها من بين درفتي الباب الجرّار للغرفة السفلية: ''متى ستأتي مرة ثانية؟ غداً؟ بعد غد؟''.

تطرح هذا السؤال كالبالغات.

شوكيوكوساي تِنكاتسو[71]، قصر الساحر

71 ذاعت شهرة هذا الساحر في نهاية القرن التاسع عشر. يحمل اسمَهُ في طوكيو مسرحٌ مختصّ بعروض السحر وألعاب الخفّة.

50

وفي اليوم التالي، انتزع مني هيكو الأعسر مبلغاً ليشتري "مساء الجنوب" بتصميم يوسانو أكيكو[72]. صادف ذلك بالضبط اليوم الثالث من موسم الأمطار. ولم يكن الحرير اللازم ليوكاتا "نادي الفتيات" متوافراً لدى تجّار الأقمشة.

72 إشارة إلى القصائد كسلع رخيصة، فالملاحظة تجمع بين نوع متخيّل من اليوكاتا يحمل اسماً أدبياً، وبين الشاعرة يوسانو أكيكو (1878–1942) التي أثارت قصائدها جدلاً واسعاً في أوساط نقاد الشعر وجمهور الحداثيين وجمهور الكلاسيكيين مطلع القرن العشرين.

– لا خيار لنا. سنأخذ الموسلين، لكن القماش في هذه الحالة يكلّف ينّين اثنين وأربعين صنّاً بدلاً من ثلاثة ينّات وخمسة وأربعين صنّاً، ولا أريد منها التفكير أنني أبخل عليها بينّ واحد فقط. هل تستطيع أن تعطيني ما يكفي لشراء يوكاتا ثانٍ؟

– ما رأيك في يوكاتا من "عصابة الحزام الأحمر في أساكوسا"، ودعايته موجودة في "مجلة الفنون الأدبية[73]"؟

73 مجلة أدبية أسسها الكاتب كيتوشي كانْ سنة 1923، وكان كاواباتا بين أوائل المساهمين فيها.

– كم يكلّف؟

– ينّين وثلاثين صنّاً.

– ما دام الفَرق ينّاً واحداً، فلا بأس.

– هل ستأخذ اليوكاتا إليها الليلة؟

– مَن تظنّني؟ من أجل لفافة قماش أو اثنتين! سأرسلهما صباح غد في طرد بريدي. لن أذهب إلى هناك مرتين.

كان الصباح التالي قائظاً قيظ منتصف الصيف.

البابان الأمامي والخلفي لبيتِ الصغيرة مفتوحان على مصراعيهما. المدخلان الأمامي والخلفي متطابقان، وكلاهما من دون ردهة. لا نعلم أيهما المدخل الفعليّ. المطبخ يحاذي الباب الأمامي. السيدة العجوز القصيرة القامة تخرج من المطبخ وهي تمسح يديها. ثمة غرفتان في الطابق

الأرضي، في إحداها ثلاث حصُر، وفي الأخرى ستّ. البنت الصغيرة جالسة وحدها في غرفة الحصُر الست وهي تخيّط يوكاتا. تجلس مستقيمة الظهر، وشمس الجنوب توشّي بأشعّتها حدودَ جسدها. إنّه الصباح في عائلة محترمة.

– هل يمكنك أن تنادي البنت، لو سمحتِ؟

تنهض الفتاة وتأتي، صارمة الملامح.

''إليكِ''، يناولها هيكو قماش اليوكاتا الملفوف بالورق، ويرى سعادة لم يرَ لها مثيلاً قطّ على وجه أي إنسان. يشرق وجهها كله.

– قالوا إن الحرير لم يصلْ بعد، ولهذا اشتريت لك قماشاً إضافياً من النوع الأرخص.

''حسناً''، هذه هي الكلمة الوحيدة التي تنطقها، وتهرول لتخبر أمها شيئاً ما، ثم تضع القماش الملفوف بالورق فوق الخزانة القديمة، وتعاود الجلوس أمام خياطتها في الغرفة الخلفية.

''شكراً جزيلاً لك''، تقول أمّها التي دخلت الغرفة بعد مغادرة البنت. ''رجاء تفضّل بالدخول واسترح لحظة، فالحرّ شديد''.

– هل لي بكوبٍ من الماء؟

تناوله كوبَ ماء.

– أوه، كفّي عن الخياطة ولو لدقيقة.

– لكن يا أمّي، أريد الانتهاء من نصف الكمّ هذا فقط.

– رجاء ابقَ، وابترِدْ قليلاً.

– لا، شكراً. سأذهب. إلى اللقاء.

تترك البنت إبرتها وتحدّق به، وبصوتٍ عالٍ تقول: ''ذاهب؟ أراك بعد يومين أو ثلاثة؟''.

– ألا تودّ البقاء أكثر؟

– لا، شكراً.

– حسناً، كما تريد. أنتِ، تعالي إلى هنا.

وإذ تناديها أمُّها، تنهض البنتُ وتأتي. آه، عيناها تترقرقان بالدمع.

يجفّ حلق هيكو بغتةً فيزلّ لسانه: ''هل تريدين أن آخذك إلى السينما؟''.

– حقاً؟ انتظر دقيقة. سأغيّر ثيابي.

تدخل إلى الغرفة الخلفية ويداها تشرعان بفكّ الحزام.

”ما أسهل اختطاف بنت صغيرة“، يقول هيكو مبتسماً. ”ولكن لن تذهبي وحدك. اسألي شخصاً آخر ليأتي معنا“.

”حقاً؟ هل أسأل أختي الكبيرة؟“ ومن أسفل الدرج تنادي على مَن في الطابق الأول: أختي!“.

51

1– باقة من أشهر الأغاني تؤديها فرقة الأوركسترا الكبيرة

2– مسرحية إيمائية، حكاية جنّيات: ”شبح الفرشاة“

3– مهرّجون مع موسيقا

4– العرض الكبير لألعاب خفّة تقدّم أمام الجمهور لأول مرة

5– رقصة المحيط

6– مسرحيتان صغيرتان:

أ– الصاحب المسافر

ب– عربة المنامة

7– رقصة الكاوبوي

8– مسرحيتان صغيرتان:

أ– الكذبة

ب– الصيّادة

9– ’’المدفع السحريّ‘‘ وحكايات حزينة من حرب الورود في إنكلترا

10– رقصة جديدة في خمس حركات: أيام الأعياد الخمسة

أ– السنة الجديدة

ب– عيد الفتيات

ج– عيد الفتيان

د– عيد النجمة

هـ– عيد الأقحوان

11– عروض بهلوانية جريئة في الهواء

12– ’’الجنّة المصريّة‘‘، كوميديا سحرية جديدة

هذا هو البرنامج في مسرح شوكيوكوساي تِنكاتسو.

افتتح مسرح شوا في 7 يونيو، وفي نهاية مايو كانت فرقة تسوكيجي المسرحية الجديدة قد قدّمت: ’’ما الذي أتى بنا إلى أساكوسا؟‘‘ بعد تقديمها عروضاً أخرى مثل: ’’مَن الذي دفع بنا إلى شينجوكو؟ حكايات تسوكوبا السرّية‘‘.

أيها القراء الأعزّاء،

كلمة ’’إغراء‘‘[74] مكتوبة بثلاث طرق مختلفة على ثلاث لافتات مختلفة ترفرف في نسائم يوليو أمام مسرح كانّون.

74 تعريب لكلمة ’’it‘‘ التي راجت في أساكوسا بعد العروض اليابانية لفيلم أميركي صامت هو ’’الفتاة المثيرة‘‘، أدت دور البطولة فيه كلارا باو سنة 1927.

لقد ابتكر مسرح نيهون التسمية الذكية ’’فرقة الرقص الإيروتيكي‘‘، وتُكتب ’’رقصة إيرو‘‘ على الإعلانات بحروف سوداء كبيرة حتى في مسرح شوتشيكو. سترون ’’إيرو‘‘ على اللوحات الإعلانية

أينما جالت عيونكم. لا تزال هذه الكلمة الأجنبية، المقتطعة من نصف كلمة أخرى، محتفظة بسحرها، ولكن إذا ذهبتم هذه الأيام وجمعتم كلمات اللوحات الإعلانية لعروض ״المنوّعات الإباحية״ في أساكوسا، لملأتم دفتراً من عبارات الهوس الجنسي.

أيها القراء الأعزاء، اذهبوا تمشّوا في المساء عبر الأزقة خلف مقصورات المسرح قرب ضفة البركة. في تلك الأزقة الخلفية، هناك بالتأكيد صبيان يبيعون الصور ويستدرجون الزبائن، ولكن هناك، قبل كل شيء، المداخل المؤدية إلى الغرف التي تبدّل فيها ״ملكات الإيرو״ ملابسهنّ. إنهن يخرجن في البرودة المنعشة للمساء. وهناك، أيها القراء الأعزاء، سترون بأعينكم أنني عندما قلت لكم إن سيقان الأخوات دانيلفسكي جميلة، فسبب جمالها الوحيد هو أضواء الليل. سيقانهنّ في الواقع أدكن من سيقان معظم اليابانيات.

والآن، كما تتوقّعون بالضبط، البرنامج في مسرح تنكاتسو أجمل بكثير من تلك ״المنوّعات الإباحية״. ألعاب الخفّة مذهلة. الراقصات الشابات يحاولن إقناع الزبائن بجمال حركاتهن وذكاء نظراتهن. أما تنكاتسو، فتلعب دور طالبة صغيرة بعمر أحفادها، لو كانت قد أنجبت. إنها متعجرفة جداً وتظهر في كل المشاهد. مذهلةٌ عروض ماتسووكا هنري البهلوانية في الهواء. كما تشارك ساوا مورينو في الرقصات، وهذا حدث نادر. أما الأدعى إلى الدهشة لدى هيكو الأعسر، فهو الأشياء الكثيرة التي تُرمى من الخشبة على المتفرّجين. ساوا مارينو تلعب دور الرسّام في ״شبح الفرشاة״، فتحرّك يدها كأنها ستقذف كرة بيسبول، وترمي حوالى ثلاثين أو أربعين كيساً ورقياً صغيراً مليئة بحلوى محشوّة بمربى الفاصولياء، فتتساقط الصُّرر الصغيرة على شرفات المتفرّجين أو أرضية الصالة. كانت العبارة المرفَقة: ״لذيذ الخبز لدى فوجيّا في شارع أساكوسا״ دعاية للمخبز.

وخلال عرض السحر وألعاب الخفّة هناك مستخدمون شبّان يطيّرون من على الخشبة مئات البطاقات التي طبعت عليها صورة تنكاتسو لترفرف برشاقة الفراشات إلى آخر الصالة. كل بطاقة تحمل على وجهيها دعاية لمستحضرات التجميل.

تُرمى سجائر السلام وسكاكر مورينا غا.

ماتسووكا هنري ترمي التفّاح.

وفي كل مرة يتعالى الهتاف من مقاعد المتفرّجين.

الجوّ عائليّ. الأطفال كثيرون.

البنت التي صحبها هيكو معه تعتلي كرسيَّها المرة بعد الأخرى ملوّحة بيديها في الهواء، وتمسك في كل مرة بشيء ما لأنها جالسة قبالة المنصّة. يفيض حضن أختها بالهدايا الصغيرة. إنها تقفز

فرحاً على طريق الرجوع إلى البيت.

وفي تلك الأثناء، يودّعهما هيكو ويجيء ليراني.

– لم أرَ قطّ مثل ألعاب الخفّة تلك. كان العرض مذهلاً كحلمٍ مجنون. ليست لدي أي فكرة كيف يؤدّونها. اذهبْ وشاهدها بعينك، غداً إن أحببتَ. لكن تخيّل أن الأخت الكبيرة لم تتوقف عن البكاء منذ البداية، وكنّتها الصغيرة التي لم تستطع أن تتحمّل سماعها وهي تبكي، سألتْها إذا كانت تشتكي من أي شيء اليوم. حماتها لن تسمح لها ببيع جسدها لأنها، رغم كل شيء، زوجة ابنها. لقد أرسلوا زوجها، واسمه آتسوشي، إلى معسكر للأعمال الشاقّة في هوكّايدو. فماذا في وسعها أن تفعل من أجله الآن؟ في الواقع، أخبرتني الأخت الكبيرة أن عليّ فعل شيء من أجلها اليوم. فلو استطاعت إقناع حماتها بوجود علاقة بيني وبينها، لسمحت لها ببيع جسدها، ابتداء من هذه اللحظة. لكنني لا أجيد هذا النوع من التمثيل العاطفي. ما من امرأة استحمقتني هكذا يوماً. وماذا عنك؟ هل تستطيع أن تفعل هذا من باب الإحسان كل يوم؟ كيف ستستطيع التخلّي عن امرأة بيضاء مكتنزة مثلها؟

أوكين سكّيرة النهر

52

ولدتْ بنتٌ لخادم من خدم الشوغن في يوكوديرا–ماتشي في أوشيغون[75]، وانتهت بالموت ميتة الكلب وفي سجلّها القضائي سبعون تهمة، مهجورةً وراء ضريح آواشيما حامية النساء في حديقة أساكوسا.

[75] الاسم القديم لمنطقة شينجوكو شرق طوكيو.

عندما أقول أوكين سكّيرة النهر المشهورة في أساكوسا ربما تتداعى إلى أذهان معظمكم، أيها القراء الأعزاء، صورة تلك الوطواط العجوز المخمورة، تلك الشتّامة السليطة التي تترنّح وسط الزحام قاذفةً أشنعَ المسبّات.

على سبيل المثال، عندما يذهب المخضرمون في أساكوسا إلى أي من العروض الكوميدية الموسيقية في أيامنا، يقولون مبتسمين: "آه! أيام الحرب الروسية اليابانية[76]، كان هناك عرض اسمه 'رقصة الغطّاسات تحت الماء' تؤدّيه في حوض ماء راقصة بارعة الجمال. وإذا قورنت براقصات هذه الأيام مع لباس السباحة، لبدا رقصها محتشماً".

[76] وقعت هذه الحرب بين 1904 و1905، وقد هزمت فيها اليابان روسيا للمرة الأولى والوحيدة في تاريخها.

كان هناك حوض كبير زُرعت في قاعه أعشاب بحرية ونثرت المحارات. كانت فتاة لا ترتدي إلا لباساً داخلياً أحمر مع نظارات للعوم وشعرها يتماوج تحت الماء، تلملم المحارات من القاع مثل واحدة من النساء اللواتي رسمهنّ أوتامارو وهنّ يجمعن آذان البحر. كانت رقصة تحت الماء، حصدت من ورائها نجمةٌ صاعدة اسمها "أوماتسو حورية البحر" شعبيةً كاسحة.

ولكنكم لستم بحاجة إلى سماع القصص القديمة التي يرويها المخضرمون في أساكوسا. فعندما ماتت أوكين سكّيرة النهر عن عمر اثنين وستين عاماً، كان قد انقضى وقت طويل على اختفاء أولئك الفتيات اللواتي كنّ يتّزن على الكرات في العروض البهلوانية في الحديقة مرتدياتٍ سراويل داخلية لحمية اللون.

كان ينبغي أن يُعاد بناء بوابة كاميناري بعد 1884، ولا يبدو هذا وارداً في المستقبل المنظور. احترقت هذه البوابة الرئيسية بسبب امرأة – أوكين ابنة نبّاش الورق من القمامة، البائسة المخلَّدة في أساكوسا. ولكنني أستطيع أن أروي لكم مئات القصص عن نساء أساكوسا.

البداية من الساقيات اللواتي كنّ يقدّمن الشاي ومشروبات أخرى في صالونات الشاي منذ مئتي سنة. ثم مومسات الدعارة السرّية في محلات لأدوات العناية بالأظفار والأسنان، والراميات في لعبة رمي السهام. وصولاً إلى عصر ميجي، حيث صاحبات المواخير وحانات الساكي، ثم الفتيات في صالات عمومية لقراءة الجرائد، والفتيات في مباريات الغو، والبائعات في محلات موجيتورو، والفتيات في نوادي الرماية، والنادلات في البارات أسفل برج الطوابق الاثني عشر. وعند بداية عصر تايشو، هناك فتيات "الغيشا تايشو"، ثم كان الزلزال الكبير الذي اختفت بعده كل الفتيات تزامناً مع اختفاء برج الطوابق الاثني عشر.

عهدت العائلة الإمبراطورية بحديقة الزهور إلى البستانيّ العظيم موريتا روكوسابورو الذي عمل إبّان مرحلة الكايي[77] في معبد ريتّوجي، محراب بوذا المعلّم الروحي الكوني. على الأقل، هذا ما يُشاع في هذه البقعة الأقدم تاريخياً، حيث تقع حالياً حديقة الملاهي هاناياشيكي. لا يزال بمقدوركم، وسط الأكشاك الصغيرة في أساكوسا اليوم، العثور على تذكارات تثير الحنين إلى زمان آخر حين كانت تقدَّم العروض البهلوانية ومسرح العرائس، وقد تتذكّرون الدمى التي كان صانع الدمى الشهير ياسوموتو كيهاشي يصنعها من زهور الأقحوان الصفراء.

77 اسم العقد ما قبل الأخير من عصر إيدو.

أيّها القرّاء الأعزّاء، نحن الآن في عصر "الإعلانات الضوئية":

حديقة الملاهي هاناياشيكي

استمتعوا في نزهاتكم بنسائم الصيف

مفتوحة ليلاً نهاراً

مسرحيات

عروض بهلوانية

مسرح عرائس

عروض موسيقية منوّعة

رقص

هناك فيل وقرد مرسومان بالأضواء الكهربائية يمشيان داخل اليافطة فوق المدخل ويسحبان هذه الكلمات معهما. ورغم أنّ معظم المسارح الصغيرة في أساكوسا قد زيّنت واجهاتها بآرمات النيون في صيف 1930، فإن يافطة هاناياشيكي قد تفوّقت على جميعها.

هذا ما آلت إليه الحديقة العريقة هاناياشيكي. لا شكّ أنّ هناك نساء مزيفات مثل هذه الآرمات الكهربائية قد ظهرن في أرجاء أساكوسا كافة، عوضاً عن كل اللواتي اختفين. سأختار بعضهن، أيها القراء الأعزاء، وأريكم إياهنّ رويداً رويداً.

لكنني أخشى أن تسيئوا الظنّ بي إذا حسبتموني نسخة مبتذلة من "الأديب الخليع" مثل أوتا نامبو، واسمه الفنّي الناسك شوكوشان.

"جنكو إيناري يخاطب كازاموري إيناري ذات يوم ويسأله: لقد سمعت أن هناك في منطقتك فتاة تُدعى أوسِن. كيف تبدو بالمقارنة مع فتاتِنا أوفوجي؟".

هذا المقتطف من كتاب الناسك شوكوشان "تعليقات على المقارنة بين مزايا أوسن وأوفوجي"، وقد حاول فيه تطبيق معايير الفوقية والدونية للحكم على جمال نساء ذائعات الصيت عاصرهُنّ.

وفي أيامنا، درج الشبان الذين يمضون جلّ وقتهم في المقاهي وصالونات الشاي والحليب[78] في أساكوسا على إطلاق هذا التعبير البائد "الأديب الخليع" على الكاتب الذي يستخدم الشائعات لمساعدة راقصات الاستعراض في الوصول إلى الشهرة، خصوصاً إذا كان من المتردّدين على الأكواريوم.

78 صالونات الحليب ظهرت في طوكيو للمرة الأولى سنة 1907، وكانت تبيع الحليب والشطائر الخفيفة.

على أي حال، راج اللون البنّي الغامق لملابس ابنة ممثّل الكابوكي العظيم سيغاوا روكو، عندما لعبت دور أوفوجي التي كانت تنافس بجمالها أوسن كازاموري على خشبة مسرح إيشيمورا، وصار هذا اللون يُعرف باسم "كوروتشا" أو "بُنّيّ روكو". كانت أوفوجي هي ابنة هونريو نيهيجي، صاحب محلّ للوازم الأسنان يقع تحت شجرتَي جنكة توأم وراء معبد كانّون. حتى الباعة الجوّالون كانوا يغنّون جمالها، كما كانت تُباع صورها الملوَّنة المطبوعة على الخشب.

كانت الطباعة على الخشب في تلك الأيام بمكانة الصور الفوتوغرافية لممثلات السينما في يومنا. كانت هناك صور حتى لأوكين الحسناء، بنت تاواراماشي وابنة نبّاش الورق من القمامة، ولكنها مطبوعة على ورق رخيص. رأى رجلٌ صورتها فافتتن بها حتى اختطفها من خطيبها شينكيشي الذي جنّ جنونه. كان هذا الرجل هو كيشيغامي ريوتارو من ميكاساماشي في هونجو، الابن الأصغر لخادم عنده ألف مكيال كوكو[79] من الأرزّ. ليلة زفافهما، أضرم شينكيشي ناراً، فاحترقت بوابة كاميناري. حدث ذلك سنة 1885، مطلع مرحلة كيو[80]. كان عصر ميجي قد بدأ توّاً، ولذا فمن الطبيعي، بالنسبة إلى ابنة خادم ووالديها، أنّ يكون لسليل خادم من خدم الشوغن سحرٌ لا يُقاوَم.

79 مقياس لتقدير الثروة في عصر إيدو. كان الكوكو الواحد يعادل تقريباً كمية من الرزّ تكفي لإطعام رجل واحد طوال عام كامل.

80 اسم العقد الأخير من عصر إيدو.

53

عندما كان عمر أوكين ستة عشر عاماً بِيعت كنادلة بار في كاواغو. والسبب هو النضوب التام لثروات الخدم العاملين لدى الشوغن بعد الإصلاحات التي أجرتها حكومة ميجي. كانت تلك بداية أوكين في تجارة محفوفة بالمخاطر في كاواغو. سنة 1898، حين بلغت أوكين من العمر إحدى وثلاثين سنة، عادت إلى طوكيو لتعمل في ماخور على ضفة النهر في يوشيوارا. كان صيتها في شرب الخمور وسجلّها الإجرامي قد عادا عليها بالشهرة تحت اسم "أوكين سكّيرة النهر". وعندما قاربت الخمسين، لم يبقَ أمامها أيّ خيار آخر غير التشبّث بأكمام الرجال الذين تلتقيهم في الشارع والتنقّل معهم من نزل رخيص إلى آخر. ولما ناهزت الستين، اضطرت إلى كسب قوتها بطرق ملتوية في العمل ليل نهار. اتخذت مسكنها على الأرض. انتقلت من مرحلة شيكي [صاحبة بيت] إلى سوتوشيكي [مشردة من دون بيت]. والسبب عائد إلى أنّ معظم الذين عاشروها كانوا من الشذّاذ. انتهت بالموت ككلب مهمَل عندما كان عمرها اثنتين وستين سنة. الحق يقال، كان موتاً مشرّفاً لأنها ظلت تكدح كامرأة تعمل حتى آخر لحظة في حياتها. لم تنحطّ أبداً إلى مستوى الزوبو [الشحّاذين] الأنذال أو المأفونين، وكانت إذا ثملت، كفّتْ عن السباب بأقذع الشتائم. هناك مشرَّدات أحطُّ من بقية المشرَّدين – أي أولئك اللواتي ما عدن يتسكّعن، بعدما صرن هياكل آدمية ذاوية، واجماتٍ جالسات على مقاعد الحديقة من الصباح إلى آخر الليل، وفي اليوم التالي، يواصلن جلوسهن من جديد، يقاومن على المقعد نفسه عبورَ الزمن. لعلّكم، أيها القرّاء الأعزّاء، تتذكّرون ما

قاله أكيكو ذات مرة في الحديقة: ”أترى؟ إنها واحدة من المجهولات أمثال أوناني ذات الشعر المجزوز. معظمهنّ هكذا. حثالة أساكوسا. ولكنها تبقى امرأة تحرسها الآلهة ما دامت قادرة على الركض. لأن الصعاليك الحقيقيين، في الواقع، هم أولئك الذين ما عادوا قادرين على الركض“.

هؤلاء المشرّدات الذابلات قد كففن عن الكلام أيضاً. إنهنّ يعِشن وسط ضجة الحي التجاري وصخبه من دون أن ينطقْن كلمة واحدة.

”الأجانب يسمّونهنّ ’دعاسيق‘، صحيح؟“ طرحت يوميكو أيضاً هذا السؤال، صبيحة ذلك اليوم في الحديقة.

– دعاسيق؟

– نعم. هذا اسم آخر للخنفساء المنقَّطة، وينطبق على النساء. إذا ترجمناه من الصينية، لوجدناه يعني ”الفتيات الساقطات ذوات اللباس الأحمر الفاقع“. كما يشير إلى النساء اللواتي يضعن كالدعاسيق مكياجهن الصباحي قدّام الناس، ولا يستطعن الطيران. إنهن في الدرك الأسفل من الحضيض.

شابّتان جالستان على السلاسل التي تسيّج روضة الأطفال تهمّان بتبرُّجِهما الصباحي والمساحيق في أيديهما. حزام كيمونو كلٍّ منهما مجعّد، وقد علقت به بقايا من تراب الليلة الفائتة.

صاحب محلّ من محلات الأطعمة قد ركّب خرطوماً مطاطياً إلى حنفية مرحاض في دورة المياه العمومية ليستخدم ماءه في إعداد الأكل.

فأر حقل يقضم الجزمة القماشية البالية ذات النعل المطّاطي في القدم المتدلّية لمتشرّد نائم على مَقْعَد. هذه الفئران تدهشني إلى أبعد حدّ، هذا الصباح في حديقة أساكوسا. لقد رأيتها من قبل وراء منزل الحشرات.

تغادر الشابّتان بعد الانتهاء من التبرُّج. إنهما من السوتوشيكي [مشرّدتان من دون بيت]، نامتا في الخارج على التراب ليلة أمس.

صالونات الشاي بجانب الطريق، حانات الساكي، محلات رمي السهام، صالات عمومية لقراءة الجرائد... أنا واثق، أيها القرّاء الأعزّاء، من أن هذه القائمة تطول، وفي وسعنا أن نضيف إليها عصافيرَ الليل والبغايا والمحظيّات والمومسات والقوّادين والقتلة المأجورين... أما الغوكايا في وقتنا الحالي، فلا شكّ أنكم قد رأيتُم أسماء فتيات كثيرات منهنّ مطبوعة، مثل أوكاتسو الصعلوكة، أوتاما الصاعقة، أويوكي القنبلة، أوهيسا لعوبة العينين... أما أوكين سكّيرة النهر، فلم تكن متسوّلة مثل

أويوشي ذات الشعر المجزوز ولا غبيّة مثل أوكيو البلهاء، بل كانت بين النساء مثالَ المرأة التي هوت إلى أسفل سافلين.

أتساءل ماذا جرى لبنت ريوسنجي التي بدأت تجني المال من عملها قبل أوكين بسنتين؟

وأظنّكم، أيها القراء الأعزّاء، تعرفون أن أوشيو الأخت الكبرى ليوميكو كانت ''دعسوقة تضع مكياجها الصباحي قدّام الناس''. ستعلمون ما جرى لها.

كلب الصيد الألماني

54

يلتمع الإسفلت كأنه معبّد بألواح من رصاص، ونورٌ وردي يتماوج فوقه. أحمر مشرق يضرّج السماء فوق المدينة النائمة الساكنة. منعشةٌ جلبةُ عربات الترام وأصداؤها. الساعة الخامسة صباحاً.

في شمس الصباح التي يتورّد بها جسر كوتوتوي، خطوط متوازية على الإسفلت من آثار البول ليلة البارحة. تبدو حديقة سوميدا كمجسَّم معماري على الأرض، منبسطة ومنسَّقة على شكل حرف H. جسر كوتوتوي هو صلة الوصل الوسطى بين المرسى على رصيف موكوجيما وبين ضفة النهر جهة أساكوسا.

التيارات في نهر سوميدا صفراء حيث تضربها الشمس، بلون الوحل حين تواري السحبُ الشمسَ. ولأن جسر كوتوتوي يخلو من أي بنى فولاذية باستثناء الدرابزين الشبيهة بالأمشاط وأعمدة الإنارة الشبيهة بأقلام الرصاص، فإنه يتّسم بكامل البهجة التي يوحي بها خط مستقيم من الفولاذ وحيد قوي بسيط. عند الوقوف على الجسر تبدو رحابة سهل كانتو منسابة من حولك، رغم أن الهواء قلّما يصفو ليسمح بالرؤية أبعد من جبل تسوكوبا، دع عنك جبل فوجي.

طوله مئة وثمانية وخمسون متراً ونصف. بين الجسور الستة الكبيرة الجديدة فوق نهر سوميدا، جمال جسر كيوسو في منحنياته، وجمال جسر كوتوتوي في استقامته. كيوسو امرأة. كوتوتوي رجل.

تضغط أوناتسو خدّها على فولاذ الدرابزين وتقول: "آه، إنه بارد!". عمرها ستة عشر عاماً ومكياج ثقيل يغطي وجهها على الدوام. ولكن من عادتها أن تعضّ شفتيها. ولهذا طلاء شفتيها الأحمر القاني يلطّخ زاويتي فمها غالباً. يرى الرجال في هذه اللطخات علامة على سهولة نيلها وفي النتيجة تستدرجهم. لا تزال شفتاها هذا الصباح ملطّختين، بحمرة الليلة الفائتة طبعاً.

– يا ولد القارب، لا يزال الضباب طافياً فوق الجسر. هل ترى؟ إذا نظرتَ بعيداً، لرأيت أنها لا تزال تمطر هناك.

– أظنّ ذلك.

– كأنك نعسان؟

– لا أستطيع النوم حالياً. لا بد لي من مراقبتكما أنت وأوشيو! ألا تستطيعين، منذ الليلة، أن تربطيها إليك بقطعة سلك أو أي شيء آخر لتجبريها على النوم بجانبك؟

– الضباب يلتصق بوجهي.

خدُّها الأيمن مُبقَّع، كأنه قد امتصّ بياض المساحيق.

– أتعرفين هل هذا ضباب أم ندى؟

ليموزين[81] تتّجه من هونجو إلى أساكوسا، سيارة تاكسي الين الواحد تركبها امرأة ترتدي معطف هاوري بنفسجي اللون ذاهبة من هونجو إلى أساكوسا، بائع معكرونة صيني على طريقه إلى البيت من هونجو إلى أساكوسا، فريق من لاعبي البيسبول الشبان يمشي من هونجو إلى أساكوسا، عدّاء ماراثون يعدو من أساكوسا إلى هونجو، ليموزين أخرى متّجهة من هونجو إلى أساكوسا، امرأة تنتعل صندلاً خشبياً من دون جوارب وترتدي فستاناً من حرير أبيض يشفّ كالشاش كاشفاً جسدها كله، تذهب من أساكوسا إلى هونجو، ولأن الضوء الآن قد انبلج تغذّ خطاها كأنها لا تريد أن يلحظها أحد، ولكنني لا أستوعب لماذا ترتدي ثوباً رقيقاً إلى هذا الحدّ تكاد تكون عارية تحته. ما عدا هذا المرور وبضعة عمّال في شاحنة، لا أحد يعبر، ولا حتى سيارة تاكسي فارغة.

81 كانت العربة المغطّاة لنبّاش القمامة في أساكوسا تسمَّى أحياناً "ليموزين".

– كان الضباب فظيعاً عند منتصف الليل في سهرة رأس السنة. أنقذ الضباب حياة يوميكو، صحيح؟

"أوووه، نعم!" وولد القارب واقف على درابزين الجسر وفي كل من يديه فردة صندل من قشّ نعله خشبيّ.

إنه يمشي على الدرابزين كالسائر على حبل مشدود. يبلغ ارتفاع هذا الدرابزين صدر فتاة بالغة، ولا تزيد سعته عن شبر واحد.

"لا تتحامق!"، وتبدأ أوناتسو الركض بأقصى سرعة.

يُحكى أن ولداً قد سرق كرة البلاتينيوم من قمة مانعة الصواعق فوق المدخنة الكبيرة لموقد إحراق القمامة في سوساكي. كما تقول شائعة أخرى إن ولداً صاح كالديك فوق قمة معبد الأسطحة الخمسة في أساكوسا. ثم هناك الولد الذي سرق غمد السيف من تمثال دانجورو.

هناك قصص كثيرة عن هؤلاء الطائشين. بنيت دورة المياه العمومية وسط التلة الصناعية قبالة حديقة الملاهي هاناياشيكي على الضفة الشرقية لبركة هيوتان، وأصبحت الحديقة على سطحها

الإسمنتي مكاناً للاستمتاع بالنسائم المنعشة ومأوى للنوم، ودرابزينها ضيق كدرابزين جسر كوتوتوي. هل سبق ولاحظتم، أيها القرّاء الأعزّاء، الفتى الذي ينام دائماً على ذلك الدرابزين؟ وجهه نحو السماء، كتفاه يتدلّيان كلٌّ في جهة، وكذلك قدماه.

رأيتُ بضعة أطفال يمشون على درابزين جسر كوتوتوي. دائماً في الصباح.

"ها أنا الآن قد استيقظتُ أخيراً"، ويهبط السلالم قافزاً كل أربع درجات بخطوة واحدة، متجهاً إلى حديقة سوميدا، ويركض تحت الجسر، صارخاً بأعلى صوته: "أحْـمَـــــــق! أحْـمَـــــــق! أحْـمَـــــــق!".

والفولاذ يُرجِعُ الصدى.

55

الأعمال في الحديقة مستمرّة.

نلفت عنايتكم إلى تجنب المشي على العشب الجديد المزروع.

تفتح الحديقة من الساعة 8 صباحاً حتى الساعة 7 مساء.

أوناتسو تنتظر أمام هذه الشاخصة عند مدخل الموقع السابق للمبنى السكني ميتو.

المشرَّدون على المقاعد تحت طرفي الجسر يرفعون رؤوسهم. لقد أقلقَتْ أصداء الفولاذ رقادَهم.

هذا المكان المسقوف بالفولاذ، ذو الجدران الإسمنتية ونسائم النهر التي تهبّ عبره، ركن مثالي لهناءة النوم في الصيف. لعلّكم، أيها القراء الأعزاء، قد قرأتُم في الجرائد عن المهرجان الغريب للشحّاذين الذي جرى أخيراً في منتصف يوليو. كانوا يدقّون الدلاء القديمة ويلوّحون بالأسمال كالرايات وجميعهم سكارى يغنّون ويرقصون. كأنهم في يأسهم يطردون الأرواح الشريرة ويرفعون صلواتهم من أجل هذا العالم في عزّ الركود الذي كاد يحرمهم الصدقات.

"فليقل الناس ما يشاؤون، أما أنا فمطّلع على حقيقة المشهد هنا. أعلم تماماً أي كلاب تجوس تلال أوكوياما في أساكوسا. أعرف أيّ كلب أبلق اقترن بأي كلبة بيضاء، وأيّ جرو أسود طارد أيّ كلب أحمر قرب بركة هيوتان"، هذا ما كان يتفاخر به خبير أساكوسا ساتو هاشيرو. وكانت الكلمات الأولى في مداخلته أثناء "طاولة نقاش مستديرة حول غرائب طوكيو" هي "حتى الأحداث الجانحون جوعى الآن".

لا أعلم إن كان الجوع هو السبب أم لا، ولكن موضة ''الموهبة'' و''المنافسة'' قد بطُلتْ، وحلّت في مكانها أخيراً موضة جديدة هي أن تتزعّم فتاةٌ جميلة إحدى العصابات. هذا ما يحدث في أيامنا على الأقل.

– أحْ–مَـــــــــق! أحْ–مَـــــــق! أحْ–مَـــــق!

يصيح ولد القارب، ويعود أدراجه راكضاً بالسرعة القصوى، فيستفيق الشحّاذون رافعين رؤوسهم كأطفال تسلّيهم أصداء الصيحات التي يردّدها الفولاذ.

كلّ ما تبقّى من المبنى السكني السابق ميتو هو أرض خضراء فسيحة. بضع شجيرات دفلى مزهرة. ثمة في الوسط حديقة يابانية، عشبها داكن الخضرة صباحاً مثل حديقة في قصر أوروبيّ.

– أترى؟ إنه الضباب.

ثمة بياض يطفو فوق اخضرار العشب. مثل غلالة خفيفة تنعش القدمين كأنّهما تغتسلان. تفتح الحديقة في الثامنة، لكنّ أهل الحيّ قد أبكروا في الخروج إلى النزهات مع كلابهم وأطفالهم.

فتاة وكلب صيد ألماني يجلسان على نصف دائرة من العشب محاطة بأشجار لاركس[82]. تبدو هذه الفتاة بهندامها الفوضوي وشعرها المشعث متنافرة مع أناقة المنظر المنسَّق، كأن أجنبياً قد رسم مشهداً يابانياً.

82 شجرة معمّرة إبرية الأوراق شائعة في اليابان. قد يُعرَّب اسمها أحياناً إلى ''أرزيّة''.

يركض الكلب صوبنا متواثباً، ويضع براثنه الأمامية على ظهر أوناتسو.

''تِسو، تِسو، أهذا أنت؟ ما دمتَ مع أوشيو فلا داعي إذن لقدومنا إلى هنا''، وتداعب خطمه. وبره بارد. ثمة دم على يد أوناتسو.

''أوه!'' خائفة ترمق يدها. ''أوشيو، هل حدث شيء لتِسو؟''.

''نعم، كان في عراك''، تقول أوشيو ضاحكة.

– مع كلب آخر؟

– بالأحرى مع شحّاذ.

– مع رجل؟

– غريبة أنتِ. أليس الشحّاذون رجالاً؟

''لا أمزح يا أوشيو. ربما أنتِ مجنونة، لكنك امرأة! يُستحسن أن تلزمي الحيطة''، أوناتسو تساعد أوشيو لتنهض على قدميها، وتنظر إليها ملياً:'' أوه! اليوكاتا الذي ترتدين مبلول بالكامل. كان

الضباب كثيفاً ليلة أمس. هل نمتِ هنا؟‘‘.

– ليس هنا.

– أين إذاً؟

تمشي أوشيو وتبتعد صامتة.

– هل عضّ تِسو أحداً من أولئك الشحّاذين؟

’’غالباً هذا هو سانكيشي الوسيم المعجَب بنفسه‘‘، يقول ولد القارب بين تصفيرين.

– هل هو صاحبنا سانكيشي الذي يأتي دائماً للاغتسال في النافورة وراء معبد كانّون؟

– ألا تدري؟ إنه يلاحق أوشيوتنا دائماً، لأنها كانت تُدعى الفراشة منذ سنين، وهو الآن يجوب أساكوسا ويغنّي: ’’أوشيو وسانكيشي، سانكيشي وأوشيو‘‘.

شيئاً فشيئاً يتبدّد ضباب الصباح عن المرج الأخضر. يطلع العشب اليانع من التراب.

تبدو أوشيو مثل فتاة متأنقة من وسط المدينة، مع اليوكاتا المزين بأشكال تشبه حراشف الأسماك وحزام الهاكاتا الأبيض الأنيق العريض غير المبطَّن، لولا الوحلُ الطريّ الملتصق بهما، ورائحةُ التراب التي تفوح من المشرّدين. الليل والنهار سيان لديها. لو غفلتْ عنها العين، لاختفت في الحديقة.

وعندما نشارف على الوصول إلى الضفة المعبّدة بالإسفلت، تشير بإصبعها إلى مقعد في ظلال الصنوبر: ’’كنتُ هناك‘‘.

– هناك؟ هل تقصدين ليلة البارحة؟ هل نمتِ وحدك؟

’’كلا. كنّا أربعة. ثلاثة رجال، ولكن تِسو تكفّل بهم‘‘، تقول أوشيو من دون اكتراث.

56

مقارنةً بالحدائق على ضفاف الأنهار في كبرى مدن العالم – البوتوماك في واشنطن، التيمز في لندن، السين في باريس، الدانوب في بودابست، الإيزار في ميونخ – يتباهى مكتب إعادة الإعمار وجمعية البستنة بحديقة سوميدا، إذ لا نظير لها في وفرة المياه ورحابة الإطلالة البانورامية وصفوف أشجار الكرز واتّساق المناظر. إنها تغطّي مساحة 6.677.187 متراً مربّعاً، ويبلغ طول مرسى موكوجيما 170.1 متراً.

أوناتسو ورفاقها واقفون عند الطرف الجنوبي للحديقة، بقرب الجسر الحديدي لسكك القطار الشرقية في محطة تابو، يحدّقون إلى أعلى النهر. سطح جسر كوتوتوي يلفّه ضباب الصباح مثل لوحٍ معبَّد بالإسفلت لا يزال ندياً يلتمع.

النهر، الضفة والصفصاف، ممشى، صف من أشجار الكرز، ممشى، صفّ من أشجار الكرز، ممشى، صف من أشجار الكرز – هذا هو المخطط الرئيسي، وأشجار الكرز تشكّل أربعة أعمدة حول مستطيل العشب الأخضر، وبالمثل ضفة النهر المحفوفة بالصفصاف مفروشة بالعشب.

– ظننتُ أنني شممتُ رائحة قوية كرائحة البحر، والآن فهمتُ السبب.

– هه؟ ماذا تقصد؟

ولكن ولد القارب لا يستطيع أن يقرأ الشاخصة:

مكتب الرقابة البحرية في وزارة الداخلية

محطة موكوجيما لمعالجة المياه المالحة

ربما لأن اليوم الأحد، ثمة أشخاص على امتداد النهر من جهة أساكوسا، من طرف جسر آزوما حتى هاشيبا، ملابسهم بيضاء موحّدة ينصبون شباكاً هنا وهناك. هواة بيسبول.

يبدأ الولد الركضَ مع الكلب. أوناتسو تنادي الكلب ليعود. الولد يناديه مرة أخرى. وفيما الكلب الراكض يرسم قوساً كبيراً بينهما ذهاباً وإياباً، تغفو أوشيو على المقعد.

"جرائد! جرائد! إليكم جريدتكم! طبعة الصباح مع إعلانات العمل!"، لا بد أن هذه هي الساعة التي يباشر فيها باعة الجرائد جولاتهم من مقعد إلى آخر في حديقة أساكوسا. لا بد أن هذه هي الساعة التي يباشر فيها رجال الشرطة بملابسهم البيضاء جولات تفتيشهم لجمهرة المشرَّدين.

يفرك شابٌّ جفونه المثقلة بالنوم، شارحاً هوية الفتى الذي معه: "إنه جنديّ".

ولا يصحو الفتى إلى جوار الشاب رغم أن الشرطيّ يهزّه هزّاً عنيفاً. وعندما يفتح إحدى عينيه أخيراً، ناعساً يسمع: "تعالَ معي".

مرتبكاً، يلتقط سيدارته وسترته العسكريتين اللتين كان قد خبّأهما بين الشجيرات وراءه، وتتدلّى جعبته العسكرية من كتفه ثم يسوقه الشرطيّ مع صاحبه الشابّ إلى المخفر. النزلاء المشرّدون الذي يرتادون "فندق الهواء الطلق" لا يلتفتون إلى مثل هذه المشاهد.

لا بد أنّ هذه هي الساعة التي يمدّ فيها الباعة الجوّالون[83] بسطاتهم المهلهلة في شارع ناكاميسه، ليلفتوا انتباه المتنزّهين والمارّة والزوّار الصباحيين للمعبد، مستغلّين الفرصة لأن المحلات على

جانبَي الشارع لا تزال مقفلة، محاولين أن يجنوا بعض المال من بيع ما اتّفق لهم:

83 "التِكْيا" الذين كانوا أحياناً من أفراد العصابات الصغيرة.

خرائط جغرافية، وسائد هوائية منفوخة، فئران، كتب مبسّطة لتعلّم الصينية، عطور، غلايين، جوارب، مكانس، أقنعة من فخّار، أحزمة مزركشة بعلامات الأبراج الصينية الاثني عشر، ياقات كيمونو، سلاحف صغيرة حيّة، خردوات كل قطعتين بخمسة صنّات، ملابس أطفال، أعشاب طبية صينية، قشور يقطين طازجة ومجففة، أحجار زينة للحدائق، سيور صنادل، حمضيات، زنابق مائية مع جذورها، شرائط تزيين، أباريق سقاية صغيرة، قواعد للمزهريات، مراوح، دبابيس زينة للشعر، دمى بلاستيك، شتلات من نخل الساغو، مناديل، سردين مجفّف وطازج، تنانير، خواتم، قطع من ثعابين مشويّة، حبل رفيع، دفاتر مع آلات حاسبة، كتب مستعملة، زيز يغنّي، ثياب نوم دافئة للأطفال تقيهم الزكام، مرايا، كتب أبراج، فُرَش للكتابة، أزهار مقطوفة، قبعات، صناديق صغيرة مقدودة من خشب الباولونيا، شتلات أشجار، حمّالات بناطيل، قمصان داخلية، صنادل خشبية، محافظ نقود، جيرانيوم، أعشاب طبية لعلاج الإسهال...

هذا ما رأيتُ، ذات صباح من يوليو، على البسطات في شارع ناكاميسه.

على جسر كوتوتوي، تبيع البسطات القهوةَ المثلّجة – الفنجان بصنّين وثلاثة فناجين بخمسة صنّات – والجوارب النسائية والكمّثرى ومنظّفات مزيلة للبقع خاصة بالقبعات وبيادق الشطرنج وقطع الغُو وشرائح البطّيخ.

وحده الكلب منتعش في الصباح لأن أوناتسو وولد القارب نائمان. هذا هو الكلب الذي سرقه كومادا من بيت عمّه بناء على طلب يوميكو، وحين كان جرواً درّبته على حماية أوشيو.

كومادا هو صاحبهم الذي كان يراقب الكورينايِ–مارو بمنظار من قمة برج المترو، وهو حبيب أوهارو. لا أحد يعرف السبب وراء امتناعه عن تقصّي سيرة أوهارو. لن تفهموا ما أقول إذا لم أوضّح لكم ماضيها قليلاً.

حين كانت أوهارو خادمة في نزُل في فوناغاتا شيبا، في عمر خمسة عشر أو ستة عشر عاماً، كان حلم حياتها الوحيد أن تصير كوافيرة في حي الغيشا في طوكيو. زائرٌ من زوار الصيف في النزل وعدها بتيسير الأمر. لم يكن يكذب عليها. دبّر لها عملاً متمرّنة لدى كوافيرة في أساكوسا، وإن كان محتالاً سلبها النقود التي ائتمنته عليها لتغطية نفقات السفر. كان صالون الكوافيرة يطلّ على الشارع، قرب مسرح شوا حالياً وقرب محل أريتاكِه للحيوانات المنزلية.

وقبل أن تدرك أيّ شيء، كانت قد بِيعَتْ من دون علمها وتناقلها الرجال، وهذا ما عجزت فتاة ريفية مثلها عن فهمه.

شوارع تتصادى فيها الأعيرة النارية

57

"خالة لطيفة حقاً...". ثمة كثيرات مثلها.

في البداية، تدّعي أنها زبونة جديدة، ولسانها معسول. إنها تولي أوهارو اهتماماً خاصاً دون بقية الفتيات الأربع أو الخمس اللواتي يساعدنها. تسألها هل وُلِدت في بوشو[84]. تقول إن لكنتها تبيّن مسقط رأسها.

84 الاسم القديم لشيبا.

– لقد أمضيتُ صيفاً في بوشو، في منطقة اسمها فوناغاتا.

– حقاً؟

– أجل. ألستِ من تلك النواحي، عزيزتي هارو؟ لا تحسبيني من الطبقة المخملية لأعيش في مثل تلك المنطقة الفخمة. في الواقع، كنتُ فقط أصحب أولاد أختي الصغرى إلى السباحة بصفتي مربّيتهم.

تلتقي أوهارو بهذه الخالة اللطيفة بضع مرات في الحمّام الشعبيّ. أوهارو تفرك العنق الأسمر للخالة بكيس صغير من قشور الأرزّ، بينما الخالة لا تكفّ عن التغنّي ببياض بشرة الفتاة الصغيرة. وعلى طريق العودة تدعو أوهارو إلى حساء الفاصولياء الحلوة. تمرّر إليها خلسة بطاقاتِ المسرح. حين تذهب أوهارو إلى المسرح تتسلّل الخالة اللطيفة إلى المقعد المجاور لها من دون أن تنتبه. ثمة شابّ معها. طالب جامعيّ مقيم في الطابق الأوّل من بيت الخالة.

– بمقدوري شراء بطاقات أخرى، ولكن إذا أعطيتُها لك وحدك وفضّلتُك على باقي الفتيات في الصالون، فسوف يغرْن منك. ولهذا يا عزيزتي هارو، لماذا لا تأتين إلى بيتي في يوم عطلتك المقبل؟

– حسناً، ولكن...

– أوه، لا تخشي شيئاً. أؤكّد لك لا تخشي شيئاً، يا عزيزتي أوهارو! نسيتُ أنك لا تعرفين أين أسكن. سأريك العنوان اليوم على الطريق إلى البيت. لديك وقت لتزوريني، أليس كذلك؟

يقع بيتها في كوماغاتا.

ما دامت الخالة تقيم في كوماغاتا، فلماذا ستحيد عن طريقها لتأتي إلى حمّام شعبيّ قرب حديقة أساكوسا؟ ينبغي لأوهارو أن تطرح على نفسها هذا السؤال.

تدخل أوهارو غرفة الجلوس. تسمع الخالة تقول لطالب الجامعة أيّ مستقبل مشرق ينتظره. يتظاهر طالب الجامعة بالخجل، كأنها تحرجه. لكن أوهارو مجرد خادمة سابقة في نزل ريفي حلمها الوحيد في الحياة أن تصير كوافيرة. ولهذا لا يغريها مثل هذا الكلام عن المستقبل المشرق، فتستعجل الرجوع إلى البيت. ولكنها في يوم عطلتها التالي، تذهب لزيارة الخالة في بيتها.

وينقضي شهر. ذات مساء، تأتي الخالة لتصفّف شعرها بعد التاسعة ليلاً، وذراعاها محمّلتان بالأغراض.

– عليّ الذهاب لأرى أقرباء في أوينو، ثم انتبهتُ إلى أن الصالون على الطريق ولن أرجع إلى البيت حتى وقت متأخر. عندما أذهب إلى التسوّق أعود دائماً محمّلة بالأغراض.

– تستطيعين أن تتركيها هنا، إذا أحببتِ.

– شكراً! وإذا لم يزعجك الأمر، توفيراً لأجرة التاكسي، فكرتُ إذا كانت عزيزتي هارو ستتكرّم وتقوم برحلة صغيرة إلى بيتي لتوصل الأغراض إلى هناك.

– كما تريدين.

وفي صباح اليوم التالي، تصحو أوهارو في الطابق الأول من بيت الخالة فتجد نفسها عارية في السرير. مشدوهة، تمرّر يديها على وركيها، وتتحقّق من أنها عارية فعلاً. الطالب الجامعيّ قد اختفى. تقفز من السرير وتسارع إلى إشعال الضوء، فترى في المرآة جسدها الأبيض العاري. تفتّش تحت اللحاف، لكنّ شراشف ليلة البارحة قد اختفت أيضاً. تفتح خزانة الثياب فتجدها فارغة. لا شيء لتكسو به عري جسدها، ولا حتى حزام الكيمونو. تعود مسرعة لتندسّ في الفراش كالممسوسة. تقرّب ركبتيها وتتكوّر على نفسها، مضطربة، مرتجفة، كأنها تخجل أو تخشى أن تلمس جسدها العاري بيديها، غير مدركة حتى أنها تبكي.

لكنها قلقة. حائرة ماذا ستصنع بنفسها، تنهض مرة أخرى. تجلس قدام مرآة الزينة، تتأمّل جسدها العاري. يرين الهدوء. تتساءل لماذا تستغرب عريها إلى هذا الحد، وتكفّ عن البكاء بغتة. وبعد محاولتها أن تتلصّص على ما يجري أسفل الدرج، تعود لتدور أمام المرآة، وتتملّى جسدها العاري. تتلصّص مرة أخرى على الطابق السفلي وتعود على رؤوس أصابعها لتقف أمام المرآة، محملقة بانعكاس جسمها الغريب. ثم تقع أرضاً، فتستلقي على جانبها، وبدلاً من أن تجهش بالبكاء يجلجل ضحكها. لقد وُلدت امرأة جديدة.

وهكذا، طوال الأيام الخمسة التالية، تستلقي أوهارو عارية بالكامل في فراش الطابق الأول.

58

ساعات الدوام من شروق الشمس إلى منتصف الليل.

لا يسمح للزبائن باللعب إذا كانوا سكارى.

يُمنع مناداة أشخاص من الشارع وإدخالهم دون إذن.

الرجاء احترام الآداب العامّة.

الدخول إلى غرفة البنادق ممنوع منعاً باتاً، باستثناء صاحب المحلّ وطاقم العمل.

بأمر من السلطات، يُحظر على العاملين قبول البطاقات المجانية أو الهدايا أو الإكراميات.

هذا ما تنصُّ عليه القواعد في اليافطة المعلقة إلى الجدار قرب طاولة البنادق في نادي الرماية. ثمة قصاصات متسلسلة كقلادة ورقية معلّقة على قمة الرفوف، رسمت على كل قصاصة علبة سجائر شيكيشيما[85] مثل زينة السنة الجديدة في المعابد، وعلى الرفّ الثاني هناك سجائر شيكيشيما وسجائر الخفاش[86]، وتحت هذين الرفّين رفُّ الدمى والسكاكر. على الطرف الآخر من الأرضية الخشبية التي يقارب طولها مترين، في نادي الرماية، هناك الطاولة وفوقها البنادق والطلقات المغلفة بالمطّاط، وقد ثُبِّتت المرايا إلى الجدارين الجانبيين وعُلّق بساطٌ مطرز مثل ستارة مسرح، وفي هذا المحل الذي لم يتغيّر على مرّ الأزمنة تقف فتاة شعرها مصفَّف ومعقود على شكل ورقة جنكة.

85 ماركة سجائر فاخرة طرحت في الأسواق للمرة الأولى سنة 1904.

86 سجائر "الخفاش الذهبي" بيعت للمرة الأولى سنة 1906، وكانت أرخص من سجائر آساهي وشيكيشيما، وغالباً ما كانت تُدعى "الخفاش" فقط.

– لن نتحوّل فجأة لنصير نادي ماهجونغ[87]. لن تخلعنا هذه اللعبة عن عرشنا. إنها مجرد صرعة عابرة. أما لعبتنا، فتقاليدها عريقة.

87 لعبة صينية من ألعاب التسلية أو القمار.

كنتُ أودّ لو أضفتُ بدوري: "أما المستجدّات منكنّ، أيتها الآنسات، فينبغي لهنّ مواكبة العصر. فلتتغيّر تسريحة الموموواره إلى قصات الشعر القصير".

على أي حال، وراء مسرح الحديقة والدنكيكان ومسرح أساكوسا، أو بكلمات أخرى، في القسم الخلفي من المنطقتين الأولى والثانية في حي روكّو في أساكوسا، يقع المركز الرئيسي لهواة الرماية

حيث تصطفّ طوابير المنتظرين. أما المركز الثاني الأكثر شعبية، فهو الناحية الغربية من روكّو، ولا سيما وراء سينما طوكيو ورابطة أساكوسا لفنون الأداء. وثمة مركز آخر على شيء من الفوضى، وراء حديقة هاناياشيكي، لا يزال يضمّ إجمالاً قرابة أربعين نادياً. طلعت أوهارو من هذه "الشوارع حيث تتصادى الأعيرة النارية"، مرتدية ملابس غربية، نازلة من سرير الطابق الأول في بيت الخالة حيث استلقت عارية بالكامل. وسمَتْ نوادي الرماية انطلاقةَ حياتها في أساكوسا.

وقتذاك كانت جمعيات الرماة قد درجت على تنظيم الكثير من مسابقات الرماية. لم يكن غريباً ولا نادراً أن يسدّد زبونٌ النار في مئة أو مئة وخمسين جولة، وكان هناك أناس كثيرون في أرجاء الحيّ لا يستطيعون النوم من دون سماع الأعيرة النارية. كان هناك شابّ ذو ذراع واحدة اسمه أوغاوا يلازم نادي ساكورادا حتى بات عاجزاً عن مفارقته، وعندما أعطاه صاحب الكشك بعض المال ليسافر في رحلة، غادر وهدفه أن يصير ممثلاً شهيراً في طوكيو أو أوساكا، لكنه عاد صبيحة اليوم التالي ليقف منتظراً على أحرّ من الجمر أمام الكشك المجاور. هذا مثال أوّلي عن سحر نوادي الرماية في تلك الأيام.

كنا ثلاثتنا، هيكو الأعسر وأويتو ذات الشعر المصبوغ المرسل وأنا، قد ذهبنا مع دليلتنا أوهارو إلى نادي رماية في مساء اليوم الفائت.

كان قد تناهى إلينا أن بعض الفنانين المتمرّنين، الأعضاء في نادي إيما، يرتادون نوادي الرماية، وأراد هيكو الذهاب والتحقّق من الأمر. وأنا كنت راغباً في اللقاء بالفتاة في نادي كيراكوتاي لأن بحوزتها الكثير من المواد الصالحة للقصص.

يقع الكيراكوتاي أمام غرفة الملابس وراء مسرح الحديقة. قدّام مدخل هذه الغرفة هناك أعضاء من طاقم العمل يتنسّمون الهواء العليل. ممثلات عاريات ينظرن إلينا من النافذة في غرفة الملابس.

لا تساور أوهارو أدنى رغبة في الإمساك بالبندقية، وتكتفي باسترجاع ذكريات الأزمنة الماضية مع الفتاة التي صفّفت شعرها على شكل ورقة جنكة.

– كنتِ جميلة مثل دمية فرنسية. آه! أوهارو العروس. لا أزال أراك هكذا حتى الآن. وذلك الرجل... ماذا يعمل حالياً؟ عندما كنتِ تأتين إلى نوادي الرمادية، كان الناس يقولون دوماً إن المسرحيات لا تبدأ لأن الممثلين يتزاحمون على الشبابيك كي يروك. كانت الملابس الغربية التي ترتدينها غريبة تماماً وقتذاك.

– والغريب أيضاً أنك لم تتغيّري قيد شعرة طوال هذه السنين العشر.

– ولكنك لم تكوني تعرفينني منذ عشر سنين.

لاحقاً، شرحت لي أوهارو الأمر: كانت عائلة في الريف قد تبنّت الفتاة في الكيراكوتاي بعد ولادتها مباشرة. كان أبوها الحقيقي مغنّياً يؤدّي أغنيات نانينوا بوشي. كان يتنقّل دائماً من نادي رمايته إلى مسرح اليوز في الحديقة. ولما بلغت الفتاة عمر الثامنة عشر، زارت أباها، وأثناء مساعدته في نادي الرماية بدأت تستقرّ هناك شيئاً فشيئاً وتورّطت في المهنة.

كان ذلك منذ اثني عشر أو ثلاثة عشر عاماً، ولكنها لا تزال تبدو حتى الآن بعمر الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين. في هذه الأيام، تولّت نادي الرماية وفتحت بقالية لأبيها. ثم استدعت والديها بالتبنّي من القرية وتعهّدتهما بالرعاية أيضاً.

تردّدت أوهارو على نادي الرماية ستّ سنين أو سبعاً. واليوم يصعب عليهم جني عُشر ما كانوا يجنونه يومذاك، وفي أحسن الأحوال، إذا حالفهم الحظ، لا يربحون إلا أربعة ينات أو خمسة.

"كان عملنا ينمو ويتّسع حين كانت هاروّتنا تلعب دور العروس"، وكان لقول الفتاة أسباب وجيهة، لأن تلك المرحلة كانت جميلة بحقّ، إذ بعد أيام العسل تلك، هناك في نادي الرماية، عثرت أوهارو على كوماداها.

59

لم يكن سراً أن الفتى القاصر الذي استدرج أوهارو من شيبا إلى طوكيو كان جانحاً يسطو على المصايف والمنتجعات، وما كان تشغيله لأوهارو لدى كوافيرة إلا من قبيل إيداع البضائع المسروقة في مكان آمن إلى حين.

كان قد باع إلى أحد رفاقه كل ’’الحقوق‘‘ الخاصة بها، بما فيه حقُّ بيعها إلى شخص آخر. لم تكن أوهارو تشكّ في أي شيء، حتى اشتراها ترّاساكا، الطالب الجامعي من الطابق الأول في منزل الخالة التي رأت أن من السهل خداعُ هذا المغفّل ترّاساكا.

كان بيت الخالة ’’داراً خاصة للمتعة‘‘، والخالة قوّادته. زوّدت تراساكا بطلبه من احتياطيّها، وكانت البضاعة التي اشتراها من النخب الأوّل. كانت الخالة، على حدّ قولها، تنتفعُ من المغفّلين أمثال تراساكا. فعلى سبيل المثال، لو كانت أوهارو قد تمكنت من الهرب تلك الليلة، لكانت الخالة حينذاك تمضي وقتها في منزل أقربائها في أوينو. لم يقلقها الأمر. كانت فكرة ذكية أن ترغِم أوهارو على البقاء عارية بالكامل من دون أي ثياب لكيلا تستطيع الهرب. بالطبع، كان استئجار تراساكا للطابق الأول من بيت الخالة مجرد كذبة.

وبعدما طلب تراساكا من أوهارو الصعود إلى الطابق الأول، رأت الحديقة الحجرية المنمنمة داخل تجويف في جدار الغرفة، ثم طاولة الزينة والمرآة ومشجب الكيمونو الأحمر، وأدركت من الفور أن هذا الديكور جزء من مسرحية لا غير. ولمّا فتحت الأغراض التي أوصت الخالة بأخذها إلى البيت لم ترَ سوى ثلاث مخدات قديمة.

’’حاولتُ كثيراً استرجاع ما جرى، لكنني لم أتمكّن قطّ من تذكّر المشاعر التي انتابتني وأنا أنظر إلى جسدي العاري في المرآة‘‘، هذا ما زعمته أوهارو. لكنها، أثناء أيام العري الخمسة تلك، كانت قد تولّهتْ بتراساكا. هل كانت بهذا الغرام الجارف تتلافى خطراً ثانياً، أي احتمال بيعها كأيّ غرض؟ لم تكن تعي ذلك حينذاك. كانت خجولة في البداية، ثم استجمعت في قمة اليأس شجاعتها وقد بلبلت تراساكا بجمالها المبهر، فلم يبعها، بل أجبرته على شراء ملابس غربية الطراز من أجلها، وبدأت تتردّد على نوادي الرماية بصفتها عروس ترّاساكا. وكانت إذا صادفت زميلاتها الفتيات المتمرّنات في صالون الكوافيرة، تكبّرتْ وأشاحت بوجهها عنهنّ.

كان من عادة تراساكا وأصحابه أن يتوقّفوا في نوادي الرماية عند عبور الحديقة ذهاباً وإياباً. كان هذا عُرفاً من أعراف صحبتهم. كان ركنهم هو كشك الخفاش مقابل الكينشاتي، صاحبه رجل عجوز، ومعه ابنه وشقيق العجوز العالة عليهما. الغريب أنه لم يكن يوظّف أي امرأة.

أسقِطْ ثلاث علب من سجائر شيكيشيما بأربع طلقات واربحْ خمسة وعشرين صنّاً.

أسقِطْ ثلاث علب من سجائر شيكيشيما بثلاث طلقات واربحْ ثمانية عشر صنّاً.

أسقِطْ قلادة شيكيشيما الورقية بثلاث طلقات واربحْ ثمانية عشر صنّاً.

أسقِطْ قطة الخزف فوق علب شيكيشيما بثلاث طلقات واربحْ ثمانية عشر صنّاً مع علبة شيكيشيما.

أسقِطْ ثلاث علب من سجائر الخفاش بثلاث طلقات واربحْ علبة سجائر آساهي وسبعة صنّات.

أسقِطْ أربع علب من سجائر الخفاش بأربع طلقات واربحْ ثمانية عشر صنّاً.

أسقِطْ الدمى الفاخرة بثلاث طلقات واربحْ عشرين صنّاً.

أسقِطْ الدمى العادية بخمس طلقات واربحْ عشرة صنّات.

أسقِطْ العُلب بخمس طلقات حسب تسلسل الكلمات واربحْ ثمانية عشر صنّاً.

اليوم، لا نزال معتمدين هذه الخياراتِ التسعة على منوال اللعب في الماضي بالضبط.

لكنّ روّاد أساكوسا يحاولون دائماً التسديد على علب الخفاش الثلاث، رغم وجود تلك الخيارات التسعة منذ غابر الأيام. لا تكاد ترى أحداً يحاول التسديد على علب شيكيشيما الثلاث أو الشيكيشيما المرسومة على القلادة الورقية.

بالطبع، كان الرماة المهَرة أمثال تراساكا بارعين في التسديد على علب الخفاش الثلاث، ولا يدفعون في كل جولة رمي إلا صنّين اثنين ثمن الطلقات. كانت النوادي ستقفل أبوابها لو أعطي الرماة علب السجائر في كل مرة، ولهذا كانوا يتركونهم يترفّهون ويتسلّون مقابل صنّين فقط.

كما كانت تجري مسابقات رياضية يختبرون فيها فنون الرماية المختلفة وتحتدم المنافسات على إسقاط علب السجائر.

على أي حال، كان هناك في تلك الأيام فتى عمره خمسة عشر أو ستة عشر عاماً يأتي كل يوم للرماية في كشك الخفاش. كان يأتي عند الظهر ويتسلّى نصف ساعة، ثم يعود ليتسلّى ساعة أخرى عند المساء. وذات يوم، لازم المكان بعد الظهر وطلب السوشي والساكي لشقيق العجوز، ولم تبدُ عليه أي رغبة في المغادرة حتى الحادية ليلاً.

عند الطرف الآخر للنادي الملآن بأكوام من علب الخفّاش، هناك ثلاث علب منصوبة تفصل بينها علبتا كبريت. المفروض أن يُسقِط الرامي بثلاث طلقات العلبَ الثلاث من سجائر الخفاش من دون أن يصيب علبتَي الكبريت. في الجولة الثانية هناك علبتان من سجائر الخفاش موضوعتان بزاوية قائمة في القسم الخلفي من طاولة سجائر شيكيشيما، والمفروض إسقاطهما بطلقة واحدة. في الجولة الثالثة هناك ستّ علب من الخفّاش مرتبة في خطّ مائل، والمفروض إسقاطُها بثلاث طلقات فقط.

جرت "مسابقة السجائر" ذلك المساء. يُقال أن العجوز الذي يدير كشك الخفاش يرتّب عُلب السجائر في وضعيات أصعب من أي مكان آخر في حديقة أساكوسا، فيجتمع الروّاد هناك ويستعرضون "مهاراتهم في الرماية"، وهم لا يأبهون بوجود الفتيات أو غيابهنّ. عادة تجري تلك المسابقات عندما ينهي أحد الرماة جولاته على نوادي الرماية فيلملم قليلاً من المال يدفعه لصاحب أحد المحلات كي يتكفّل المسابقة، كأن يحجز على سبيل المثال مكاناً قرب جسر كابّاباشي ويلتقي هناك مرة في الشهر مع أصحابه المتنافسين. أو قد تبدأ ثلة من المتبجّحين مسابقاتها بعد إقفال المحلّات، كما حدث تلك المرة لدى كشك الخفاش. كانت الساعة قد شارفت على الحادية صباحاً حين انتهوا.

– انظر يا حلو، ظللت هنا تتفرّج طوال اليوم. سنغلق المحل الآن. ارجعْ غداً.

"حسناً"، يقول الفتى الواقف في زاوية الكشك ولا يتزحزح من مكانه. الإحباط بادٍ عليه. وإذ تنتبه أوهارو إلى ذلك تهرع نحوه وتضع يدها على كتفه.

– يا حلو، تعال معي. تعال إلى بيتي...

"حسناً"، يقول وقد احمرّ وجهه، إذ فاجأته هذه الفتاة ذات الملابس الغربية الجميلة بالتحدّث إليه.

– تستطيع البقاء هناك إن شئت.

وعند وصولهما إلى نزل رخيص في موكوجيما تغطّي أوهارو كتفي الفتى بكمّ يوكاتها في حركة حنونة كأنها تعانقه، وتلمس بنطلونه.

– هيه، معك نقود كثيرة يا حلو. لا ينبغي للأولاد أن يحملوا نقوداً كثيرة معهم. تستطيع أن تتركها عندنا إذا أحببت. تستطيع البقاء هنا قدر ما تحبّ يا حلو.

– كانت معي نقود أكثر هذا الصباح، لكنني أعطيت العجوز في نادي الرماية تسعاً وثلاثين. مثلكِ، قال لي إن الأولاد لا ينبغي أن يحملوا نقوداً كثيرة معهم، ولكنه كان سيشكّ فيّ إذا كنتُ قد

سلّمته نقودي كلها دفعة واحدة.

هناك مئتان وخمسون ينّاً في المحفظة التي يناولها الفتى لأوهارو.

تراساكا، الذي يبدو عليه الامتعاض حتى هذه اللحظة، يحدّق في وجه أوهارو، مشدوهاً.

"كنتُ أعرف! أصبتُ الهدف!"، تتعجّب أوهارو. كان قد انقضى شهر منذ حدّقت بجسدها العاري في المرآة.

"يا حلو، من أين حصلتَ على هذه النقود؟ هل ارتكبتَ شيئاً مشيناً..."، يبدأ تراساكا طرح الأسئلة، لكنّ أوهارو تقاطعه.

– لا تكنْ مغفّلاً. لستَ شرطياً. لا تقلق يا حلو. اذهبْ نَمْ. تأخّر الوقت.

ليس هناك إلا فراش واحد. سرعان ما ينام تراساكا.

كان الفتى قد سرق النقود من خزينة عمّه. كان قد واظب لبعض الوقت على اختلاس ينّين أو ثلاثة ينات كل يوم، وقد أتى إلى أساكوسا ومعه هذا المبلغ. هذه هي القصة كلّها. الغواية الغامضة لأساكوسا الساحرة. كان بيت عمه في أوغاوا–ماتشي في كاندا، وقد عمل الفتى مستخدَماً هناك.

يروي الفتى قصّته وأوهارو مصغية، تحيط عنقه بحنان يديها وتداعب وجنتيه برؤوس أصابعها.

– هل تلك الخزينة كبيرة؟

– خزينة المحلّ صغيرة، ولكنني أعرف أين يخبّئ المفاتيح.

– أنت تدري أن قميصك الرياضي وبنطلونك الأبيض بشِعان.

– ولكن هذه هي الثياب التي ألبسها دائماً حين أتسوّق وأوصّل الطلبات.

– حسناً. غداً، سنأخذ بعض هذا المال ونشتري لك كيمونو أو ثياباً غربية.

– أريد ثياباً غربية.

– هناك شيء آخر. من الآن فصاعداً أنت أخونا الصغير. نادِنا أخي وأختي. وأينما ذهبت، فمن واجبك أن تخبرنا، أنا وأخاك الكبير. اتفقنا؟

– اتفقنا.

– آه، حين نذهب غداً لنشتري ثياباً غربية لك، فاشترِ لي شيئاً أيضاً، من فضلك.

وأوهارو لا تكبر الفتى إلا بسنة واحدة فقط.

كان كومادا الذي سرق الجرو الألماني ليحمي أوشيو هو هذا الفتى قبل ستّ سنين أو سبع.

كانت رزمة النقود الأولى كافية لشراء طقمين غربيّين وغراموفون. واستمتع الثلاثة بما تبقّى من المبلغ في الحديقة. وعند ذهابهم إلى نادي الرماية ليحاولوا استرداد الينات الثلاثين: ''آه. لقد صرفتُها فوراً. يا حلو، ألم تقُلْ إنها لي؟''.

ما الفتى إلا عبء حين ينفد المال.

– شئتَ أم أبيت، ليس أمامك أي خيار آخر. ارجعْ إلى عمّك. هيّا... كُن لطيفاً!

– لا متعة مع الإفلاس. سأذهب وأجلب لنا مزيداً من المال.

حين ترى أوهارو حزن الفتى وانكساره، تدسّ فكرة في رأسه. فبالمال يستطيع أن يشتريها من ترّاساكا.

وهكذا، طوال خمس سنين أو ستّ، كومادا لا يفارق أوهارو، متردّداً على أساكوسا بصفته عضواً في جماعة الزنّار الأحمر أو جماعة الحزام الأسود أو عصابة الحزام الأحمر، ولولاه، لكانت أوهارو المنهمكة بمشاغلها قد أهملت نفسها وفقدت جاذبيتها وضاعت تماماً.

ولسبب من الأسباب، لا يزال كومادا متيَّماً بمفاتنها. ترجو له أوهارو من صميم قلبها أن يحظى ببداية جديدة مع شابة لطيفة ذات إرادة حديدية، فتلتمس المساعدة من يوميكو.

''هل تقصدين أنني فتاة من هذا الصنف، أم تريدين منّي أن أبحث له عن فتاة مثلها؟''، سألتها يوميكو باقتضاب وتهذيب.

أمّا يوميكو، بالمناسبة أيها القرّاء الأعزّاء...

حين كنتُ قد وصلتُ إلى هنا في كتابة روايتي، التقيتُ يوميكو في مصادفة غريبة، ولهذا لا بدّ لروايتي أيضاً من انعطافٍ مفاجئ.

ذات مرّة، قارنتُ روايتي بالقارب، وقد التقينا بالفعل على متن قارب حقيقيّ – ها نحن معاً نركب واحداً من تلك الزوارق البخارية العائدة إلى شركة الزوارق البخارية في نهر سوميدا وتعرفتها صنّ واحد.

أركب زورقاً عند رصيف هاما–تشو ذاهباً باتجاه جسر آزوما.

تحدّق بي فتاة تبيع زيت الأقحوان أوشيما للشعر، رافعة ناظريها وحدقتاها أقرب إلى جفنيها العلويين. إنها ترتدي معطفاً رخيصاً ذا لون أزرق بحري منقَّط بالأبيض يصل إلى وركيها ويضيق عليهما، مع مئزر بنفسجي، وجوارب زرقاء غامقة وجزمة قماشية ذات نعل مطاطي، وعلى ركبتيها صرة سوداء من قماش وورق مزيّت أيضاً، وتعتمر قبعة مدوّرة من القشّ يسندها على

الجانبين عُودا خيزران صغيران، وخصلة شعر تقطع خدّها منسدلة على وجهها الذي لوّحته الشمس. تبدو بمكياجها الخفيف مثل وردة آتية من إحدى القرى إلى كبرى المدن، ومظهرها منسجم مع هذا الزورق البخاري العتيق. رداء الموسلين الملفوف حول خصرها ينتأ من حاشية ثوبها.

بغتة، تنفرج أسارير الفتاة العابسة.

– ما رأيك بزجاجة من زيت الأقحوان أوشيما؟ هدية جميلة من أجل زوجتك.

يوميكو!

– شكراً. أعتقد أنني قد رأيتُك من قبل في مكان ما. أنا متأكّد...

– أو ما رأيك في شامبو مصنوع من مسحوق المرجان وجذور أعشاب البحر؟ سيزيد شعرك لمعاناً وكثافة.

– ألا تظنّين أن المزحة قد طالت؟ كالمعتاد، أنتِ تبالغين في لعب دورك.

– وأنتَ أيضاً. لماذا أنت على هذا القارب؟

– بعدما أخذوك على ذلك الزورق البخاري الأبيض، أردت الاستمرار بكتابة قصتي، ولهذا أنا هنا أتجوّل متأملاً المناظر على ضفاف نهر أوكاوا.

– لا تكتبْ عن بائعات الزيوت، اتفقنا؟

– أو المتنكّرات كبائعات زيوت. كيف تريدين لهذه القصة أن تستمرّ؟

– اكتُبْ أنني أبحث عن شخص ما.

– ولكنك دائماً تبحثين عن شخصٍ ما.

– كلا، هذا ليس صحيحاً. يجب أن أكسب لقمة عيشي!

– ولهذا السبب استأجرتِ هذه الثياب من محل للأزياء؟

– آه، كلا. لقد استعرتُها من بائعة زيوت حقيقية.

– وماذا عن هذه البائعة؟

– إنها الآن في أساكوسا تستمع لمانزاي. أو لعلّها تتسكّع أمام باب المسرح. وكما تعلم، لم يكن عبثاً أن يُسمّى هذا العمل "بيع الزيوت[88]".

88 ينطوي هذا التعبير على معانٍ أخرى مثل التسكّع أو الكدح لقاء مال زهيد أو ممارسة الجنس السريعة.

يصل القارب إلى جسر آزوما، ويوميكو تعتمر قبعتها القشّ المدوّرة، وتقول: "والآن، صعبٌ التعرّفُ إليّ".

ثم تنهض. معطفها الأزرق القصير المنقَّط بالأبيض ممزّق من الخلف.

الحواشي

الأحقاب والعصور

تايشو: دام عصر الإمبراطور تايشو من 1912 إلى 1926.
جنروكو: مرحلة في عصر إيدو دامت من 1688 إلى 1704، وهي عادة العصر الذهبي للأدب الشعبي.
شوا: دامت حقبة الإمبراطور شوا من 1926 إلى 1989.
الشوغن: احتكر المحاربون الملقّبون بـ"الشوغن" القوة العسكرية وكانوا الحكّام الفعليين في إقطاعيات اليابان من 1192 إلى 1868.
كاماكورا: امتدت هذه الحقبة من 1185 إلى 1333.
كيو: تمثل هذه المرحلة السنوات الثلاث الأخيرة من عصر إيدو بين 1865 و1868.
ميجي: دام عصر الإمبراطور ميجي من 1868 إلى 1912. ألغت حكومة ميجي النظام الإقطاعي توكوغاوا الذي استمرّ من 1603 إلى 1868، كما دشّنت تغييرات كبرى طاولت المؤسسات التعليمية والسياسية والاجتماعية في اليابان.
هيّآن: تمتد هذه الحقبة من 794 إلى 1185.

الأعلام والشخصيات التاريخية والأدبية

آزنبو، سويدا (1872–1944): ناثر وكاتب أغنيات شعبية تصوّر كلماتها غالباً المشكلات الاجتماعية بحسّ ساخر. عاد كاواباتا إلى كتابات آزنبو الكثيرة عن أساكوسا أثناء كتابة هذه الرواية.
إنشو، كوبوري (1579–1647): مهندس حدائق وصالونات شاي، ويقال أنه قد صمم قلعة نيجو في كيوتو. كما كان شاعراً معروفاً وخطاطاً وأحد أساتذة فنّ الشاي الياباني.
أوباميا وَهيميميا: العجوز أوباميا والفتاة الجميلة هيميميا من تقمّصات الإلهة كانّون، ترسلان إلى الأرض في أحوال خاصة لمحو ذنوب الناس.
أوتامارو، كيتاغاوا (1753–1803): رسام وفنان معروف في فن الطباعة الياباني "اليوكيوي"، اشتهر على الخصوص بتصوير بورتريهات النساء في يوشيوارا.

أوشيشي، بنت البقال: خسرت عائلة أوشيشي منزلها في الحريق الكبير الذي دمّر قسماً كبيراً من هونغو في كانون الأول/ ديسمبر 1682، وحين التجأت العائلة إلى أحد المعابد وقعت أوشيشي في غرام راهب شابّ هناك. في آذار/ مارس 1683، أضرمت ناراً في المنزل الجديد آملة في لقاء الراهب الشابّ مرة ثانية، ثم اعتقلت وحكم عليها بالإعدام حرقاً. رويت قصتها في أعمال أدبية شتّى من مسرح الدمى والحكايات إلى مسرحيات الكابوكي.

أوكيشي: الخليلة اليابانية للقنصل الأميركي تاونسند هاريس (1804–1878)، وقد استلهمها جياكومو بوتشيني في أوبرا **مدام بَترفلاي 1904**.

إيشيو، هيغوشي (1872–1896): شاعرة وكاتبة كتبت غالباً عن المقيمين في الأحياء المحيطة بمواخير يوشيوارا. في إحدى أشهر قصصها "مقارنة القمم"، تصف حيوات وألعاب الأطفال الذين يشبّون في واحد من تلك الأحياء.

بنزايتن: الإلهة الوحيدة الأنثى بين آلهة الحظّ السبعة. إلهة الحكمة والجمال والموسيقا والبلاغة والحظ وفضائل أخرى. عرفت عنها معونة الناس بالحظّ ليصونوا نجاحاتهم المالية، كما اشتهرت بالغيرة.

تسوغوهارو، فوجيتا (1886–1968): رسام ياباني بارز اشتهرت رسومه للقطط والعاريات والطبيعة الصامتة. عاش معظم حياته في باريس، وصار مواطناً فرنسياً سنة 1955.

تويوكوني، أوتاغاوا (1769–1825): رسّام عُرف بأعماله في فن الطباعة الياباني "اليوكيوي"، خصوصاً تصوير بورتريهات الممثّلين.

جنجي، الأمير: بطل حكاية جنجي التي يُقال أن موراساكي شيكيبو قد كتبتها حوالى سنة 1000. يخوض جنجي الوسيم علاقات كثيرة مع نساء البلاط في قصور الإمبراطور هايان.

ريهي، أمانويا (1662–1727): تاجر ثرّي في أساكوسا زوّد بالأسلحة والملابس سبعةً وأربعين محارباً من الساموراي الجبابرة [رونين] واقتحموا دارة السيد كيرا واغتالوه في 31 كانون الثاني/ يناير 1703، ثأراً لسيّدهم آسانو ناغانوري لاعتقادهم أن مَن قتله هو كيرا. اعتبر عملهم هذا مثالاً في الولاء في أخلاق المحاربين، وأثار في الوقت نفسه الكثير من الأسئلة في أوساط الحكومة والعلماء الكونفوشيوسيين حول الكيفية التي ينبغي بها معاقبة هؤلاء الرجال لأنهم ارتكبوا جريمة قتل. عولجت هذه القصة في الكثير من الأعمال الأدبية والمسرحية حتى في مسرح الدمى.

سوشون: إمبراطور حكم من سنة 587 إلى 592.

سويكو: إمبراطورة حكمت من 592 إلى 628.

كازان (968–1008): إمبراطور من حقبة هايان حكم من سنة 984 إلى 986.
كانيتشي وأوميا: شخصيتان من رواية "الشيطان الذهبي" لأوزاكي كويو (1876–1903). كانيتشي طالب فقير ترفض حبّه أوميا التي تفضل الزواج برجل ثريّ. مشهد الرفسة المعروف مصوّر في آتامي، حين رفس كانيتشي أوميا على شاطئ البحر.
كوريكارا–فودو: إله النار.
كولنتاي، ألكساندرا (1871–1952): كاتبة روسية نسوية شيوعية، لاقى كتابها "الحبّ الأحمر" رواجاً واسعاً في اليابان خلال عشرينيات القرن العشرين.
كومِه نو هيناي: محارب ساموراي من القرن السابع عشر. قتل قرابة ألف رجل، ثم دفعته مشاعر الذنب وتأنيب الضمير إلى بناء نصب تذكاري لقتلاه سهر فيه على خدمة أرواحهم. تحول بعد وفاته إلى إله رومانسي، إذ تقول الأسطورة إن المرأة التي تزور تمثاله في الضريح المذكور ستتزوّج مَن تحبّ.
ناريهيرا (825–880): شاعر وصاحب قصة عشق شهيرة في اليابان. يُقال أنه مؤلّف "حكايات إيسِه".
نامبو، أوتا (1749–1823): اسمه أوتا تان، وقد استخدم أكثر من اسم مستعار: شوكوشان، يومو نو أكارا، كيوكاين. كان اسماً معروفاً في المشهد الأدبي حينذاك، واشتهر على الخصوص بقصائده التي سخر فيها من مجتمع القرن الثامن عشر.
هيتومارو (660–708): شاعر من الشعراء الكلاسيكيين الأربعة الكبار الذين جمعت أعمالهم في **مانيوشو**، أي كتاب المختارات الأساسي الذي جمع الأشعار اليابانية سنة 760.
يومي: إمبراطور حكم من سنة 585 إلى 587.

الأماكن

آتامي: مدينة معروفة بينابيعها الحارة، تقع في مقاطعة شيزوكا في القسم الشرقي من شبه جزيرة إيسه.
آساجي: يقع هذا المرج على الضفة الغربية لنهر أوكاوا.
أوتوري: القسم الأكبر من معابد أوتوري يقع في يوشيوارا، ورمزها الطائر المرسوم في الأبراج الصينية. كانت احتفالات أوتوري تجري في يوشيوارا خلال نوفمبر/ تشرين الثاني، وتباع فيها

الرقى والتعاويذ وزينة رأس السنة.

أوشيجيما: يعود تاريخ هذا الضريح إلى سنة 860، وقد نقل بعد زلزال 1923 من موكوجيما إلى حديقة سوميدا. زوّار الضريح يلمسون مواضع معينة من تمثال البقرة المقدسة تتناسب مع أعضاء جسدهم التي تؤلمهم.

أوكاوا: أطلق هذا الاسم على الأقسام السفلى من نهر سوميدا، وظل متداولاً حتى العقود الأولى من القرن العشرين. أوكاوا موضوع الكثير من الأغنيات والقصائد في عصر إيدو.

أوينو: كانت أوينو مسكناً للنبلاء، حُولت إلى حديقة عامة سنة 1873. افتتح فيها أول متحف للفن في طوكيو مطلع القرن العشرين، وحديقة حيوانات ومنصة للمعارض الدولية ومرافق أخرى.

إيدو، الأمكنة المقدسة في إيدو: مواقع ذات أهمية ثقافية ودينية وتاريخية كانت تدرج ضمن كتب للمعارف العامة في عصر إيدو لعامة القراء والمختصين على السواء.

إينوشيما: جزيرة صغيرة في مقاطعة كاناغاوا قرب مدينة كاماكورا. مكان للعبادة ومنتجع منذ حقبة كاماكورا.

آيوجيما: جزيرة بركانية في المحيط الهادي، ألحقت باليابان سنة 1891، وأقيمت فيها معسكرات المحكومين بالأشغال الشاقة. احتلتها الولايات المتحدة بعد معارك دامية ضد الجيش الياباني في الحرب العالمية الثانية. ظلت هذه الجزيرة تحت الاحتلال الأميركي حتى 1968 حين ألحقت إدارياً ببلدية طوكيو.

تاواراماشي: منطقة غرب أساكوسا.

تسوكوبا: جبل ارتفاعه 876 متراً ويقع شرق طوكيو، وقبل تشييد الأبراج والمباني المرتفعة كان هذا الجبل يُرى من المدينة مثلما يرى جبل فوجي.

دوغنزاكا شيبويا: تقع هذه المنطقة جنوب غرب أساكوسا، وقد شهدت نمواً في مرافق التجارة والمتعة والترفيه أيام "عصابة الحزام الأحمر" بعد شق سكك جديدة للقطارات وازدياد مشاريع البناء في ضواحي طوكيو. كانت ذروة شعبيتها بين الشبّان بعد الحرب العالمية الثانية.

شيبا: مقاطعة جنوب شرق طوكيو.

شينجوكو: حي آخر للمتعة والترفيه غرب طوكيو، اجتذب طيفاً متنوعاً من الناس، من الشبان والشابات طلاب الجامعة والكتاب والفنانين حتى الخادمات والتجار ورجال الأعمال. تقارير صحفية عدة وصفت شينجوكو بأنه حيّ للطبقة الوسطى يخلو من سحر أساكوسا وغموضها المشبع بروح

عصر إيدو. بنيت محطة شينجوكو للقطارات سنة 1925 وسرعان ما أصبحت أكثر المحطات ازدحاماً في طوكيو.

فوكاغاوا: منطقة في طوكيو شرق نهر سوميدا، وفيها حي الدعارة المرخّصة. كانت جسور فوكاغاوا في نهاية عصر ميجي أكثر عدداً من الجسور في أي مكان آخر من طوكيو.

كاغورازاكا: حي وسط طوكيو، كان معروفاً بالترفيه والتسليات الشعبية مطلع القرن العشرين، خصوصاً لدى الطلاب الجامعيين وطلبة الثانوية.

كانتو: منطقة كثافتها السكانية عالية تقع وسط هونشو الجزيرة الرئيسية في أرخبيل اليابان، وتتضمّن سهولها مدينة طوكيو إلى جانب عدد من المدن والبلدات الأخرى.

كاندا: منطقة وسط طوكيو غرب أساكوسا، ارتبطت بالدعارة في عصر إيدو، كما كانت مركزاً للكثير من المدارس والمكتبات ودور النشر في عصر ميجي.

كاواغو: تقع هذه البلدة المعروفة بقلعتها شمال غرب طوكيو.

كوراماي: حي في طوكيو يقع على جهة أساكوسا وقد بني جسر كوراماي الفولاذي سنة 1927.

كوكوبو: مدينة معروفة بجودة تبغها في جزيرة كيوشو جنوب اليابان.

موساشينو: سهل جنوب غرب كانتو يمتد من طوكيو إلى سايتاما. لهذه المنطقة ظهور متواتر في أدب القرن الثاني عشر. بدأ فيه تشييد المباني السكنية وشقّ السكك الحديدية خلال عشرينيات القرن العشرين.

موكوجيما: منطقة على الضفة الشرقية لنهر أوكاوا قرب أساكوسا، كانت معروفة بمعبدها وأشجار الكرز والخوخ. تراجعت شعبيتها كمنطقة سياحية مع بداية القرن العشرين.

مومویاما، قلعة: حصن فوشيمي في مقاطعة موموياما في كيوتو، بنيت بين عامي 1592 و1596 بناء على أوامر تويوتومي هيديوشي الذي عمل على توحيد اليابان وعاش في تلك القلعة حتى وفاته سنة 1598.

مينوا: حي وسط طوكيو شمال أساكوسا وقريب من يوشيوارا.

نيكولاي: كاتدرائية أرثوذكسية روسية في منطقة كاندا في طوكيو، أنجز بناؤها سنة 1891 بعد ثمانية أعوام من أعمال البناء. دمّرها زلزال كانتو وبني في موضعها مبنى صغير.

هاشيبا: حي صغير فقير يقع بين يوشيوارا ونهر أوكاوا.

هوكّايدو: الجزيرة الثانية كبراً بين الجزر الأربع الكبرى في أرخبيل اليابان، وتقع في أقصى شماله. كانت مركزاً لمعسكرات الأعمال الشاقة أيام كتابة هذه الرواية.

هونجو: منطقة شمال شرق طوكيو على الضفة الشرقية لأوكاوا مقابل أساكوسا.
هونغو: منطقة شمال غرب أساكوسا. أنشئت فيها نهاية القرن التاسع عشر الجامعة الإمبراطورية (جامعة طوكيو حالياً). أمضى كاواباتا شطراً من شبابه في هذه المنطقة.
ياسوكوني: بُني هذا الضريح سنة 1869 تكريماً لذكرى الجنود المستشهدين في معارك مختلفة.
يوشيوارا: حي الدعارة المرخصة ومنطقة مهمة لإنتاج الثقافة والفنون والأزياء خلال عصر إيدو. أسّست هذا الحي حكومة توكوغاوا العسكرية سنة 1617، ووضعت على مدخله بوابة عالية وحفر حوله خندق طويل منعاً لهرب النساء المحتجزات هناك، وكانت معظمهن ممنوعات من مغادرة المكان بحكم القانون حتى سنة 1900. كانت البغايا يعرضن للبيع وهن يرتدين كيمونات مثيرة جالسات متبرّجات داخل أقفاص في الشارع على عتبات المواخير. بطلت طريقة العرض هذه في الزمن الذي دارت فيه أحداث هذه الرواية. طارت شهرة يوشيوارا إلى الآفاق عند منعطف القرن العشرين وأغلقت رسمياً سنة 1958.

معالم أساكوسا وشخصياتها

الأكواريوم: افتتح في تشرين الأول/ أكتوبر 1899 في المنطقة الرابعة من حديقة أساكوسا. كانت الطوابق العليا للمبنى تستخدم لعروض كازينو فُولي.
أوبرا أساكوسا: أطلق هذا التعبير العامّ على عروض شعبية في مسارح أساكوسا ابتداء من عام 1917 وتضمّنت عروضاً موسيقية. اضمحلت مع تزايد عروض المنوّعات الراقصة ودور السينما ومسرحيات المبارزة بالسيف في السنوات التي أعقبت زلزال 1923.
أوشياجي: محطة الترام القديم شرق أساكوسا.
أوشيرو، ساتو (1903–1973): كاتب وشاعر ولد ونشأ في أساكوسا، أمضى شطراً من صباه في حديقة أساكوسا، وكتب الكثير عن عوالمها، كما ألف الأغاني وقصص الأطفال وكان حضوره متواتراً في برامج الإذاعة والتلفزيون. الاقتباس في هذه الرواية مأخوذ من مقالته "جواهر القصص الغربية"، المنشورة في مجلة "تيارات جديدة"، كانون الأول/ ديسمبر 1929.
أوكوياما: كانت تقع ضمن المنطقة الخامسة من حديقة أساكوسا. تأسست بعد الحريق الكبير سنة 1657، وكانت منطقة للترفيه والمتعة زاخرة بنوادي الرماية ولعب السهام وخيم السيرك

والمواخير. تراجعت شعبيتها مع صعود منطقة روكّو ونموّها، وكل ما تبقى منها اليوم حديقة صغيرة.

إيماهان: مطعم في أساكوسا اشتهر بالسوكياكي، وهو طبق رئيسي يتمّ إعداده على المائدة عادة، ويتألف من الخضار وشرائح رقيقة من لحم العجل تُطهى مع صلصة الصويا.

إيناري: إله الحصاد والتجارة في ديانة الشنتو، رسوله الثعلب. معابده كثيرة في اليابان.

برج الطوابق الاثني عشر: المعروف باسم ريونكاكو. شيد هذا البرج سنة 1890، وكان ارتفاعه خمسين متراً ومشيداً من القرميد. كان أعلى بناء في طوكيو، والمبنى الوحيد المزود بمصعد قبل زلزال 1923، وقد ظلت المنطقة المحيطة به، حتى بعد الزلزال ببضع سنين، مأهولة بالمومسات وبيوت الدعارة غير المرخّصة قبل انتقالها إلى شرق أوكاوا. كانت هناك في هذا البرج محلات تبيع بضائع من مختلف أنحاء العالم وتتوزع خمسة طوابق من الأول إلى السادس، إلى جانب المطاعم وشرفة المراقبة التي زوّدت بتلسكوب فوق الطابق العاشر.

برج المترو: بناية عالية فوق محطة أساكوسا للمترو، وهي محطة المترو الأولى التي افتتحت في طوكيو في 30 كانون الأول/ ديسمبر 1927، وكان طولها 2.2 كم بين أساكوسا وأوينو التي ضمت بناء عالياً مشابهاً. كان كاواباتا يرى هذا البرج بعيداً عن روح الثقافة وأقرب إلى أوساكا مسقط رأسه والمدينة المعروفة بالتجارة.

بركة هيوتان: أو بِركة اليقطين، بحيرة صناعية صغيرة أقرب إلى البركة تشبه اليقطين في شكلها، داخل المنطقة الرابعة من حديقة أساكوسا. أنشئت سنة 1883 للحماية من الحرائق، ورُدمت سنة 1952 حين باع معبد سنسو أراضي حديقة أساكوسا.

بوابة توريي: بوابة رمزية مع عارضتين للدلالة على الدخول إلى معبد من معابد الشنتو.

بوابة كاميناري: البوابة الرئيسية لمعبد سنسو. احترقت سنة 1865 في حريق امتدّ إليها من يوشيوارا. أعيد بناؤها أخيراً سنة 1970 عند مدخل سوق ناكاميسه.

بوابة نيتن: البوابة الشرقية لمعبد سنسو بنيت سنة 1618، نجت من زلزال 1923 لكنها احترقت في القصف الأميركي لطوكيو خلال الحرب العالمية الثانية.

بوابة نيو: كانت بوابة رئيسية لمعبد سنسو في زمن هذه الرواية.

تشومي: معبد للإلهة بنزايتن في موكوجيما، اشتهر بفطائر الرزّ الملفوفة بأوراق الكرز.

جسر آزوما: جسر حديدي شيد سنة 1882 ثم أعيد بناؤه سنة 1931. كانت هناك جسور خشبية موجودة منذ النصف الثاني للقرن الثامن عشر، وكثيراً ما كانت تظهر في الرسوم والطباعة على

الخشب.

جسر كوماغاتا: جسر فولاذي طوله 239 متراً بني سنة 1927 كجزء من مشاريع إعادة بناء طوكيو بعد زلزال 1923.

جسر كوتوتوي: جسر فولاذي طوله 161 متراً بني سنة 1928، ويصل بين حديقة سوميدا وموكوجيما على ضفتي نهر أوكاوا.

جسر كيوسو: جسر فولاذي فوق نهر سوميدا يبلغ طوله 186 متراً، أنجز بناؤه سنة 1928.

جسر ماكورا: جسر حديدي بني من أجل سكة القطار في محطة توبو.

حديقة أساكوسا: واحدة من الحدائق الخمس حول المعابد الكبيرة، وكانت تعود سابقاً إلى عائلة توكوغاوا قبل أن تفتح لعامة الناس سنة 1873 من قبل حكومة ميجي. جرى توسيع حديقة أساكوسا بين 1876 و1882، وأضيفت إليها بركتان صناعيتان سنة 1883. قسّمت إلى المناطق السبع التالية سنة 1884: (المنطقة الأولى حول القاعة الرئيسية لمعبد سنسو وملحقاته، وأحياناً يشار إلى هذه القاعة باسم "معبد الشافي بوذا". المنطقة الثانية امتدّت من بوابة نيو إلى بوابة كاميناري القديمة وتضمّنت شارع ناكاميسه. المنطقة الثالثة حول الدنبوين. المنطقة الرابعة تضمّنت بركة هيوتان والقسم المشجّر من الحديقة والأكواريوم ومنزل الحشرات. كانت المنطقة الخامسة المركز الرئيسي للترفيه والمتعة في أساكوسا قبل افتتاح عدد من المسارح ودور السينما في روكّو، وكانت تتضمّن هاناياشيكي وأوكوياما ودوّامة الخيل. المنطقة السادسة للسينما والمسرح، وقد عرفت أيضاً باسم روكّو. المنطقة السابعة جنوب شرق الحديقة). دمّرت حديقة أساكوسا خلال قصف طوكيو أثناء الحرب العالمية الثانية، ثم أعادت قوات الحلفاء والاحتلال الأميركي أراضي الحديقة إلى معبد سنسو الذي باع القسم الأعظم منها مطلع الخمسينيات، واختفت الحديقة من الوجود.

حديقة سوميدا: بعد زلزال 1923 بنيت ثلاث حدائق قرب أساكوسا على ضفتي نهر أوكاوا مع جسور حديدية وفولاذية.

دانجورو: ممثل الكابوكي إيشيكاوا دانجورو التاسع (1838–1903) وأحد المشاهير في تاريخ أساكوسا. كان تمثاله يقع وراء معبد سنسو عام 1919.

دنبوين: أطلق هذا الاسم على المساكن الواسعة التي كان يقطنها كبار الكهنة في معبد سنسو، وكان هناك إلى يسار المدخل الأمامي حديقة يابانية أنيقة مصممة وفق الأسلوب الشائع في عصر إيدو وبركة كبيرة على شكل "كوكورو" أي الحرف الياباني الذي يدلّ على القلب والعقل.

الدنكيكان: أول دار سينما افتتحت في اليابان سنة 1903. أعيد بناؤها سنة 1927 وأغلقت سنة 1976.

روكّو: الاسم الشعبي للمنطقة السادسة في حديقة أساكوسا حيث أنشئت دور السينما والأوبرا والمسارح بدءاً من 1886. انحسرت شعبية روكّو بعد الحرب العالمية الثانية وأفل نجمها نهاية الخمسينيات واندثر معظم مبانيها.

سانجا: يقع هذا الضريح ضمن معبد سنسو، وقد شيد سنة 649 حيث يرقد الأخَوان هاماناري وتاكينارو هينوكوما وسيّدهما هاجي نو ناكاتومو، وكان دور ثلاثتهم أساسياً في تشييد معبد الإلهة كانّون، وهو المعبد الأقدم في طوكيو. يقال أن الأخوين هينوكوما قد اصطادا بالمصادفة تمثالاً ذهبياً صغيراً للإلهة كانّون من نهر سوميدا سنة 628، وكانت تلك الحادثة هي بداية بناء معبدها في أساكوسا.

سوميكو، كاواي: راقصة في أوبرا أساكوسا كان جمهورها العريض من الرجال.

شارع أساكوسا: كان الشارع الرئيسي في أساكوسا، محاط بالمباني التجارية والمحلات والمطاعم، ويمتدّ من جسر آزوما أمام بوابة كاميناري شرقاً إلى هونغونجي غرباً.

فانوس إيريفون–تشو: يقع جنوب غرب أساكوسا ويمثل امتداداً لمنطقة كيوباشي التجارية في طوكيو.

كازينو فُولي: افتُتح في 10 تموز/ يوليو 1929 وأغلق في 11 حزيران/ يونيو 1932، وكان بين داعميه بعض من أهالي أساكوسا وفنّانون وكتّاب. كانت هذه الرواية الماثلة بين أيدينا وحلقاتها المنشورة في الصحافة سبباً وراء شهرة كازينو فُولي، إضافة إلى شائعة روّجت أن الراقصات يخلعن ثيابهن الداخلية ويتعرّين على الخشبة لسهرة واحدة كل أسبوع. كانت غالبيتهن فتيات تراوح أعمارهنّ بين اثني عشر وستة عشر عاماً، وكان لهنّ حضورٌ ملموس في الآداب والرسوم الإيروتيكية اليابانية في نهاية العشرينيات ومطلع الثلاثينيات من القرن العشرين. عُرضت نسخة من ''عصابة الحزام الأحمر'' على خشبة هذا الكازينو، ومثّلتها راقصاته في تموز/ يوليو 1930.

كانّون: أو كانّون كونريوسان–سنسوجي، التجسُّد الأنثوي للإله الهندي آفالوكيتسفارا، وهي بودهيساتفا ''تُعنى بالاستماع لأصوات العالم''. كثيراً ما تُسمّى ''إلهة الرحمة''.

كاميا: حانة رخيصة نسبياً في أساكوسا افتتحت سنة 1912 وكان يتردّد عليها زبائن من مختلف الطبقات.

محطة أساكوسا: محطة توبو للسكك الحديدية قرب بوابة كاميناري. افتتح مبناها ذو الطوابق السبعة سنة 1931، وتضمّن المخزن الكبير أساكوسا ماتسويا.

مدرسة أساكوسا الابتدائية: شيدت من القرميد وافتتحت سنة 1888.

المسرح الإمبراطوري: افتتح سنة 1910 وتضمن عدداً من الصالات للأفلام والتصوير الفوتوغرافي وفنون أخرى حديثة في ذلك الوقت.

معبد سنسو: يدعى أيضاً معبد كانّون أساكوسا أو معبد الإلهة كانّون. واحد من أقدم المعابد وأضخمها في اليابان، يعود بناؤه إلى القرن السابع. ما يستقطب الحجّاج والزوّار على الخصوص هو تمثال الإلهة كانّون وهو تمثال ذهبي صغير موضوع داخل صندوق مختوم في القاعة الرئيسية، إضافة إلى مخدّة الحجر في أسطورة هيميميا. كان لوقوع أساكوسا على طريق الذهاب إلى مواخير يوشيوارا دور في رواج كلتا القصّتين وازدياد زوّار المكان المقدّس.

معبد الطوابق الخمسة: أو باغودا الأسطحة الخمسة. شيّد سنة 942 وبلغ ارتفاعه ثلاثة وخمسين متراً، وحفظ فيه رفات كانّون أساكوسا ونصبها التذكاري. دُمّر أثناء الحرب العالمية الثانية، وأعيد بناؤه بالإسمنت المسلح سنة 1973.

ميمغوري: معبد الإلهين دايكوكوتن وإيبِسو، إلهي العمل والتجارة الرابحة، وهما من آلهة الحظ السبعة.

ناكاميسه: حرفياً "الدكاكين الداخلية". سنة 1885، افتتح الشارع الضيق لهذا السوق الممتد من بوابة كاميناري إلى بوابة نيو. يبلغ طوله حوالى 140 متراً وعلى جانبيه الحوانيت والمحلات والأكشاك. ثمة أسواق مشابهة حول معابد كبيرة أخرى في اليابان ويطلق عليها الاسم نفسه، ولكن يبقى ناكاميسه أساكوسا الأشهر بينها.

هاناجيما، يوكو: راقصة في كازينو فُولي، وبطلة فيلم "عصابة الحزام الأحمر في أساكوسا" المنتج عن هذه الرواية قبل انتهاء كتابتها سنة 1930.

هاناكاوادو: بطل مسرحية الكابوكي "سوكيروكو" أو "زهرة إيدو" سنة 1713، وتدور أحداثها في يوشيوارا. سمّي جزء من شوارع أساكوسا وحديقة صغيرة فيها باسم الهاناكاوادو في أواخر عصر إيدو، كما عرف مطعم برج المترو بهذا الاسم نفسه.

هاناياشيكي: افتتحت حديقة الملاهي الشعبية في أساكوسا سنة 1853، وكانت تضم أيام كتابة هذه الرواية حديقة حيوانات صغيرة ومسرح عرائس وتسليات أخرى. كانت توضع أمام مدخلها دمى

كبيرة بحجم الإنسان الطبيعي، وكثيراً ما كانت تزيَّن بالزهور في الخريف. لا تزال هذه الحديقة موجودة اليوم.
هونغانجي: معبد خارج مجمع معبد سنسو وواحد من أوائل الأبنية المشيدة بالإسمنت المسلّح في طوكيو.

الأعياد والاحتفالات

أوبون: عيد الموتى. يصادف منتصف آب/ أغسطس، حين يعود المتوفّون إلى منازلهم الأولى.
عيد الفتيات: يصادف الثالث من آذار/ مارس. كان الأهالي يلبسون الدمى ثياباً تمثل الإمبراطور والإمبراطورة وحاشية البلاط ويرتّبونها على مناضد ذات طبقات متدرّجة، كما تقدم فيه حلويات مزينة على شكل ألماسات. بعد الحرب العالمية الثانية تحوّل عيد الفتيات إلى عيد الدمى، بينما دمج عيد الفتيان وعيد الفتيات في عيد الأطفال.
عيد الفتيان: يعرف باسم "عيد السوسن" أيضاً، ويصادف الخامس من أيار/ مايو. كانت صور الأسماك تعلَّق إلى سارية أمام كل بيت وتعرض دمى المحاربين في الداخل، وتقدم فطائر الرز المحشوة بالفاصولياء الحلوة الملفوفة بأوراق البلوط أو أوراق الخيزران.

اصطلاحات في الفنون والآداب

أوكيسا: أغنيات ورقصات فلكلورية تعود إلى منطق نيّاغاتا شمال غرب طوكيو، ولها تنويعات كثيرة.
أوهارا بوشي: أغنيات فلكلورية تعود إلى كاغوشيما في كيوشو.
سنريو: أشعار تهكمية بذيئة أحياناً، تتألف من سبعة عشر مقطعاً لفظياً وتدور حول الحياة اليومية للناس العاديين في نهاية عصر إيدو، ومؤلفوها عادة شعراء مجهولون.
غيدايو: أغنيات تسرد قصصاً، بدأت في أوساكا وترافقها الشاميسن عادة، وقد سميت بعد المغنية تاكيموتو غيدايو (1651–1714). أصبحت مغنّياتها شابات جميلات ابتداء من عصر ميجي.
كابّوره: رقصة يابانية فلكلورية لها تنويعات محلية كثيرة. كانت تؤدّى عادة في المعابد مصحوبة بموسيقا الشاميسن، ثم دخلت مسرح الكابوكي لاحقاً.

كانتاي: أسلوب في الخطّ الياباني ابتكره أوكازاكيا كانروكو من مسرح ناكامورا سنة 1779. كثيراً ما استخدمت كلماته العريضة المدوّرة في الدعايات ويافطات مسارح الكابوكي وحلبات مصارعة السومو.

كومورا بوشي: أغنيات شعبية في عصر إيدو، معظمها من جزيرة كيوشو.

كوتا: أغنيات شعبية تغنى بمصاحبة الشاميسن. خلال عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته كتبت أغنيات كوتا كثيرة لموسيقا الجاز.

كيوموتو: طور هذا الأسلوب خلال القرن التاسع عشر، وهو نوع من أنواع الأداء في مسرح الكابوكي مصحوب بموسيقا الشاميسن.

المانزاي: قصص كوميدية يرويها مغنٍ أو حوار كوميدي بين شخصين أحدهما طبّال والآخر راقصة بالمروحة. كانت هذه الحواريات الراقصة تؤدَّى في الشوارع قبل انتقالها إلى المسارح والكباريهات أواخر القرن التاسع عشر، ثم الإذاعة خلال عشرينيات القرن العشرين، فالتلفزيون بعد الحرب العالمية الثانية.

نانيوا بوشي: تعرف أيضاً باسم "روكيوكو"، أغنيات خفيفة ظهرت في أوساكا خلال عصر إيدو ثم شهدت رواجاً كبيراً في مسارح طوكيو. كثيراً ما تدور كلمات هذه الأغاني حول أحداث تاريخية أو أساطير وخرافات شعبية. كانت تغنّى غالباً من قبل موسيقيي الشوارع بمصاحبة الشاميسن.

ياسوكي بوشي: أغنيات ورقصات صيادين بمصاحبة الطبل والناي. تعود هذه الأغنيات والرقصات إلى ميناء ياسوغي غرب اليابان، وقد قُدّمت في أوساكا سنة 1914 وفي طوكيو سنة 1917، ولاقت صدى واسعاً لدى الجمهور في هاتين المدينتين.

اليوز: مسرح للترفيه والتسلية تعرض على منصته عادة قصص طريفة يرويها حكواتي واحد. تندرج هذه المونولوغات ضمن فن الراكوغو الذي يعود إلى القرن الثاني عشر. ازدهرت هذه العروض في نهاية القرن التاسع عشر وبدايات العشرين، وأصبحت شبيهة بعروض فودفيل غير مكلفة عرفت شعبية واسعة حينذاك، وكثيراً ما كانت تبثّ على الراديو خلال عشرينيات القرن العشرين.

الأطعمة والمأكولات

مصّاصات تشيتوز: سكاكر طويلة ملونة بالأحمر والأبيض تباع في احتفالات نوفمبر للأطفال الذين يحتفلون بأعياد ميلادهم حين يبلغون أعمار ثلاث وخمس وسبع سنوات.

غيودون: طبق رخيص من لحم العجل والصلصة مع الرز، كان يباع على بسطات الشوارع.

سكاكر كاميناري: كانت معروفة في أساكوسا وتصنع من السكر المضغوط على شكل مكعبات ملوّنة.

سكاكر موريناغا: سوقت في البداية سنة 1899 بوصفها حلويات أميركية، وكانت هذه السكاكر المصنوعة من الحليب تُحزم في علب صغيرة بحجم الجيب وتباع بأسعار رخيصة في الدكاكين والأكشاك في محطات القطارات. العلبة الصفراء الرقيقة المألوفة حالياً في اليابان استخدمت للمرة الأولى سنة 1914. كما كانت شركة موريناغا تروّج للسكاكر بديلاً عن السجائر بين الشبّان الصغار في عصر تايشو.

حلويات ميجي: حلويات غربية تصنعها شركة ميجي اليابانية التي كانت تنتج سكاكر "تشارلي تشابلين" قبل زلزال 1923 ثم الشوكولا بدءاً من 1926.

موجيتورو: صلصة البطاطا الحلوة مع الشعير، كانت تباع في مطاعم رخيصة قد تكون في الوقت نفسه بيوتاً للدعارة غير المرخّصة.

الأثاث والأزياء

إنفرنس: رداء للرجال غربي الطراز على اسم البلدة السكوتلاندية إنفرنس، يعلق حول الرقبة وله قلنسوة.

إيكات–كاسوري: نسيج ياباني تقليدي تصبَغ خيطانه وتُحاك وفق أساليب متنوّعة تنجم عنها أشكال أو كلمات مختلفة.

تابي: جوارب بيضاء من القطن مع فجوة بين الإبهام وبقية الأصابع ترتدى مع الصندل والكيمونو.

تاتامي: حصيرة يابانية تقليدية تُصنع من قش الأرز عادة وتُفرش بها الأرضيات. قد تُقاس مساحة الغرفة بعدد حصُر التاتامي التي تحتويها.

شيمادا: تسريحة شعر يابانية شاعت بين الفتيات العازبات مطلع القرن العشرين، يُعقد فيها الشعر بشكل دائري خلف الرأس. يُقال أنها تُنسَب إلى بغيّ من بلدة شيمادا عاشت في يوشيوارا.

كومادِه: تعني حرفياً "تعويذة كفّ الدبّ". مذراة صغيرة من خشب الخيزران مزينة برموز ملونة تجلب الحظّ والصحة والمال. كانت تباع في أحياء عديدة في قلب طوكيو، وخصوصاً يوشيوارا.

موموواره: تسريحة للمراهقات مطلع القرن العشرين كان الشعر يربط فيها من الخلف ويوضع شريط في المنتصف لتشبه التسريحة دراقة مشطورة كما يفيد الاسم.

هابّي: معطف خفيف قصير يرتديه العمّال غالباً.

هاغويتا: ملعقة خشبية صغيرة تجلب الحظّ، تزيّن على أحد وجهيها بحيوان من الأبراج الفلكية أو صورة ممثل من مسرح الكابوكي، كما تستخدم في ألعاب الأطفال.

الهاكاتا: حزام خفيف للكيمونو مصنوع من الحرير ويتميّز بشكل مرسوم من الخيوط المزركشة سمّي على اسم جزيرة كيوشو.

الهاكاما: تنورة رسمية طويلة وضيقة للرجال والنساء تُرتدى فوق القسم السفلي من الكيمونو. غالباً ما كان طلاب الجامعة الذكور وطالبات الثانوية يرتدون هاكاما غامقة اللون.

هاوري: معطف يبلغ الوركين يرتدى عادة فوق الكيمونو.

هيباتشي: إناء كبير من الخزف أو الحجر أو الخشب المقسَّى يستخدم للتدفئة.

ورقة الجنكة: تسريحة للنساء راجت في المرحلة المبكّرة من عصر ميجي. كان الشعر يصفَّف في جانبين على قمة الرأس مع دبوس زينة في المنتصف على شكل ورقة جنكة.

يوكاتا: كيمونو صيفي خفيف أو كيمونو رقيق يُرتدى كلباسٍ للنوم.

يوكاتا جنروكو: يوكاتا ذو كمين مدوّرين فضفاضين من مرحلة جنروكو في عصر إيدو، وقد عادت إلى الظهور في سوق الملابس بعد سنة 1905.

حول الكتاب

نبذة

كان حيٌّ أساكوسا القديم في طوكيو حيَّ المتعة والملاهي وحياة الليل خلال عشرينيات القرن العشرين. تحفل الرواية بقصص ومشاهد من الحياة البوهيمية في أساكوسا حيث يختلط المتسوّلون وبنات الهوى القاصرات مع راقصات الاستعراض والكتّاب البارزين. تترأس الراقصة الشابة يوميكو عصابة غامضة تُدعى «عصابة الحزام الأحمر»، وأحد أفرادها هو راوي القصص المجهول الاسم في هذا العمل الذي يُعَدّ واحداً من الأعمال التأسيسية في الأدب الياباني الحديث.

قيل في الكتاب

* «ممتعة ومشوّقة» Japan Times

عن المؤلف

ياسوناري كاواباتا (1899-1972) روائي ياباني نال «جائزة نوبل للآداب» سنة 1968 لـ«براعته السردية التي تعبّر بحساسية كبيرة عن جوهر العقل الياباني». كان ناقداً أدبياً بارزاً اكتشف كتّاباً من جيل الشباب ورعاهم، ومن بينهم يوكيو ميشيما.